

رواية

كلمات على رمال متحركة

مزين يعقوب برقان
"كلمات على رمال متحركة"
(رواية)

الطبعة الثانية (2012)

جميع الحقوق محفوظة

دار الكتب والوثائق القومية المصرية
رقم الإيداع: 2010 / 15964

صدرت عن

ALJUNDI
دار الجندي للنشر والتوزيع
PUBLISHING HOUSE

دار الجندي للنشر والتوزيع - القدس

00972542263454

info@aljundi.biz

www.aljundi.biz

التصميم والإخراج الفني

الريشة


الأفكار الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، بدون إذن خطي من الناشر.

رواية

مزين يعقوب برقان

كلمات على رمال متحركة

obeikandi.com

إشارة

أحداث وشخصيات هذه الرواية خيالية تماماً،
وإن أي تشابه بين هذه الأحداث والواقع فإن ذلك محض صدفة.

(مزين)

obeikandi.com

إهداء

إلى كل مَنْ قُتِلَتْ كلمته، وقُيِّدَتْ حركته، وسُلِّيتْ حرّيته، إلى جرحى
الحروب..

إلى الغائب الحاضر.. المُلهِم، الذي جعل الحبر يتدفّق على الورقة البيضاء
كنهر جارٍ.. إليك أنت.

(مزين)

obeikandi.com

مِنْ مُعَلِّقَةِ اَمْرِى الْقَيْسِ

أَغْرَكَ مِنِّي أَنَّ حَبِّكَ قَاتِلِي وَأَنْكَ مَهْمَا تَأْمُرِي الْقَلْبَ يَفْعَلِ
وإِنْ تَأْكُ قَدْ سَاءَتْكَ مِنِّي خَلِيقَةٌ فَسُلِّي ثِيَابِي مِنْ ثِيَابِكَ تَنْسُلِ
وَمَا ذَرَفَتْ عَيْنَاكَ إِلَّا لِتَضْرِبِي بِسَهْمِيكَ فِي أَعْشَارِ قَلْبٍ مُقَتَّلِ
وَبِيضَةِ خَدْرٍ لَا يُرَامُ خِبَاؤُهَا تَمَتَّعْتُ مِنْ لَهْوِهَا غَيْرَ مُعْجَلِ

obeikandi.com

الفصل الأول

الأفكار تُقَحِّمُهُ في دورانها وهذيانها، في الوقت الذي يعلو فيه ضجيج الموسيقى العسكرية، قارِعاً الأذان والمكان في مدينة الوهم، عاصمة دولة السراب.

وسط تصفيق زائف، وابتسامات تُظهرُ الحب، وتُضمّر كراهية مقبّية، وضغينة مستعرة، يقف مالك، الذي بلغ الخامسة والعشرين، أمام مجموعة من العسكريين. تصفيق لتخريج صانعي الأشلاء البشرية. ذهنه ابتعد قليلاً عن ضجيج الموسيقى، لتعود ذاكرته إلى تلك المصطلحات العسكرية التي تعلمها. مصطلحات كثيرة تدوّخه، ترتفع وتهبط به كطائرة ضلّت وجهتها. إنها مسبحة المصطلحات العجيبة: حرب. سجناء. جرحى الحروب. إعدام. قتل. أسلحة. مقابر جماعية أو قبور

جماعية. قبور سرية. سجون سرية. تخطيط عسكري. حماية الحدود. ضبط النظام بالقتل والتشويه والتعذيب. جيش قوي. شعب يُحَقَّنُ بِحُقْن الصمت، وحقن الموت، وحُقْن الاغتصاب. نفوذ. القصر أو مصنع الوليات والحروب.

مصطلحات تتدحرج عن جبال رأسه لترطم في أعماق رافضة ثائرة. غشاوة تغلف وجهه وجسده، تفصله عمّن حوله. نسيج عنكبوتي يلفّ ذاته، يفصله عنها بطريقة عجيبة.

بدلته العسكرية تفصله عن ذاته تدريجياً، وأوسمة تكشّر عن أنيابها على كتفيه.

الكليات العسكرية، وَكُرَّ العقول الموثوقة، وَوَكَّرَ طَحْن القيم والمبادئ السامية بطريقة "فنية" وسحرية. بطريقة التنويم المغناطيسي، وبطريقة الخداع السمعي والبصري. في الجهة الأخرى، يراقب حاكم دولة السراب، شديد، الحفل الصاحب بعينين يقظتين، وفرحة عارمة تجتاحه. رجل في السادسة والخمسين من عمره، طويل القامة، أسود العينين، ممتلئ الجسم، عظيم الأوداج. تتراقص السعادة في عينيه كلما قفزت نظراته إلى تلك البدلة التي يرتديها مالك، فالعيون العسكرية تأسرها الألوان العسكرية، كتلك التي تتلوّن بها بدلة مالك. تأسرها الآلات العسكرية، ووسائل التدمير.. أدوات القتل والبتر.

خاضت دولة السراب حروباً في السابق، وكسبت الحروب بسهولة، كسهولة العزف على آلة موسيقية بسيطة. العزف على أشلاء القتلى، وآلام الجرحى، وبكاء اليتامى والثكالى. هكذا تكون الحروب؛ بدفع الثمن مسبقاً من أرواح الناس، قبل الوصول إلى نشوة النصر ومتعته الساذجة. متعة تصعد وترتفع حتى تصل إلى القمة. متعة جاءت بعدما تسلقت جثث وآلام الناس.

ترتفع أصوات الموسيقى احتفالاً بظهور فوج جديد من القتلة والسفاحين. تُعزَفُ الموسيقى لهؤلاء؟ ليس غريباً أن تُعزَفَ الموسيقى العسكرية للقتلة، فهي تحمل الصفات القتالية نفسها. إنها جزء من شروهم، تحمل شراستهم ورعبهم.

أجساد عارية وإن كستها البدلات العسكرية التي تنطق بشهوة القتل والتعذيب، فبدلة الرجل العسكري كبدلة رجل الفضاء؛ ثقيلة في تفاصيلها. أجساد عارية من الرحمة والقيم السامية. أجساد ميتة وإن كانت تتحرك وتمشي.. ميتة بموت إنسانيتها.

* * *

ذات يوم، دخل أحد المستشارين العسكريين القصر كي يخبر حاكم دولة السراب بآخر أخبار الحرب ضد دولة الضباب. حرب أُعلِنَتْ، لأن حاكم دولة الضباب رأى في المنام أنه يقتل حاكم دولة السراب. وبما أن

حاكم دولة السراب قارئ متعمق في تحليلات سيجموند فرويد النفسية، فقد اعتقد أن هذا الحلم سبب قويّ لإعلان الحرب على دولة الضباب، فالأحلام، كما يحلل فرويد، رغبات مكبوتة للفرد، فخشي حاكم دولة السراب أن تخرج الرغبات من كبئتها، فيُقتل.

أدى المستشار العسكري التحية للحاكم وقال بصوت هادئ:

- سلام عليك أيها الحاكم العظيم.

اعتدل الحاكم في جلسته وردّ قائلاً بصوت غليظ:

- أخبرني، كيف تسير أمور الجيش في ساحة القتال؟

أجاب المستشار العسكري:

- أمور الجيش على أحسن حال، ولكن، ولكن...

قاطعه الحاكم وسأل:

- ولكن ماذا أيها المستشار؟ هيا تكلم.

تقدّم المستشار بضع خطوات إلى الأمام وقال:

- ينقص الجيش بعض الآلات العسكرية.

قال الحاكم وقد اعتراه بعض القلق:

- استدع قائد الجيش على الفور. لن أقبل الهزيمة لدولة السراب. هذه

الدولة عُرِفَتْ دائماً بقوتها وتفوقها العسكري. لا أستطيع أن أتصور

هزيمتها، وقد قضيت سنين طويلة في تأسيس وتنظيم جيشها، حتى غدا

جيشاً يُضرب بقوته المثل. هيا انصرف أيها المستشار، واستدع قائد الجيش حالاً.

أحنى المستشار العسكري رأسه طاعة وقال:

- أمرك يا مولاي.

انصرف المستشار العسكري. هزيمة.. خسارة، لم تكونا في قائمة مصطلحاته. انحنا من توقعات، فالحاكم يخشى الهزيمة خشية الموت. تراكضت الأفكار في رأسه. اعتقد أن الخيانة قد تسربت إلى صفوف جيشه، واعتقد أيضاً أن قائد الجيش قد استحوزت عليه فكرة الاستيلاء على الحكم، كي يُدخل دولة السراب في عباءة عهد جديد.

لم يكن نقص الآلات العسكرية ليمرّ على الحاكم بدون تدقيق وشكوك، خصوصاً أنه أنفق الأموال الطائلة على تجهيز جيشه بأحدث الآلات العسكرية. ودارت الأفكار في رأسه فتساءل في سره: "هل تمّ تهريب الأسلحة؟ هل تم تدميرها؟ سواء هُربَت أم دُمّرت، فالمصيبة عظيمة تفوق قدرتي على التحمل. إن اكتشفت خيانة قائد الجيش فسأقطع رأسه. قطع الرؤوس أحد فنوني.. إحدى نوبات جنوني. من هو الذي يجرؤ على خيانتني؟"

أخذ الحاكم نفساً عميقاً وقد فتّك به الشك. جلس وراح يتوعّد كل من تسوّل له نفسه بخيانتته.

وبينما كان يفكر في شؤون الحكم والحروب، ظهر قائد الجيش ببدلته العسكرية؛ رجل في السابعة والأربعين من عمره. تقدم قائد الجيش وقد نخر الخوف قلبه. أحنى رأسه تحية للحاكم وقال:

- أمرك يا مولاي.

حدّج الحاكم قائد الجيش بنظرة فاحصة ثم سأل بصوت جهوري:

- كيف تسير الأمور في ساحة القتال؟

أجاب القائد بتهيب:

- يقاتل الجنود ببسالة تفوق حد الوصف، و... و... ولكن تنقص بعض الآلات العسكرية يا مولاي.

اصفرّ وجه الحاكم غضباً، وقال بفظاظة:

- ماذا تقول أيها القائد؟ كانت الآلات العسكرية متوفرة قبل أيام.. ماذا حصل؟ هل هُزم الجيش، ولا تجرؤ على الاعتراف؟ أشم رائحة خيانة. الويل لكل من يفكر في خيانتني. غرفة الإعدام تنتظر كل خائن، وأنت تعرف ذلك.

هز قائد الجيش رأسه. ارتعشت أطرافه خوفاً ما أن تصور السجناء والرجال الذين قادهم النحس إلى غرفة الإعدام. تمالك قائد الجيش نفسه وقال:

- أعرّف يا مولاي. الأمور ليست كما تعتقد. لا أحد يجرؤ على خيانتك، فأنت منبع "العدل" والقوة ويحبك الشعب، ويعتبر جنودك طاعتك أمراً مقدساً.

قاطع الحاكم:

- ما الأمر إذاً؟

أجاب القائد بهدوء ممزوج بالقلق:

- يخوض جيشك حرباً شديدة الهول ضد جنود كالأسود في قوتها وشراستها...

قاطع الحاكم وقد ازداد غضبه:

- ماذا تقول؟ لا يوجد جيش أقوى من جيشي. أشرفت على تأسيسه وتجهيزه بنفسي. أي جيش هذا الذي يجرؤ على أن يواجه جيشي؟ إنه خطأ في التخطيط العسكري أو هي الخيانة، ولا أظن أنه يوجد احتمال آخر. اعترف أيها القائد وأخبرني. أهو فشل في التخطيط العسكري أم خيانة تزحف نحو قصري؟

تسمّر قائد الجيش في مكانه، وارتسم الوجوم على وجهه. لا يدري ماذا يفعل. لا يدري ماذا يقول. الأمران معاً. إنها الخيانة والفشل في التخطيط العسكري. كيف يجرؤ على قول ذلك أمام الحاكم؟ كيف يجرؤ على الاعتراف بأنه هو نفسه من يفكر بالإطاحة بالحاكم؟ أتسمى خيانة الظالم

خيانة؟ كيف يخبره بأنه قد سئم نظام حكمه المستبد؟ منذ توليه حكم دولة السراب ساد الفساد في البلد، وطال ظلمه الصغير والكبير، وتغلغلت أنياب قمعه في أجسام البشر حتى النخاع. وعادت ذاكرة قائد الجيش إلى بؤس الماضي، إلى الناس الذين قطعت رؤوسهم مقصلة الحاكم. نبض قلبه بسرعة، وارتعشت أطرافه عندما تخيل قائد الجيش فضح أمره، فمقصلة الحاكم لا تستثني أحداً مهما علا منصبه. ما أصعب أن يقع الفرد تحت رحمة المقاصل.. تحت رحمة الآلات القاتلة.

نظر قائد الجيش إلى الحاكم وقال مُطمئناً:

- سأتدبر الأمر يا مولاي. سأعيد التخطيط العسكري، وسنكسب المعركة. إنها مسألة وقت.

قال الحاكم والشك يجتاح رأسه:

- سأرى ماذا ستفعل، وذكّر الجنود بقوتي. كل خائن سيختفي عن الوجود في لحظات.

خارت قوى قائد الجيش برهة، ثم تمالك نفسه وقال:

- أمرك يا مولاي. سيكون ما تريد.

ما أن خرج قائد الجيش من القصر، حتى تنفّس الصعداء. تخيل منظر المقصلة فعراه شحوب شديد، ودبّ الرعب والفرع في جسده. ولكنه أدرك أن لا سبيل إلى الانسحاب، والتخلي عن خطته للإطاحة بالحاكم.

توجه قائد الجيش إلى مركز عسكري، وهناك التقى على انفراد بأربعة من الضباط كانوا يخططون للإطاحة بالحاكم. جلس قائد الجيش ونظر إلى الضباط الأربعة والخوف ينخر جسمه.

أخذ نفساً عميقاً وقال:

- يشم الحاكم رائحة خيانة. فما قولكم في ذلك؟

نظر الضباط الأربعة إلى بعضهم البعض. أخذ الضابط الأول، الذي جاوز الثالثة والثلاثين، نفساً عميقاً واعتدل في جلسته ثم قال بثقة:

- وكيف ذلك والخطة تسير في سرية تامة؟ لا تصدق كل ما يقول. إنه يستدرجك فقط.

وافقه الضابط الثاني، الذي كان في الثامنة والعشرين وقال:

- لا أظن أنه يعرف شيئاً. إنه غارق في هواجس ووساوس.

ابتسم الضابط الثالث وهو رجل في السادسة والثلاثين من عمره، متقد الذكاء، ثم قال بصوت هادئ:

- حريّ بنا أن نفعل ما بوسعنا حتى نكسب المعركة، وبذلك نكسب ثقة الحاكم، ويطمئن لوجودنا بين صفوف الجيش، وما أن يشعر بالاطمئنان وتزول شكوكه، حتى نبدأ بتنفيذ خطتنا، وهي تحريض الجيش والشعب ضده، وبذلك سينتهي ظلمه واستبداده، وسيسود العدل والمساواة والحرية، وستغدو دولة السراب مثلاً للحرية والعدل.

أجاب قائد الجيش وقد عاد الهدوء إلى وجهه:

- أعتقدون أن الخطة ستُنَفَّذ كما خُطِّط لها؟

أجاب الضابط الأول:

- لا تقلق. الأمر أسهل مما يخيّل إليك.

قاطع الضابط الثاني باستياء:

- إنَّ مَنْ يستبد بهذه الطريقة حتماً سينزل نحو وهد الهاوية. لقد تجاوز

عدد السجون الألف. فاق ظلم الحاكم حد التخيل.

نظر الضابط الأول إلى قائد الجيش وقال مؤيداً:

- نعم، سيزول حكمه ويختفي، ويومئذ ستكون نهاية استعبادنا وبداية

حريتنا.

قاطع قائد الجيش، وقال والقلق يلوح في عينيه:

- لا تتفاءلوا كثيراً. ضعوا حداً لتفاؤلکم دائماً، فالحاكم شديد الدهاء،

وبالغ الذكاء، وإني لأخشى أن تفشل خطتنا، ثم نقع في فخ مقصّلتة. إنه

يهدد ويتوعد. لم تروا نظراته...

قاطع الضابط الأول وسأل مستهيناً بدهاء الحاكم:

- وكيف كانت نظراته؟

أجاب قائد الجيش بسرعة:

- برق في عينيه الشك والغضب. خارت قواي عندما سمعته يتوعد كل من يخونه بالموت.

ضحك الضابط الرابع، وهو رجل في التاسعة والعشرين، ثم قال:

- سيموت هذا الحاكم حتماً. لن يسود العدل والحرية ما دام حاكماً.

ابتسم قائد الجيش ساخراً، وقال مخاطباً الضابط الأول:

- قلت لك ضع حداً لتفاؤلك. لا تكن شديد التفاؤل. الأمر ليس

بالسهولة التي تراها، وقد تُنسَفُ خطتنا التي بَنَيْنَاهَا على جبال من الآمال

بين عشية وضحاها.

اعتدل الضابط الأول في جلسته مُلقياً بصدوره إلى الأمام وقال موقناً:

- بل أنت متشائم. تشاؤمك يحوّلنا إلى مجموعة من الجبناء والضعفاء.

خليق بك أن تؤمن بعدالة قضيتنا. نحن نريد الحرية لجميع الناس

وللسجناء. هؤلاء السجناء الذين مورست ضدهم أقسى أنواع التعذيب

والإهانة، وأنت تذكر كيف عوملوا، وكيف تعرضت أجسادهم لتعذيب

فاق قدرة بهائم الأرض على تحمّله. اعتقلوا كاقتناس الجرذان. ويخرج

حاكم دولة السراب من قصره، ويلقي خُطبَه الرنانة هنا وهناك، متباهياً

بالحرية والعدالة والمساواة. أي شعب هذا الذي يعيش نصفه في

السجون؟ مطالبنا، كما ترى، عادلة، ولا بد لها أن تتحقق...

قاطع قائد الجيش كلام الضابط الأول، وقال ساخراً يائساً:

- ومنذ متى تتحقق المطالب العادلة؟ عدالة المطالب ليست ضماناً لتحقيقها، خصوصاً في دولة يسودها الظلم والاضطهاد. كيف تتحقق المطالب العادلة؟

أجاب الضابط الأول بحماس:

- بالإرادة والثبات. الإيمان العميق بعدالة مطالبنا يهزم أشد القوى شراسة.

أيّد الضابط الثاني كلام الضابط الأول وقال:

- إرادة الشعوب تهزم قوة الجيوش مهما بلغت.

أجاب قائد الجيش مبتسماً، وقد خال أن المساواة والحرية سادت البلد، وذهب عهد الظلم والاستبداد دون رجعة.

- أرجو السرية التامة. يجب أن لا تتسرب تفاصيل خطتنا إلى أي أحد مهما كانت علاقتكم به. أرى العدالة تبرق أمامي.

نظر الضابط الأول إلى قائد الجيش، ثم إلى زملائه وقال:

- كونوا واثقين من نجاح خطتنا، ولا تنسوا أن الشعب الذي لا يناضل من أجل الحرية لا يستحقها.

مَنْ يَحمِدُ ثورةَ الرِفْضِ في دَخله؟

مَنْ يَقطَعُ تلكَ القيودَ؟

أَيُسْتَبَدَل بِرِيْشَةِ الرَّسْمِ فَنَ تَعْزِيبُ الْبَشَرَ وَقَتْلَهُمْ؟ وَلَكِنْ...
أَيْنَ هَذَا مِنْ ذَلِكَ؟

رِيْشَةُ رَسَامٍ مُرْهَفِ الْخَوَاسِ، وَسِلَاحِ سَفَّاحٍ...

أَيُجْتَمِعُ الْاِثْنَانُ مَعَاً؟ أَيُجْتَمِعُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ فِي آنٍ وَاحِدٍ؟

أَتُجْتَمِعُ الْحَيَاةُ وَالْمَوْتُ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ؟

هُوَ الَّذِي دَرَسَ الْعُلُومَ الْعَسْكَرِيَّةَ، دُونَ أَنْ يَدْرُسَهَا تَمَاماً. ارْتَدَى الْبَدْلَةُ
الْعَسْكَرِيَّةَ بِأَوْسَمَتِهَا، دُونَ أَنْ يَرْتَدِيَهَا تَمَاماً.

أَثْنَاءَ تَدْرِيبِهِ عَلَى اسْتِعْمَالِ السِّلَاحِ، شَعَرَ مَالِكٌ بِأَنْ كُلَّ رِصَاصَةٍ كَانَ
يُطْلِقُهَا نَحْوَ هَدَفٍ وَهْمِيٍّ، تَرْتَدٍ وَتَعُودٍ لِتَصِيبِ قِيَمَةٍ مِنْ قِيَمِهِ، أَوْ مَبْدَأٍ مِنْ
مَبَادئِهِ، فَيَتَوَقَّفُ عَنِ التَّدْرِيبِ، مُلْقِياً سِلَاحَهُ عَلَى الْأَرْضِ، كَيْ يَعْالِجَ مَا
جُرِحَ مِنَ الْقِيَمِ وَالْمَبَادِئِ الَّتِي آمَنَ بِهَا.

يَبْتَغِدُ عَنْ سَاحَةِ التَّدْرِيبِ، يَصْمِتُ، وَيَغُوصُ فِي بَحْرِ مِنَ التَّسَاوُلَاتِ
وَالْتَحْلِيلَاتِ، فَمَا الْهَدَفُ الْوَهْمِيُّ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ إِلَّا قَاعِدَةٌ لِلْأَهْدَافِ الْحَقِيقِيَّةِ،
وَمَا الشَّرَاسَةُ إِلَّا قَاعِدَةٌ لِسِتْعْمَالِ السِّلَاحِ.

أَصْبَحَتِ الْمَسْأَلَةُ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ هِيَ كَيْفَ يَكُونُ شَرْساً أَوْلاً، حَتَّى يَقْوَى عَلَى
اسْتِعْمَالِ السِّلَاحِ، وَاتِّخَاذِ الْقَتْلِ مِهْنَةً؟

وَذَاتَ مَرَّةٍ قَالَ لَهُ مَدْرَبُهُ الْعَسْكَرِيُّ: "إِنْ اسْتِعْمَلَ السِّلَاحَ ضَرُورِي
لِلدِّفَاعِ عَنِ النَّفْسِ أَوْ عَنِ الْبَلَدِ."

فأجابه مالك: "عندما استخدم السلاح، فإنني أقتل شيئاً ما في أعماقي قبل أن أقتل الآخرين. أين الدفاع عن نفسي إذا قُتِلت المبادئ في أعماقي؟ لا يكفي أن تكون رجلاً حتى تكون عسكرياً. يجب أن يكون الرجل فارغاً حتى يكون عسكرياً ناجحاً حسب المفاهيم العسكرية للنجاح، لأنه من السهل أن تملأ وعاء فارغاً بما تريد، فكيف تستطيع أن تملأ وعاءً يفيض بما فيه؟ يجب أن تكون ورقة بيضاء يكتبون عليها ما يريدون..."

ألقى مالك بندقيته، وخلع بدلته العسكرية، ثم غادر معسكر التدريب، متوجهاً إلى مَرَسَم.

لوحته البكر..

ريشته تنفض أعماقه.. برقة.. بهدوء حذر يسبق ثورة.. بروعة عشق شاعر تستنطق صمته، تعيد ذاته التي كادت تلتهمها علوم سفك الدماء و"فنون" سحق النفس البشرية.

ريشته تحلل، تصوّر، تتحدث بلغتها الخاصة، بأصواتها الرفيعة، بهدوئها الثائر. أولى لوحاته يظهر فيها سجين يقبع في عتمة السجن، يرفع يديه محتجاً ورافضاً.. مستاءً وساخطاً.

وبينما كان يرسم، ولج الحاكم حجرة ابنه. شعر مالك بوقع أقدام في الحجرة، فأدار ظهره، ورأى والده يقترّب منه. انتشرت السخرية على وجه الحاكم عندما نظر إلى اللوحة وقال:

- ألا ترى أنك تسوق نفسك إلى الخبل بهذه اللوحة التي لا أجد فيها أي معنى؟

أجاب الشاب بصوت هادئ، والريشة بيده:

- يكفيني أن هذه اللوحة ترتفع وتسمو بالنفس الإنسانية. إنها ليست كسجونك التي تحطّ من قيمة الإنسان وتغلّفه بإذلال فظيع، وتحوّل الإنسان إلى بهيمة. ولكن السجناء ليسوا بهائم، فلو كانوا كذلك لما أثروا مرارة السجن على طاعة الظلم والاستبداد. أرى بعض الأحيان أن الرفض صفة خاصة بالإنسان، وأن الطاعة صفة خاصة بالبهائم... قاطع الحاكم كلام ابنه وقال باستياء شديد:

- ما هذا الهراء؟ كيف تجرّو على هذا الحديث؟ جعلتك تدرس العلوم العسكرية حتى تكون حاكماً من بعدي، وقائداً للجيش في حياتي. أجب مالك:

- إن ما تسميها العلوم العسكرية هي "فنون" قتل الناس وتعذيبهم والقضاء على عقولهم. درستُ العلوم العسكرية ووجدتُ أن العسكريين هم أسوأ الناس.. ما هم إلا حشرات من هوام الأرض.. ديدان أكثر خسة ودناءة...

قاطعه الحاكم، وقد شعر بالغيط يحتدم في داخله، وكاد يرفع يده حتى يصفع ابنه، ولكنه تمالك نفسه وقال:

- لا بد أن التلف قد دبّ إلى دماغك.. معتوه.. مأفون.

أجاب الشاب بسرعة:

- إذا كنت مأفوناً، فدعني وشأني، فالعقلاء لا يعاشرهم المعتوهين

والمأفونين. غريب أمرك. أتسمي الرحمة بالبشر عُتْهاً وسفاهة؟!

قال الحاكم وهو يجلس على أحد الكراسي:

- أخشى على حُكْمِي ونفوذِي منك. قد تفكّر في قَتْلِي وأنت غارق في هذا

العتة.

تساءل مالك:

- قَتْلُكَ؟ ليس إلى هذا الحد. ريشتي تبني وتُحْيِي، لا تقتل. لست أنت من

يُحِبُّ الحياة حتى تأخذها. حياة الناس حق لهم...

قاطع الحاكم ساخراً:

- ها أنت تمطر مواعظك وإرشاداتك واشتهاءاتك أيضاً. أشعر بالشفقة

عليك. تؤثر فوضى الألوان على الجاه والسلطة والنفوذ. تؤثر أن تهبط إلى

منزلة العوام على أن ترتفع إلى منزلة الأقوياء وأصحاب النفوذ.

أجاب مالك بطريقة جادة:

- بل أنا أرتفع إلى منزلة العوام، وأهبط إلى منزلة أصحاب النفوذ، وقهر

البشر. متى كان الظلم والاضطهاد ارتفاعاً؟ ومتى كانت بساطة العوام

هبوطاً؟ قُلِّبَت القيم والمعايير في رأسك...

قاطعہ الحاکم:

- قُلِبَتِ القيم و المعاییر فی کل العالم. کن قویاً کی تعيش. القوة سعادة مطلقة، والضعف مرض قاتل. لا تحكم الشعوب ولا يمكن السيطرة عليها إلا بالقوة والقهر.

فتساءل مالك:

- ولماذا كل هذا؟ لا أرى سبباً لذلك.. لماذا تقهر الناس؟

استشاط الحاكم غضباً وقال:

- أبله، أبله. تسأل لماذا؟ كي أبقى على القمة...

قاطعہ مالك:

- لا أحد يبقى على القمة. كل شيء متغير في هذا العالم، فهذه طبيعة الكون. كل الكائنات الحية والأشياء تخضع لقانون التغير والتبدل، فكيف تتوقع أن تظل باقياً على القمة؟ حضارات وإمبراطوريات نزلت عن القمة.

قال الحاكم:

- عرفت أنك مصدر شؤم منذ وُلِدْتَ؛ فقد ماتت أمك بعد أن وضعتك. حياتك وضعتُ حداً لحياتها، وأخشى أن تضع حياتك حداً لحياتي أيضاً. كنت أتوقع أن تكون سندياً لي، فكيف ذلك وأنت غارق في هذا الفشل؟ إنك تتكلم كلاماً غريباً، لا يخضع للمنطق والعقل.

قال مالك وهو يضع الريشة على طاولة صغيرة:

- الحروب، القتل، اضطهاد الشعوب.. هذه هي الأشياء التي تخضع للمنطق والعقل في هذا العالم الغريب. أنت تقول إنني غارق في الفشل، فدعني في فشلي. أبعدني عن الحروب والقتل. لن أكون يوماً قاتلاً ولا سفاحاً.

فتساءل الحاكم:

- ولماذا كل هذا الرفض فيك؟ يرى الشعب فيّ حاكماً عادلاً.
قال مالك:

- الحاكم والعدل خطان متوازيان، لا يلتقيان أبداً.
أجاب الحاكم:

- بل إن الإنسان والعدل خطان متوازيان، لا يلتقيان أبداً.
رد مالك:

- ربما..

قال الحاكم وقد عاد الهدوء إليه:

- الشر في داخلنا، في أعماقنا، يخرج من داخلنا بطريقة لا شعورية. نحن مرغمون على استخدامه، فإن لم نفعل ذلك، فسنقضي على طبيعتنا البشرية.

فوجئ مالك من كلام والده، وقال في أعماقه: "في رأسك أفكار مسمومة. يداك ملطختان بالدماء، وقلبك خالٍ من الرحمة والشفقة.. مَنْ فعل فيك كل هذا؟ أهو الحكم الذي جرّدتك من الخير؟ تقول إنني غارق في الفشل والهذيان، بينما أراك غارقاً في الضلال. لا أستطيع أن ألتقي معك في نقطة معينة. لا أستطيع الولوج في أعماقك. لماذا أشعر في هذه اللحظة بأنني في ضياع لا متناه؟ لماذا أشعر أن الفوضى غلّفت أعماقي، وتركت الأمور غير قابلة للتفسير أو التحليل؟ أهذا ما أُلنا إليه؟"

نظر الحاكم إلى ابنه، الذي كان شارد اللب وسأل:

- ما بالك؟ كأنك غائب عن الوعي.

ابتسم الشاب ابتسامة ساخرة وقال:

- كلنا غائبون عن الوعي في هذا العالم. لو كنا غير ذلك لما فعلنا ما فعلنا.

نظر الحاكم إلى اللوحة وخشبة الألوان، ثم قال:

- لوحتك تسودها فوضى الألوان. أراك فاشلاً، حتى في الرسم. لقد خاب أمني فيك.

أجاب مالك:

- أعتقد ذلك؟ كلّ منا خاب أمله في الآخر. تعادلنا إذاً.

obeikandi.com

الفصل الثاني

تغلّفه الألوان بسحرها، وصمّتها الناطق، وقوتها الدفينة.. في انحناءاتها،
استقاماتها، هواجسها، ثورتها، جنونها...

في ذهنه رمال متحركة تبتلع كل القوانين والمبادئ التي درسها في الكلية
العسكرية..

في أعماقه يتكوّن مثلث عجيب تختفي فيه بدلته العسكرية وأوسمتها،
وكل الآلات العسكرية، كما تختفي السفن والطائرات بطريقة عجيبة
غامضة في مثلث (برمودا).

ويبقى.. سحر الألوان، يراقص الريشة واللوحة البيضاء التي تنتظر
هجوم انفعالاته وأفكاره، ودفء جسده، وملامسة يديه الثوريتين..

اللوحة البيضاء تتوق إلى الألوان كما يتوق جسد امرأة إلى جسد الرجل
المستهى.. إلى دفئه.. إلى عنفوان انفعالاته.. إلى همم براكيته..
رأى مالك في الرسم حاجة نفسية وجسمية، فتعمقت ميوله في الرسم،
وراح يقرأ بنهم شديد عن أشهر رسامي العالم، فقرأ عن الرسام الفرنسي
من أصل هولندي (فان غوخ)، وهو أحد أتباع المدرسة الانطباعية في
الرسم.

جنون الألوان كجنون العقول..

خارج عن المنطق..

خارج عن القانون..

يهدأ فجأة.. يثور بغتة..

يصمت.. يتكلم.. يصرخ..

يُثير..

أكان فان غوخ سيقطع أذنه أثناء نوبة صرع، وسيقتل نفسه أثناء نوبة

صرع أخرى، لو علم شيئاً عن الثورة التي أحدثتها لوحاته بعد موته؟

وكيف ذلك ولم يكن يدرك ما يفعل وهو في نوبة صرع؟

يُقال إن فشل قصة حبه قاده إلى اضطراب نفسي شديد، فالحب لا يخترق

إلاّ قلوب مرهفي الإحساس.

مات فان غوخ فقيراً، والآن لوحاته تُباع بملايين الدولارات. أكان فان غوخ يزرع وصلات العرض تحصد؟

غريب أمر هذا العالم..

يُفْتَحُ فيه باب القبر قبل أن يُفْتَحَ فيه باب التقدير والعظمة.

وغريب، أيضاً، أن ترتبط العظمة بالمعاناة الشديدة في معظم الأحيان..

لوحة "الرحلة أو النزهة" للرسام الفرنسي (مانيه) تفتش جمالاً أخاذاً.

ولوحة "موت ساردانا بولاس" للرسام (يوجين ديلاكروا) تنطق صمتاً

يتعثر بالحزن. أحبّ مالك لوحات الرسام الإسباني (فرانيسكو دي

جويا)، ولوحات الرسام الإيطالي (بيسانيلو) التي تحترق الأعماق بسحر

ألوانها.

وما أن تبهر مالك في مدارس الرسم العالمية، حتى وجد في الرسم طريقة

سامية للتعبير عن ما يحول في النفس الإنسانية. وفي سحر الألوان، وقوة

المضمون ترجمة حقيقية مباشرة لمشاعر ومعتقدات البشر.

فوضى الأفكار..

فوضى التساؤلات والتحليلات تعطي سفينة خرقتها أيدي القهر،

فغاصت في الأعماق مُحْدِثَةً دماراً، وفوضى من المشاعر المربكة.

ذات يوم، خرج مالك من القصر بأفكار تنهمر بغزارة الأمطار. قاد سيارته في شوارع مدينة الوهم، إلى أن انتهى إلى شاطئ البحر الأخضر، وهو البحر الذي يحد دولة السراب من الغرب.

مشى وهو مُعلّق بحبال التفكير. فكّر في كلام حاكم دولة السراب، وطريقته في الحكم، وفي الفجوة الآخذة بالاتساع بينهما، وفي معاناة الناس في دولة السراب.

قفزت مقارنة الضدين إلى ذهنه؛ مقارنة بين المصطلحات العسكرية والمعاني الفنية الرائعة، تقوده إلى الهروب من ذاته إلى ذاته.

في الجانب الآخر من الشاطئ، ينطلق جمال ذو شعاع يبهر النظر، ويأسر القلب. فتاة ذات جمال صامت ناطق، تقلب صفحات كتاب بأناة. كتاب يفترش حجرها، في الوقت الذي تداعب فيه نسائم البحر صفحاته. كتاب يتربّع على عرش جسدها الجذاب، ويستقبل بثّ أنفاسها الملتهبة. هو الذي كان قبل قليل هارباً من ذاته إلى ذاته، يجد نفسه الآن يتعثر بجمال أسر مُربك.. جمال ناطق بشهوة مكبوتة، ورغبة جامحة.

لم يقوَ على المقاومة. لم يتمالك الشاب أن تقدّم نحو الفتاة بجاذبية غريبة عجيبة لم تخضع قط لقوانين نيوتن.

آه.. من ذلك الكتاب.. يلتحف دفء يديها.. يتوسّد ذلك الجسد.. يتغلغل في انحناءاته وتعرجاته.. يبتلع تلك المتعة.

يحتفظ بعطرها. يهتدي إلى سر الكلمات المتقاطعة في صفحات عينيها..
يحلّ ألغازها.. يُقبّل تفاصيل جسدها بلهفة.. بلوعة.. بحرقة.

وما أن رفعت الفتاة عينيها، حتى زحف الخوف إلى جسدها، الذي كان
قبل لحظات غارقاً في الهدوء والسكينة. تساءلت الفتاة، التي كانت في
العشرين من عمرها، عن سبب وجود ابن الحاكم في ذلك المكان.

نظرت إليه وهي تردّد في أعماقها: "لا يأتي مثل هؤلاء إلا للإساءة
والتعذيب والاضطهاد." انتفض قلبها رعباً في الوقت الذي كان قلبه
ينتفض انفعالاً وإثارة. ارتعشت أطرافها خوفاً في الوقت الذي ارتعشت
أطرافه حباً وعشقاً للأثني.. حباً لدفع الجسد.. رغبة في زلزال الأعضاء.
اتسعت عيناها ذهولاً عندما رآته يجلس جوارها. وما أن همّت بالوقوف
كي تغادر المكان، حتى أمسك بذراعها وأجلسها، وراح يهدئ من روعها
بنظرات طاعنة في الإغراء. نظر مالك إلى الكتاب، ثم نظر إلى الجمال
الذي يحتضنه بنظرة هادئة ثائرة، وقال مُطمئناً:

- لا تخافي. أنا غير الذي يجول في رأسك. الاضطهاد هناك في ذلك
المكان. إن الذي يجلس جوارك إنسان مرهف الحواس، لا يقوى على
القمع والاضطهاد. أنا بسيط مثل بساطتك أو أشد. عدوى كراهية
الناس تنتقل إليّ. كم يحزنني هذا.

استمعت سارة إلى كلام مالك، وهي تردّد في أعماقها: "أنت تكذب." لم تجرؤ على أن تقول هاتين الكلمتين.

ذاكرتها تعود إلى الماضي؛ إلى معاناة الناس الذين خرجوا عن صمتهم. إنه فنّ استدراج البسطاء، ثمّ إبعادهم عن الأنظار كشيء خرج عن إطار الاستعمال.

حدّج في عينيها مرة أخرى، فرأى دعوة صامته لمتابعة الحديث. قد يزيل الكلام ذلك الحاجز الضبابي بينهما، وتوضح الصورة. واصل مالك:

- أرى الخوف في عينيك، ولا تصدقين ما أقول. لك الحق في ذلك. لا يمكن لأشياء تكونت خلال سنين طويلة أن تزول في ثوانٍ. شعاع الجمال أصابني. لم ينكسر، بل اخترقني حتى الأعماق. رمقته بنظرات يلفّها الشك.. غارقة في صمتها ظلّت. أردف الشاب يقول:

- قد يبدو كلامي ساذجاً، ولكنه ليس مستحيلاً. يعشق الإنسان من أول نظرة، ويعشق دون أن يرى. أكان عجباً أن يعشق بشار بن برد، وهو شاعر ضرير؟ أكان عجباً أن يخرج من ظلام العينين إلى "نور" الأذنين؟ هو الذي قال وقد أحاطته النساء، يتعجّب من عشق رجل ضرير:

أيعشق الإنسان ما لا يرى فقلتُ والدمع بعيني غزير

إن لم تكن عيني رأيت شخصها فإنها قد مُثِّلت في الضمير
أما أنا فقد رأيتك، وعشقتك بعيني، وليس بأذني.

أكانت تحلم أنها تجلس أمام بحر هادئ الأمواج، وتستمع إلى كلام يحمل
ألغام الخيال والثورة؟ فتاة سليلة أسرة بسيطة، يجلس جوارها ابن
الحاكم، يناجي صمتها ويطربها بروائع بشار بن برد، ويعشقها. إنها تقرأ
الصدق في عينيه تدريجياً.

يا لعجائب دولة السراب..!

يا لعجائب الأقدار..!

فالشاطئ خالٍ من المتنزهين، كأن الأقدار هيأت الظروف، ومهدت للقاء
الضدين.

شاب بالغ الجمال، سليل أسرة حاكمة، يتغنى بروائع بشار بن برد أمام
فتاة ذات جمال مغرٍ.. فتاة من عامة الشعب. هنا، في دولة السراب تلتقي
المتناقضات بطريقة غريبة ورائعة.. ألتقتي الغرابة مع الروعة؟ بعض
الأحيان تكون الغرابة جوهر الروعة.

اعتدلت الفتاة في جلستها، انقشعت مخاوفها كما ينقشع الضباب. أخذت
نفساً عميقاً، ثم قالت بصوت عذب النبرات:

- إنه كالحلم.

يا لصعقة الأصوات! يا لروعة الأصوات الآسرة! اهتزت أطراف الشاب
لذلك الصوت الجميل. كلمتان فقط زلزلتا أطرافه، والآن عرف ما كان
يجول في أعماق بشار بن برد الذي عشق بأذنيه لا بعينه. يا لسحر
الأصوات!

ابتسم الشاب وقال وثورة الانفعالات تندلع في أعماقه:
- إنه حلم واقعي. أحببت المكان الذي تجلسين فيه. أحببت المصادفة التي
قادتني إلى هنا. أحببت القدر الذي شرع أبواب اللقاء.
كلامه يدوّخ، يُضْعِف، يقود إلى الاستسلام وإلقاء السلاح بكل أنواعه.
تقرّد أسلحتها أمامه. هي الآن منزوعة السلاح. سرت في جسدها
قشعريرة عجيبة، لا تقوى على السيطرة عليها. أينهار الجدار بقوة
الكلمات؟ أينهار بسحر النظرات؟ أهكذا تنهار الجدران؟ أهكذا انهار
جدار برلين، موحداً الألمانيتين؟

سحر إيقاع الكلمات..

سأل الشاب:

- ما اسمك؟

- سارة.

- اسم جميل. أمّا أنا...

قاطعته الفتاة وقالت باندهفاع:

- مالك، ابن حاكم دولة السراب.

ابتسم مالك ابتسامة تسببي العقول. شاب تنافس على رسمه ريشات الرسامين.

أردفت الفتاة تقول:

- إنك تتكلم كالشعراء.

- أو كالرسامين.

فسألت الفتاة:

- أترسم؟

- أحياناً، ولكنني مولع بالرسم والألوان.

- مثل (دافنشي).

- أتعرفينه؟

- ومن لا يعرف لوحته الشهيرة (الموناليزا)؟

راح حديثها يتدفق بجنون حذر، بلهفة البدايات.

يا لسحر اللحظات الأول!

يا لسحر الكلمات الأولى!

يا لسرعة انهيار الجدران!

أمسك بيديها الناعمتين.

كيف تقاوم وقد ألقيت بكل أسلحتها؟

كيف تقاوم مَنْ كانت منزوعة السلاح؟

وكيف تهرب من ذلك الدفء الذي أتى مصادفةً مندفعاً بعد برد شديد
طالت أيامه؟

أفكار متضاربة تجول في رأسها. أتقاوم وهي منزوعة السلاح؟ أتستسلم؟
أتكلم؟ أتصمت؟

حائرة، تائهة كانت.. مذهولة، مرتبكة غدت.. فَقَدَتْ إحساسها بالأشياء
التي حولها، فأصبحت كَمَنْ يقف على أرض تكسوها الثلوج، يصلي
صلاة الاستسقاء. كَمَنْ يَقِف في حفل صاخب، يُرْتَل صلاة الجنازة.
فوضى من المشاعر اجتاحتها..

اعتَلَّت قارب العشق، دون أن تدري إلى أين يَتَجّه..
ألغاز الاتجاهات.. خفايا ممرات العشق..

* * *

كيف تَقْتَلِعُ غراماً تَوَطَّنَ فيكَ؟

تمر الأيام، ويتعمق الحب..

ينام مالك، متوسداً لقاءً غرامياً، ويستيقظ متأبطاً ذراع الشهوة..

وهي.. تقاخص نفسها باشتياقه..

تعتريها رغبة جامحة، وتقودها بلهفة إلى حب الضد، إلى اكتشاف أسرارهِ.
الحب يزداد جمالاً في استحالته، كَمَنْ يرغب في الممنوع، ويملّ المألوف.

هي التي كانت تعتقد دائماً أن المشقة في الوصول إلى الرجل المشتهى هي المتعة. ولكنها لم تشق في الوصول إليه.

وفي أحد الأيام، وبينما كانت تجلس جواره على الشاطئ، حيث التقيا أول مرة، راحت تحلل ما يسكنها من مشاعر. سعادة مُربكة كانت تغلفها. إنها تحلل وتحاول تفسير ذلك الحلم الذي اجتاحت سبات الأحاسيس، مستعينة بنظريات فرويد في تفسير الأحلام. ولكن لم يكن في نظرياته ما يحلل، ولا يفسر حلمها هي. الحلم الواقع. فقدت ثقتها في نظرياته، التي لم تسعفها في تفسير حلم الضدين.

هبت نسائم البحر، فاتحة أبواب أسئلة لا تتسلق إليها أجوبة. أبواب مفتوحة بأسئلتها، لا تستطيع أجوبة أن توصلها.

هي الطبيعة قد تدخلت لتزيد من حيرتها حيرة، ومن سعادتها غموضاً. في أعماقها تدافعت التساؤلات: "لماذا شاءت الأقدار أن تهدينا غراماً غريباً في هذا المكان؟ على هذا الشاطئ؟ ما هذه الفوضى التي تجتاحني عندما تلتقي عيناك عيني؟ لماذا أنت؟ بعد كل هذه اللقاءات معك، لا تنفك كلمة "لماذا؟" مع علامة سؤالها الصارخة، تطرق باب تساؤلاتي. إنك تُغرِقني في صمت مفاجئ، وتغرِقني في حديث مندفع، لا سيطرة لي عليه..

تحدّر أطرافي وتشتطها في آن واحد. تُخرسني وتُنطقني في الوقت نفسه..

في عينيك عالمي الجميل، وبين ذراعيك كل المدن العظيمة، ويلمسات
يديك قوة الحدود، وسرّ الوجود..

أين أنا منك..؟

كم تعذبني استحالة الوصول إليك..

إني أحاول أن أتسلق جبلك الشاهق، بكل الثقل الذي على كتفي..
يادي مرفوعتان نحو القمة، لكنّ قدميّ تعودان إلى الوراء.. تسحبهما
حبال استحالة الوصول إليك.. كم تؤلّمني تلك الحبال!

جاذبيّتك في القمة تسحب يديّ إلى أعلى، وجاذبيّة سفح الجبل تسحب
قدميّ إلى أسفل، فأصبح جسديّ المعذب المتألم يقع بين جاذبيّتين..
أعلم أن جاذبيّتك أقوى من جاذبية الكرة الأرضية، ولكن...
لماذا تعود قدماي إلى الوراء؟

الأنني لم أمسك بيدك بجنون.. بشراسة الرغبة في الصعود؟
لم أستطع أن أمسك بيدك تماماً.. وأمسكتُ برؤوس أصابعك، فرؤوس
أصابعك تكفي، وتشفي، ولكن...

كيف تشفي من استفحلّ فيها مرض حبك واشتهائك؟
يا أنت..

أين دواء هذا المرض؟ صعوبة الوصول إليك كصعوبة الوصول إلى قلب
طبيب مسيّج بأخلاقيات المهنة..

قصيدة رائعة أنت..

قصيدة على بحر العشق، وتفعيلة الرغبة، وقافية الشهوة..

لماذا غاب بحر كل البحور عن إدراك واضعي علم العروض؟

كتاب عشق أنت..

لم يصدر عن دار نشر..

بل صدر من أعماق القلب..

مكتوب بحبر سرّي، وحبر عشقيّ ...

فدء يديك يُفكُّ تأويله..

شهيتان شفتاك، ومثير صوت أنفاسك.."

وبينما كانت شاردة به عنه، أمسك بيديها، وقال وقد أضاء وجهه بابتسامة

تدوّخ الناظر، وتلقّي به أرضاً:

- اشتقت إليك يا حبيبة القلب.

تزداد نبضات قلبه بعدما تسلقت نظراته ببطء من نهديها الثائرين إلى

ثغرها الذي يوجه دعوة صامتة للتقبل.

واصلت نظراته التسلّق حتى صعقه بريق الرغبة في عينيها، ثم هبطت

نظراته واستقرت على شفّتيها، كأنها تستجيب لدعوتها الصامتة، وتزداد

دقات قلبها استجابة لدء يديه، ولحضوره المُربك، كمقطوعة موسيقية

تبدأ كسلى، ثم عجلي.

ما زالت لا تصدق. انهار الحاجز بينهما بسرعة، إلا أنه ما زال معلقاً في الفراغ، فهي تشعر بوجوده ولا تستطيع أن تراه.

واصل مالك يقول:

- يسكنني عشقك ويهيم بك القلب. أنت لوحة فنية بأروع ألوانها...

قاطعته مبتسمة:

- ما أعظمك! إنك تعشق كما يعشق الشعراء. يبهري عشق الشعراء والرسامين.

لم يتمالك أن سأل:

- وكيف يعشق الرسامون والشعراء؟

أجابته:

- بجنون. أي بمعنى أدق بصدق. لا أجمل ولا أعمق من عشق شاعر أو

رسام. لا أدري لماذا أرى علاقة ما بين الجنون والصدق؟!

فسأل:

- أيُّ عقل هذا؟

أجابت بثقة:

- دولة السراب تخضع لقائمة من اللامعقول وليس المعقول.

سأل مرة أخرى:

- ولماذا يعيش الشعراء والرسمون بصدق الجنون أو بجنون الصدق، كما تقولين؟

أجابت مبتسمة:

- لأنه يسكن في داخلهم ذلك الإحساس المرهف. تجرحهم شعرة رقيقة، وتسيل بسببها دماء أحزانهم...

قاطعها:

- إنك تحليلين نفسي.

سألت:

- أتعقد؟

أجاب:

- أجل.

تساءلت:

- أيمكن أن نعيش حلماً واقعياً في دولة السراب؟

أجاب:

- ولم لا؟

قالت متسائلة:

- وحاكم دولة السراب؟

ضحك الشاب ساخراً وقال:

- حاكم دولة السراب غارق في شؤون الحكم. دولة السراب تكاد تُفقدُه عقله. لا ينفك عن التفكير في حروب مضت وحروب أنتت وحروب ستأتي. والذي يعيش الحكم حد الإدمان.

فتساءلت:

- أيمكنُ أن يفوته شيء في دولة السراب؟ سيكتشف علاقتنا لا محالة...

قاطعها غير مبالٍ:

- وإن فعل ذلك.

أجابت:

- سيقضي عليّ وعلى عائلتي البسيطة.

ضحك الشاب مستهيناً بكلام الفتاة، وقال بثقة عميقة وهو يربّت على

كتفها:

- لا تخافي.. لن يفعل ذلك.

فسألت:

- أتقصد أنك لن تدعه يفعل ذلك؟ ولكنك تقول إنه لا يُعجبه شيء

فيك، وإنك على خلاف معه.

أجاب:

- هذا صحيح. لكنني لن أغرق في معتقداته. الناس يكرهونني لأنني

ابنه..

قاططته:

- ولهم في ذلك العذر.. لا تدري كيف شعرت عندما رأيتك أول مرة..
أزعبتني.

اعتدل في جلسته وقال:

- أعرف، لا تذكّريني. كم كرهت نفسي عندئذ، فأنا لا أحب أن أكون
مصدر ذعر للناس. أما حاكم دولة السراب فيرى أن خوف الناس
وضعفهم مصدر قوته. أرغب أن أنسى كل ما مضى. هذه أجمل لحظات
حياتي. يتتابني إحساس ما عندما تذهبين. لا أستطيع أن أعرف ما هو
بالتحديد. أهو فقدان، الحرمان، الفراغ، الحاجة الملحة للبحث عن شيء
ما أم الرغبة؟ أهى هذه المشاعر مجتمعة؟ لا أدري.

ماذا تقول وهي تشعر بفوضى المشاعر نفسها؟ ماذا تقول ورغبة متوحشة
تجتاحتها؟

تصمت، ففي الصمت التعبير الأقوى لما في داخلها. ما أروع لغة
الصمت! ما أبلغها! لغة الصمت تختبر ذكاء وقدرة الطرف الآخر على
الفهم. يُبهرها الرجل الذكي، ويدوّخها الرجل الذي يقرأ صمتها. أثرت
أن تكون على درجة من السذاجة، ففي السذاجة المتعمدة بعض
الاستدراج الذكي. سألت بابتسامة جميلة.

- ألى هذا الحد تحبني؟

فرد عليها بسؤال آخر:

- أتشكين؟

أجابت:

- قطعاً.

قال مالك:

- الإنسان مخلوق متناقض بطبيعته. هو المعمّر المدمّر في آن واحد. الخير

والشر، متقلب الميول. مخلوق عجيب هو الإنسان!

ذهلت لهذا التغير المفاجئ لمجرى الحديث. هو الذي كان يتحدث قبل

قليل عن الحب والهيام، يتحدث الآن عن الإنسان وتناقضاته. صمتت

الفتاة قليلاً، ثم راحت تتحدث في الموضوع نفسه.

قالت وقد تأبط الشاب ذراعها وراحا يمشيان على الشاطئ:

- أأنت كاره لبني البشر؟

أجاب:

- ليس الأمر كذلك.

نسائم البحر تداعب شعر الفتاة، فيتطاير على وجهها وعلى كتفيها

الصغيرتين بعشوائية، كأن الطبيعة تزيد من أنوثتها المعذبة. قالت الفتاة

بعدما رأت حزناً مفاجئاً قفز إلى عينيه:

- إنك تشغل نفسك بمشاكل الناس. خليك بوالدك أن يقتدي بك، وأن يؤمن بالقيم السامية التي تؤمن بها...

قاطعها:

- يؤمن بمعتقداتي؟ كيف يقتدي بالمجانين والمخبولين؟ ذات مرة حضرني قول برنارد شو: "إنما يكون الإنسان فاضلاً إذا أعطى المجتمع الذي عاش فيه أكثر مما أخذ منه." فضحك والدي وقال: "وأنا أطبّق كلام برنارد شو بدقة؛ فأنا أعطي مجتمعي القوة، وهذا أعظم ما يمكن أن يعطيه الإنسان لمجتمعه. فقلت له: "أية قوة هذه وعدد السجناء يكاد يفوق عدد الأحرار في البلد؟ أية قوة وقتل الناس أشبه باقتناص الجرذان وصيد الكلاب؟ لا ترقى المجتمعات بسيطا الاستبداد." استاء والدي وصرخ في وجهي قائلاً: "لا ألتمس النصيحة من معتوه مثلك. دع شؤون الحكم لي، وابق بعيداً عنها، فأنت فاشل في كل شيء. لم تنجح كقائد للجيش، ولم تنجح كرسام بارع. تدمج الألوان مع بعضها البعض بشكل فوضوي، وتسمي هذا العبث رسماً وفناً، وهو لا هذا ولا ذاك." فقلت له متذمراً: "والحياة ليست بعيدة عن العبث الذي تتحدث عنه، بل إنها العبث نفسه."

ضحكت الفتاة وقالت:

- أفيلسوف أنت؟

أشرق وجهها بابتسامة جذابة، وقفزت دعوة صامتة للتقبل على شفيتها.
لم يتمالك الشاب أن قبلها وعانقها. وراح يردد في سره بيتاً من الشعر لابن
الرومي، وصوت أنفاسها يطرب أذنيه:

أعانقها والنفس بعد مشوقة إليها وهل بعد العناق تدان
هي تتأوه بين ذراعيه تأوهات غنج ورغبة. أنفاسه الساخنة تلمح وجهها،
فينطلق من حنجرتها صهيل الشهوة.. هي تشتهيه، وتشتهي شفيتها..
هو ترتعش أنفاسه من الانفعال. ذبذبات تسري في جسده، تقوده إلى
احتساء اللذة من شفيتها.. إلى بلوغ الذروة.

ابتعدت الفتاة، ورغبة جامحة تشدها نحوه. هي المتعة المسروقة الأشهى.
حضرها لحظتها قول برنارد شو: "إن أعمارنا قصيرة، لا تتسع للدرس
والعمل والاستمتاع، لذلك نحن نخطف اللذة والمتعة خطفاً." وظلت
تسأل نفسها الأسئلة ذاتها؛ أسئلة تشعبت منها أسئلة أخرى كقنبلة
عنقودية: "ما الذي يجذبني نحوك هكذا؟ لماذا في هذا المكان؟ لماذا في هذا
الوقت بالتحديد؟ ما الذي يمكن أن تؤول إليه علاقة كهذه؟ أسير على
خطى برنارد شو الذي يقول إننا نخطف اللذة والمتعة خطفاً؟ لماذا لا
أستطيع أن أقاوم؟ حضورك يشلّني، يخرسني، يُربكني، يحدّرني. ما هذه
الفوضى التي غرقت فيها؟ الحلم الواقع.. حلم نصفه حلم، ونصفه
الآخر واقع. لا أدري أي نصف أختار. كانت حياتي قبلك هادئة أحياناً،

رتيبة غالباً، مملّة معظم الوقت، سعيدة نادراً. والآن، والآن.. لا أدري لماذا أشعر بسعادة ملفوفة بحزن، فالحزن ليس حزناً تماماً، والمتعة ليست متعة تماماً. كلمات تلتصق بأضدادها. إنني غارقة في تيه هذه المشاعر.

ما أن أفاقت الفتاة من ذهولها، ونظرت حولها، حتى فوجئت بشايبين يقتربان من المكان. فضول الناس يُفسد سعادتها. نظرت إلى مالك الذي كان يراقب اتساع البحر وقالت:

- أنظر هناك. هل ترى هذين الشايبين؟ يعرفانك بالتأكيد.

أجاب وهو يكوّر يديه كي يأخذ قليلاً من ماء البحر:

- لا تخافي، فأنا بعيد عن الأضواء. لا يعرفني كثير من الناس في دولة السراب.

أمسك بيد الفتاة ووضعها على صدره وواصل يقول:

- ألم تقولي إن موطنك هنا؟

هزت الفتاة رأسها دلالة الموافقة، وقد شعرت بالارتياح. وفي الجهة الأخرى من الشاطئ، نظر أحد المتنزهين إلى مالك وسارة، فعرف ابن الحاكم. لم يتمالك أن قال مخاطباً رفيقه:

- هل ترى ذلك الشاب؟

أجاب رفيقه:

- نعم أراه. وما به؟

قال المتنزه الأول:

- إنه ابن حاكم دولة السراب. ابن ذلك الظالم الذي أفسد دولة السراب.

تعجب المتنزه الثاني وقال:

- أيمكن أن يكون هو؟ ابن الحاكم على شاطئ، بين عامة الناس...

ولكن مَنْ هذه الفتاة التي تمشي معه؟

أجاب المتنزه الأول باستغراب:

- لا أدري، ولكن لا تبدو من الطبقة الحاكمة، ولا يمكن أن تكون من

عامة الشعب أيضاً.

تساءل المتنزه الثاني:

- ثراها من تكون؟ ولماذا تستبعد احتمال أن تكون من عامة الشعب؟

أجابه:

- تسأل كأنك لا تعرف. أتصدّق أن ابن حاكم دولة السراب يطلب وُدَّ

فتاة من عامة الشعب؟

قال المتنزه الثاني:

- لا يُعقل شيء في دولة السراب. ولكنها أكثر خسة ودناءة من ذلك

الذي تمشي معه. أتمشي مع ابن ذلك الظالم؟

قال المتنزه الأول:

- هيا نبتعد عن هذا المكان. لا تنسَ أنك تتحدث عن ابن الحاكم. هيا نبتعد قبل أن ينسف الأرض تحت أقدامنا.

استدار المنتزهان، وابتعدا عن الشاطئ. قالت الفتاة وقد شعرت بالخوف يتسلل إليها:

- إنها يعرفانك بالتأكيد. لو لم يكن الأمر كذلك لما ابتعدا هكذا، وهذه السرعة. أخشى أن يُفضح أمرنا...

قاطعها:

- قلت لك لا تخافي. ألا يكفيك أن تكوني معي كي تشعرني بالأمان؟ أجابته:

- لو عرفك الناس كما أعرفك لأحبوك. أنت بحر تختبئ في أحشائه كل الأشياء الثمينة والرائعة. سحابة عظيمة تروي الأرض العطشى.. أحبك أكثر مما أحب نفسي.. أنت حبيبي، وستبقى حبيبي.

قاطعها مبتسماً:

- أهذا أنا؟

أجابت:

- لا أدري كيف أن رجلاً ذا إحساس مرهف يدرس العلوم العسكرية.

أجاب وهو يشعر بالندم يلدغ فؤاده:

- درستها مكرهاً، وها أنا أبتعد عن قذارتها راغباً.

مشى مالك مع الفتاة صامتاً، ثم نظر إلى البحر، وراح يتأمل الموسيقى التي يؤلفها تلاطم الأمواج. استطاب العزف الذي قامت به أصابع الطبيعة بشكل رائع. موسيقى تتسلل بهدوء إلى النفس، وما أن تصل الشاطئ حتى تبلغ الذروة في عنفوانها.. موسيقى ذات سحر جماليّ، تماماً كالروائع الموسيقية التي أنتجها بيتهوفن وباخ وموزارت.

الفصل الثالث

المصطلحات العسكرية.. المفاهيم العسكرية..

ما تزال المصطلحات العسكرية تحلّق حول أعماقه كطائر بين الحين والآخر. إنها تثير فيه رغبة شديدة في الرفض، ولا يدري كيف هدر من عمره سنوات يدرس شيئاً لا قيمة له حسب اعتقاداته. واعتقد أيضاً أنه لو درس مراحل نمو حشرة، لكان في ذلك قيمة أسمى.

حكايات كان يرويها له بعض زملائه العسكريين حول ويلات الحروب، عاشت في دهاليز أعماقه لسنوات. بعض هذه الحكايات عاش في ذهن مالك.

أثناء دراسته أخبره زميل له أن فتاة في الثالثة عشرة من عمرها من دولة السراب، تعرّض منزل عائلتها لقتائف من دولة مجاورة كانت تخوض

حرباً ضد دولة السراب. قُتِلَ أفراد عائلتها جميعاً، وفقدت الفتاة ساقها في ذلك الهجوم، وعاشت الفتاة ملفوفة بحزن عميق على فَقْد أفراد عائلتها، وفَقْد ساقها. ويبدو أن الأيام لم تكن رحيمة؛ فبعد سنوات من المعاناة في إحدى دور الأيتام، تعرّضت الفتاة لمرض أَدَّى إلى موتها، وهي في الثامنة عشرة من عمرها. اعتقد البعض أن المرض الذي أصابها كان كرصاصة رحيمة اخترقت جسدها. عجيبة هي الدنيا؛ فالعذاب حصّة بعض أبنائها، والسعادة، وإن لم تكن مُطلّقة، حصّة البعض الآخر. فبعدما بدأت الفتاة تشفى من ألم فَقْد العائلة وألم فَقْد ساقها، وبدأت الابتسامات ترسم على وجهها، حاصرها المرض، ثم اخترق جسدها. مطرقة القذائف ومطرقة المرض تضربان الرأس نفسه.

وأخبره زميله حكاية طفل، في الرابعة من عمره. كان الطفل يلعب بكرة، بالقرب من منزل عائلته. سقطت عليه قذيفة اخترقت جسده ومزقت الكرة التي كان يحملها. طفل تحترق جسمه القذيفة بدلاً من أن تغلفه متعة اللعب. فقدت أم الطفل اتزانها العقلي، وأصبحت تقيم في مستشفى للأمراض العقلية.

ويلات الحروب هذه زرعت في داخله أشجار الرفض؛ أشجار ضُحِمتْ، وترامت أغصانها.

ولكن.. كيف يتخلّص من أشياء أُفجِمَ في داخلها لمدة سنوات في أيام، أو أشهر؟ كم كان يتوق إلى خلع المفاهيم العسكرية كَمَن يخلع قفازيه، ويلقي بهما بعيداً، فالمرّازك العسكرية ما هي إلا مراكز لفصل الإنسان عن ذاته، وتشكيله في قوالب خاصة.

حضره بعض المقولات التي كان يسمعها من بعض زملائه العسكريين. قال له بعضهم: "إن متعة القتل من الجو، تختلف عن متعة القتل في المعارك البرية."

لم يدرِ مالك كيف أن المتعة ترتبط بالقتل، ولم يدرِ ما حقيقة هذا الإنسان الذي يجد متعة في القتل. هنالك متعة في العشق، ولكن كيف تكون المتعة في القتل؟ أيعتقد العسكريون أن المتعة في عشق القتل؟ تركيب غريب للكلمات، أصبح سائغاً لفرط استخدامه. إنه قانون دولة السراب، وما أن يتخرج العسكري من كليته حتى يحفظ مفاهيم غريبة، أكثر مما يحفظ اسمه، مثل: "يجب أن تفعل ما تؤمر، وليس ما تريد." وتنتقل عدوى هذه المفاهيم القاتلة من العسكريين إلى المدنيين، فيرددون الجملة نفسها. إذاً هناك جهة ما تمطر شوائبها على الناس كي يسود نظام متهرئ.

كم كان يلوح في ذهن مالك قول فولتير الشهير: "أنا أموت ولكن لا أمنعك أن تقول ما تريد." وفي دولة السراب، فإنهم يدرّسون القول نفسه مع تغيير "بسيط" لم يلتفت إليه الفيلسوف الفرنسي الكبير، فيقولون: "أنا

أموت من أجل أن أمنعك أن تقول ما تريد. " فكأنهم يقولون وبصيغة أخرى: "أنا أموت ولكن لا أمنعك أن تقول الصمت. " الصمت إذاً. إنه عالم الصمت، وزمن الصمت، وساعة الصمت. حتى إن العسكري إذا ما أراد أن يعتقل شخصاً يبادره بكلمة: "اخرس"، أو "أسكت"، أو "لا تتكلم". كلمات من مشتقات الصمت.

إلى عالم الصامتين.. إلى عالم السجناء..

قفز مالك ذات يوم من سريره، وذهب في زيارة مفاجئة إلى قائد الجيش في دولة السراب. ما أن رأى قائد الجيش مالكاً حتى انحنى تحية له، وصار يتمتم كلاماً لا معنى له. جلس مالك على أحد الكراسي، وطلب من قائد الجيش أن يجلس خلف مكتبه، ففعل. تساءل مالك في أعماقه: "لماذا يستجيب قائد الجيش للأوامر دون نقاش؟ أين عقله؟ أكان مقتنعاً بالجلوس خلف مكتبه؟ أكانت لديه رغبة في الوقوف؟ يحدث لنا أننا نحب أن نقف أحياناً لأن الجلوس يتعبنا. أكان هو في حالة مزاجية للوقوف أم للجلوس؟ أين عقله؟ لماذا لا يقوى على قول كلمة "لا"؟ لماذا لم يقل دعني أفكر إذا كنت أرغب في الجلوس أو الوقوف؟ هل يحتاج الوقوف أو الجلوس إلى تفكير؟ أين عملية التفكير في رأسه؟ أين هي سعادته وهو ينفذ كل ما يُطلب منه وقد لا يتفق مع رغباته؟ أهو غارق

في عالم مكبوت الرغبات؟ وكيف لي أن أسأل وأنا أعلم تماماً أن دولة
السراب لا تكبت الرغبات فحسب، بل تقتلها!"

أصلح مالك من جلسته وسأل:

- كيف حالك؟ وكيف تسير أمور الجيش؟

أجاب قائد الجيش بصوت متهدج:

- على أحسن حال. كل شيء في دولة السراب على أحسن حال...

قاطعته مالك:

- الأمور تكون كذلك دائماً في ظاهرها.

دبّ الخوف في قلب قائد الجيش، ونظر إلى مجموعة من الأوراق أمامه،
وهو موجس أن مالكا قد ارتاب في أمره وأمر الضباط الأربعة. وقف
مالك وقد انتابه شعور بالملل من حوار مع قائد الجيش الذي بدا كدمية
تُنطّقه وتُحرّكه بطاريات الطاعة العسكرية.

غادر مالك المكان، وتوجه إلى مكتب مدير السجون في مدينة الوهم.

التقى مدير السجون وسأل:

- كيف حال السجناء؟

أجاب مدير السجن:

- على أحسن حال...

قاطعته مالك:

- لا أدري كيف يكون الفرد سجيناً، ويكون على أحسن حال في آن واحد. أيمكن هذا؟

أجاب مدير السجون:

- إذا أردته ممكناً فهو ممكن، وإن أردته غير ممكن، فهو كذلك.

تفرّس مالك من الرجل وقال:

- قل رأيك أنت. أليدك رغبة في أن تختلف عني في رأيي؟

أجاب الرجل:

- إذا أردتني أن أختلف معك في رأيك، فلك ما شئت...

قاطعه مالك مستاءً:

- قل رأيك فقط، ولا تُبالِ بها أقول.

أجاب مدير السجون بصوت هادئ:

نحن هنا لا نقول رأينا يا سيدي. نحن نقول ما يجب أن نقول، ونكون ما

يجب أن نكون يا سيدي.

قال مالك:

- أنتم ميتون إذاً.

قال مدير السجون:

- ونحن كذلك إذا طُلبَ منا.

قاطعه مالك ساخراً:

- الأمور على أحسن حال حقاً.. أريد أن أرى السجناء.

سأل مدير السجون:

- أي سجن يا سيدي؟ كما تعلم، يتجاوز عدد السجون في دولة السراب الألف.. اختر واحداً يا سيدي.

عملية الاختيار توقع العقل في دهاليز من الأسئلة. كيف يختار واحداً من بين ما يزيد على ألف سجن؟ عملية معقدة بعض الشيء. ثراه ماذا يختار وهو أمام هذا العدد الهائل من الاحتمالات؟ بازدياد عدد الاحتمالات يزداد احتمال الخطأ. تُرى ما المقياس لاختيار سجن من بين ما يزيد على ألف سجن؟ أختار واحداً بطريقة عشوائية، كما يفعل طالب في امتحانه عندما يصعب عليه تحديد الإجابة الصحيحة؟ وجد نفسه كشخص يقف أمام مجموعة من النساء، وعليه أن يختار واحدةً منهن. تحتاحه رغبة في اختيارهن جميعاً، ولكن لا مجال لذلك. يجب أن يختار واحدة، فيقع اختياره على أجملهن. الأجل، أو الأفضل. ذلك هو المقياس الذي استند إليه مالك فقال:

- لنُقل أفضل السجون.

وقف مدير السجون، وانحنى طاعة وقال:

- أمرك يا سيدي.. سنذهب إلى سجن "السعادة والبهجة".

سأل مالك متعجباً:

- أهذا اسم السجن؟ اسم جميل.

توجه الرجلان إلى السجن، وهناك التقى مالك مدير سجن "السعادة والبهجة". كان رجل في أواخر عقده الخامس، متوسط القامة، كثيف الشارين، كبير الأنف، جاحظ العينين. نظر مالك إلى الرجل وراح يقول في أعماقه: "منظرك يثير الرعب في النفس. وإن كنت تعتقد أن هؤلاء السجناء هم أسوأ الناس في دولة السراب، فإنني أرى في بشاعة وجهك، وقساوة قلبك العنف والإجرام ما يجعلك أسوأ من السوء نفسه. خليك بك أن تكون أنت السجين وهم المطلقاء."

اقترب مالك من مدير السجن وسأل:

- كيف حال السجناء؟

أجاب مدير سجن "السعادة والبهجة":

- على أحسن حال...

قاطعه مالك، مرة أخرى:

- إذا كانت الأمور على أحسن حال كما تقول، فلماذا يقبع كل هؤلاء في

السجن؟

أجاب مدير السجن:

- أوامر حاكم دولة السراب. نحن لا نعصي له أمراً.

فقال مالك:

- ولكنني لا أرى أن الأمور على أحسن حال.

قال مدير السجن:

- إذاً هي الأمور كما تراها...

قاطعهُ مالك غاضباً:

- أين عقولكم أيها الرجال؟

- في رؤوسنا.

- لا يبدو ذلك.

- لا تصدر لنا الأوامر لاستخدام عقولنا.

قال مالك، مُغيّراً مجرى الحديث:

- أريد أن أرى السجناء.

قال مدير السجن:

- أمرك يا سيدي.

وما أن مشى مالك في تلك السرايب، حتى بدأ يشتم رائحة الموت البطيء، وأن السعادة لا يمكن أن تكون قد عرفت يوماً طريقاً لها في ذلك المكان. أماكن مظلمة، جدران باردة قاسية. شيء ما انتابه وهو يمشي في تلك السرايب. أيتقدم نحو هذا العالم الصامت، أم يعود حيث أتى؟ مَنْ سَيرى؟ ماذا سيسمع؟ مَنْ هؤلاء الذين لا يخرجون عن صمتهم إلاّ بصرخة ألم، أو صرخة صمت، أو صرخة موت؟ مَنْ هؤلاء؟ ولماذا أتى

إلى هذا المكان؟ ماذا أراد أن يقول لهؤلاء السجناء؟ أهذا هو أفضل

السجون في دولة السراب؟

أُشْرِعَتْ أبواب الصمت فرأى مالك سجيناً نحيل الجسم، أبح الصوت، وكان يَأْلَم من سعال شديد. رجل في عقده الرابع. جثا مالك أمامه، وراح يتأمل الحزن في وجهه. نظر مدير السجن إلى السجين وصرخ قائلاً:

- قُمْ وانحنِ تحية لمولايك أيها السجين.

رفع مالك يده في وجه مدير السجن وقال وهو ينظر إلى السجين:

- أنا الذي يجب أن أنحني أمامه.

فغر مدير السجن من الدهشة فاه، واتسعت عيناه، ثم قال:

- أمرك يا سيدي. كما ترى.

وقف مالك وقال ساخراً:

- ألم تقل أن لا مجال لاستخدام العقول هنا؟ سأفعل مثلكم تماماً؛

سأضع عقلي جانباً. وهل يخضع شيء للعقل والمنطق هنا؟ تقول إن

السجناء على أحسن حال، فما هو أسوأ حال إذا؟ هذا السجين مريض

ويجب أن يُعالج.

رد مدير السجن قائلاً:

- إنه لا يعاني من مرض.

فتساءل مالك وهو يدرك الإجابة:

- وما سبب الرضوض في وجهه؟
أجاب مدير السجن:
- من شدة الضرب...
قاطعهُ مالك غاضباً:
- أتقول ذلك متباهياً؟
أجاب مدير السجن:
- هذه أوامر الحاكم يا سيدي.
صمت مالك برهة، ثم سأل:
- وما سبب هذا السعال؟
- لا أدري.
- ومن يدري إذًا؟
سأل مالك وهو ينظر إلى السجين البائس:
- وما تُهمته؟ أم إنك لا تدري؟
أجاب مدير السجن:
- التأمّر على الحاكم.
- وما تهمة باقي السجناء؟
- التهمة نفسها يا سيدي.
- وما تهمة السجناء في السجون الأخرى؟

- التهمة نفسها يا سيدي.

فسأل مالك والغضب يلوح في عينيه:

- وكم يبلغ عدد السجناء في السجون الأخرى؟

أجاب مدير السجن:

- ما يزيد على خمسمائة ألف.

ذهل مالك، وانتابه شعور بالنقمة على ما يجري في دولة السراب وقال:

- أيعقل أن يتأمر كل هؤلاء على الحاكم في آن واحد؟ آه.. نسيت.. لا

شيء يخضع للعقل والمنطق هنا، بل يُجَلَّ إلى أن لا شيء يخضع للعقل في

هذا العالم. أرى الأمور غامضة أمامي، ولا أجد تفسيراً لأي شيء، ولا

أرى إلا أشخاصاً غارقين، بل مدفونين في الاكتئاب والصمت والحزن؟

كان مدير السجن ينظر إلى مالك مذهولاً، ويتساءل في سره: "كلامك لا

معنى له، بل إنه كهرف المخبول. إنك مخبول حقاً."

أخذ مدير السجن نفساً عميقاً، ثم نظر إلى مالك الذي جثا ثانية أمام

السجين.

سأل مالك السجين:

- ما اسمك؟

أجاب السجين بصوت مبحوح:

- عمر.

- منذ متى وأنت في هذا السجن؟

- منذ عشرين عاماً.

شعر مالك بالحزن يلدغ قلبه، والشفقة تنخر أحشاءه، وتساءل في سره، وهو ينظر إلى ذلك السجين القوي الضعيف: "إذا كنت في هذا المكان البائس من أجل أفكارك ومعتقداتك، فأنت أكثر شجاعة مني. لم أضحّ بشيء من أجل أفكاري ومعتقداتي. أرى في جسمك النحيل قوة لا أمتلكها، وأدرك أنك تحمل أفكاراً سامية. قد تكون هنا من أجل الغير وحرية الغير، وليس من أجل نفسك. تضحية عظيمة بلا شك، ولا أبالغ إذا قلت إنك أعظم شأناً مني، ومن والدي الذي زجّ بك في هذا المكان الحقير. كيف قضيتَ عشرين عاماً في هذا المكان؟ ماذا كنتَ تقول؟ ماذا كنتَ تفعل؟ مع مَنْ تحدثتَ؟ ما هذا الحزن الذي يغلفه الكبرياء في وجهك؟"

سأل مالك حزينا:

- وكيف تشعر وأنت في أسوأ مكان في دولة السراب؟ هل أنت راضٍ عن حياتك هنا؟

أجاب عمر مذهولاً:

- راضٍ عن حياتي؟ إذا كنت راضياً عن حياتي هنا، فأنا لا أختلف عن بهائم الأرض في شيء...

قاطعه مالك:

- لو كنت من بهائم الأرض لما قضيتَ عشرين عاماً هنا. البهائم تنساق وراء سيدها لأن عقولها لا تقوى على الشك في تصرفاته وكلامه. "تخضع معظم الأشياء إلى شك مؤقت يؤدي إلى الحقيقة" كما قال أحد الفلاسفة. أنت أعطيت كثيراً للآخرين.

ما تزال الدهشة تغطي وجه مدير السجن.

أصلح عمر من جلسته، وترنحت على شفتيه ابتسامة شاحبة، ثم قال بنبرة حزينة:

- معظم الأحيان، تأخذ الحياة من الفرد أكثر مما تعطيه. إنك لم تُبل من المصائب ما ابتليتُ أنا يا سيدي.

أعجب مالك بجواب السجين وقال مؤيداً:

- بل إن الحياة دائماً تأخذ من الفرد أكثر مما تعطيه. إنك تتحدث كالفلاسفة؛ فهم عارضوا المعتقدات السائدة في مجتمعاتهم، وطرحوا أفكاراً أخرى، ومن هنا أتت عظمتهم؛ من رفضهم العنيد للمألوف والسائد. لا يكفي أن تكون المعتقدات سائدة ومألوفة حتى تكون صالحة وجيدة. متعة رائعة أحياناً، وصادمة أحياناً أخرى، أن يكون الفرد مختلفاً عن الآخرين.

هز عمر رأسه موافقاً، وتساءل متعجباً: "أيعقل أن يكون هذا العظيم ابناً لذلك المستبد الظالم؟ أيعقل أن تنحدر هذه الطيبة، ورقّة القلب والعبقريّة من ذلك القاسي الصارم، الذي لا يتكلم إلا لغة الحروب والقتل والتعذيب؟ إنه لأمر لا يُصدّق حقاً. ما أعجبك يا دولة السراب! دولة المتناقضات من الدرجة الأولى. عجيب أمر هذا الشاب. أئخذعني؟ أئستدرجني لأمر ما؟ أئستنطقني كي يقودني لاعتراف ما؟ أئديه نية لإلحاق الأذى بي؟ أي أذى هذا؟ وهل هناك أسوأ مما أنا فيه الآن؟ لم يعد ثمة ما يهمني. ولكنني سأكون حذراً وأنا أتكلم معه."

عاد السجين إلى صمته، وراح يسعل، ثم وقف مالك والحزن يفتح قلبه، وقال في سره: "كم أشعر بالعجز أمامك أيها العظيم.. كم أحتقر نفسي لأنني لا أستطيع أن أفعل لك شيئاً.. كم يروعني ويذهلني ما أنت فيه. أكثر ما يحزنني أن والدي سبب ما أنت فيه."

لم يتمالك ابن الحاكم أن صفع مدير السجن الذي قال مذهولاً:

- ما أصعب أن يُضرب الفرد دون أن يعرف السبب!
فرد مالك:

- وما أصعب أن يُسجن الفرد دون أن يعرف السبب! استدع طبيباً يعالج هذا السجين.

أجاب مدير السجن وهما يخرجان من زنزانه عمر:

- ولكن الحاكم يرفض علاج هؤلاء السجناء...

قاطعته مالك:

- ولماذا؟

- يقول الحاكم إن السجناء اقتيدوا إلى هنا كي يموتوا يا سيدي.

- ولكن الحياة حق لهم.

- الحاكم وحده يقرر مَنْ يعيش ومَنْ يموت في دولة السراب...

قاطعته مالك بنبرة حاسمة:

- إن الله وحده هو الذي يجي ويُميت.

- أعلم ذلك، ولكن...

قال مالك:

- ولكن تفعلون ما تؤمرون، ولا تناقشون شيئاً.

قال مدير السجن:

- ليس لدينا الحق في مناقشة قرارات الحاكم. قرارات الحاكم دائماً

صائبة...

قاطعته مالك:

- الخطأ والصواب أمران نسياناً أحياناً؛ فالخطأ عندي، قد يكون صواباً

عندك، وقد يكون خطأ عند رجل ثالث. أعتقد أن كلامي معك هدر

للولت، لأنكم مسلوبو الإرادة، عاجزون عن التفكير والشك في الأشياء. استدع الطبيب، ولن يعلم الحاكم بذلك.

قال مدير السجن:

- أمرك يا سيدي.

دخل مالك ومدير السجن زنزانة أخرى. صُعِقَ من منظر سجين ثانٍ؛ كان يرتدي ملابس قد حال لونها، وتناثرت فيها الخروق. أظلت وجه السجين غمامة شحوب أحالته إلى هيئة الموتى. تعرّجت على قدميه تشققات من الحفاء. بعض أصابع يده اليمنى مبتورة. تألم مالك لما رأى وقد خال أن السماء تهبط لتتطبق على الأرض.

انتقل مالك إلى زنزانة أخرى، فرأى سجيناً ثالثاً، فأحس أن الأرض تميد تحت قدميه. سجين مطفأ العينين من التعذيب. هزّه الحزن، وراحت الأفكار تموج في رأسه: "مَنْ حَكَمَ ظلم حقاً. مهما فعل هؤلاء، فلا يُعقل أن يكون هذا عقابهم. لا أدري لماذا لا أرى سبباً لذلك كله. مَنْ حَكَمَ على هذا السجين أن يعيش في ظلمتين؛ ظلمة السجن وظلمة العينين؟ ما هذا الشر الظاهر المستتر في الإنسان؟ ما هذا الشر العنقودي؟ أصبح هذا الزمن زمن البهائم كي يُعامل الناس هكذا؟ ليتني أدري أين أنا. صحيح إنَّ حكم الشعوب عبء ثقيل لا يقوى على حمله إلا ذوو الأكتاف الحديدية أو الأكتاف السادية."

هو ذا إذاً. عالم الصمت، عالم تشريح الأحياء، عالم حُقْن الإسكات، عالم
خطف الكلمات والأعضاء...

سأل مدير السجن:

- أتريد أن ترى سجيناً آخر؟

أجاب مالك:

- لا، يكفيني ما رأيت. ما رأيته هنا يكفي لأن يجعلني أشعر بالحزن لسنة
قادمة أو أكثر. ليتني أنسى ما رأيت. يجب علاج هؤلاء السجناء.. ولكن
كيف نعيد النور إلى عينيّ هذا السجين؟
غادر مالك السجن غير مرتاح البال، وراح يمشي في الطرقات على غير
هدى.

عادت الأسئلة تتدحرج في رأسه.. أسئلة لا تستطيع أجوبة سحق
علامات سؤالها: "هل أنا على حق؟ هل حاكم دولة السراب على حق؟
هل هؤلاء السجناء على صواب؟ هل الإنسان مسوق إلى الشر بدوافع لا
يقوى على مقاومتها فعلاً؟ لماذا لا يكون مسوقاً إلى الخير دائماً؟ أهنالك
خلل فيك أيها الإنسان العجيب؟ مصلحة دولة السراب تقوم على ظلمة
عينيّ ذلك السجين، وصمت آخر، وبتر أطراف ثالث. اختلطت عليّ
الأمر، ولم أعد أستطيع أن أحدد أين الشر وأين الخير في كل هذا. قنابل

من الأسئلة توشك أن تنفجر في رأسي.. كم تضيق بي الحياة في هذه اللحظة."

عاد مالك إلى القصر لعلّه يخلو بنفسه. المكان المغلق.. الأبواب الموصدة.. الارتخاء ومحاولة ترتيب تلك الفوضى التي زحفت إلى رأسه. اجتاحته رغبة الانزواء في حجرته عندما حضره قول للكاتب كريستوفر مورلي: "خلف الأبواب المغلقة يهرب العقل إلى هدوء يبيث السعادة، أو إلى صراع سرّي حزين... والعقول تعمل بشكل أفضل خلف الأبواب المغلقة." هناك، في حجرته، خلف ذلك الباب المغلق، وسط ذلك الهدوء المريح الحزين، ارتمى مالك فوق سريره، محاولاً ترتيب أفكاره التي تشعبت وتعقدت. لم يتوقف ذلك السيل الجارف من الأفكار، إنه في أوج عنفوانه، كأن الصراع السرّي الحزين كان نصيبه من كلام كريستوفر مورلي.

قفز من السرير فجأة، عندما لاحت صورة سارة في ذهنه. هي، وهي فقط التي تستطيع أن تُخمّد ثورة الأفكار العارمة في أعماقه. ما أحوج الإنسان إلى الحبيب في أوج أزماته النفسية. كم شعر لحظتها بشوق عميق إلى لمسات يديها، ونظراتها الطاعنة في الإغراء، وصوتها عذب النبرات الذي يبيث في أعماقه ذبذبات مُحْرِقة.

اتصل مالك بالفتاة هاتفياً على عجل، واتفق أن يلتقي معها في إحدى الحدائق التي لا يرتادها إلا قلة من الناس. صوته على الهاتف يُثيرها، ويثبت فيها السعادة. لا أجمل من صوته على الهاتف.

ما أن وضعت الفتاة السماعة حتى شعرت بكهرباء اللقاء تصعقها. إنها تتوق إلى إرباكها، حيرتها، رعشة يديها، خفقان قلبها المتسارع، الرغبة المسروقة، المشاعر المجنونة.

ركضت نحو خزانة ملابسها، ونظرت إلى فساتينها الصارخة بألوانها وبرغبة اللقاء.

وقفت حائرة وتساءلت: "أي فستان أردي؟ ماذا سأقول له؟ ماذا سيقول لي؟ هل سيعجبه هذا الفستان أم ذاك؟ لا أدري ماذا أختار. أأختار الأحمر، أم الأخضر، أم الأصفر، أم الأزرق؟ كل هذه الألوان تتنافس على الظهور بجرأة أمامه. وكيف لا وهو مولع بالرسم والألوان؟ وكيف لا وهو ملك الألوان؟ أشعر بأن كل هذه الفساتين تتقافز أمامي راغبة في لمسة من لمسات يديه المحرقة بإثارتها. أأختار الأزرق؟ أشعر بأن هذا اللون يوحي بالارتفاع والاتساع. الأزرق.. لون السماء والبحر. فيه اتساع البحر وارتفاع السماء. أحبُّ الأزرق، ولكن.. لا أدري إن كان هو يجب الأزرق أم لا. غريب أنني لم أسأله عن لونه المفضل. إنها رعشة

اللقاء التي تُسببني دائماً ما أرغب في قوله. ما أروعك يا قيس ابن الملوح
وأنت تقول:

وإني ليشينني لقاءك كلما لقيتك يوماً أن أبشك ما بيا
سأختار الأزرق إذاً.

لكن، لماذا كل هذه الحيرة؟ لماذا أشعر بأن هذا لقائي الأول معه؟ هو
الماضي الذي يعبق بالحنين، وهو الحاضر بزلازل اللقاء، وزلازل
الأعضاء."

محمومة هي الرغبة في جسدها..

مشتاقة إليه روحها..

هذان عشقي يصحو من سباته.. مُلبياً نداء الجسد.

ارتدت فستانها الأزرق، وصبغت شفيتها بأحمر الشفاه، ووضعت العطر.

إن أجمل ما في اللقاء الغرامي لهفة الانتظار، والحرقّة التي تسبق اللقاء.

هل الإنسان مازوشي بطبيعته؟

حملت الفتاة حقيبة يدها، وأخبرت والدتها أنها ذاهبة لزيارة إحدى

صديقاتها. كم كانت تحتقر نفسها وهي تقف أمام والدتها، تحتلق الأعذار

للخروج من البيت. احتقار سرعان ما تقضي عليه متعة اللقاء. الحاجة

النفسية والحاجة الجسمية.. أيهما أقوى؟

شعرت سارة أنها كدمية تحركها خيوط الشهوة.. مسوقة بتلك اللهفة الشديدة، توجهت إلى الحديقة بسيارة أجرة، وما أن رأيته، حتى ركضت نحوه واحتضنته. أشعت عيناها حباً وجمالاً يجذبان القلب، وخفق فؤادها خفقان العشق.

ما أن نظر إلى عينيها الجميلتين، حتى شعرت بطعنات نجلاوات تصيب قلبها، ومن صوت أنفاسه تنبعث أعذب وأروع الموسيقى، ففي صوت أنفاسه جمالية لم تقوَ على مقاومتها.

قال مالك وهو ينظر إلى عينيها:

- اشتقت إليك، ولم أقوَ على الانتظار. ينتابني شعور رائع وسعادة تعصف بكل أجزائي وأنا معك.

جلس الاثنان على أحد المقاعد. أحست ضربات قلبها تتسارع، ورعشة الحب تجتاحها. تسلقت نظراته إلى جبينها الوضاء، ثم هبطت هبوطاً مفاجئاً إلى شفيتها. إثارة عنيفة سرت في جسدها عندما شعرت برؤوس أصابعه تلامس شفيتها. لمس شفيتها دون أن يقبلها، وأحمر الشفاه انتقل إلى رؤوس أصابعه. لا تدري لماذا شعرت بالإثارة وهي ترى أحمر الشفاه على رؤوس أصابعه. تساءلت في أعماقها: "بماذا يشعر وهو يرى أحمر الشفاه على رؤوس أصابعه؟ أيشعر بالإثارة نفسها؟"

ابتعدت الفتاة قليلاً، وفي داخلها رغبة تشد جسدها نحو دفء جسده.
هي تتبعد عنه قبل أن تغرق في ضعفها وعدم القدرة على المقاومة.
ابتسم الشاب. ابتسامته مثيرة، وضحكته تسبب الدوار.
شعر مالك بانفعال يسري في جسده وقال:

- أنسى كل همومي وأحزاني عندما أراك. أنا موقن من أن المشاعر
الإنسانية لا يمكن أن تخضع لقانون الكلام.. تخذلني الكلمات، وتعجز
اللغة عن التعبير عن ما أريد قوله. يا لضعف اللغات.. مشاعرنا وأفكارنا
بالغة التعقيد والعمق بحيث تستسلم أمامها اللغات.
ابتسمت الفتاة، إعجاباً بكلامه، واعترتها رغبة قوية في عناقه وتقبيله
بلهفة متصاعدة، ولكن لم يطاوعها الحياء، فهامت في عينيه اللتين تشعان
إغراءً.

صامتة أمام إيقاع كلماته..

حائرة، مبعثرة في تساؤلاتها..

مُرَبَّكة بانفعالاتها..

سألته بعدما رأت حزناً مفاجئاً قفز إلى عينيه:

- ما الأمر يا مالك؟ أرى حزناً في عينيك لم أر مثله من قبل.

أجاب بنبرة حزينة:

- "تأخذ الحياة من الفرد أكثر مما تعطيه".. هذا ما قاله ذلك الرجل.

لاذت بالصمت برهة، ثم قالت في أعماقها متعجبة: "بعد كل هذه اللهفة لهذا اللقاء، والكذب على أمي كي أخرج من البيت، تحدثني كلاماً غريباً لا أرى سبباً له. أتيت إلى هذا المكان كي تحلل الحياة والإنسان. ما أعجب ما نحن فيه الآن! ولكن عن أي رجل يتحدث يا ترى؟"
سألته:

- ومن هذا الرجل الذي يتحدث عنه؟

أجاب:

- إنه سجين في سجن "السعادة والبهجة". هل يمكنك أن تتصورى أن يكون هذا اسم سجن؟ ما رأيته في ذلك السجن يجعل الفرد يفقد عقله. ظلام، تعذيب، تشويه أجساد. قضى ذلك السجن عشرين عاماً في السجن، وبدت آثار التعذيب على جسده النحيل، ومع ذلك كله، فلم يكن نادماً، بل بدا متمسكاً وثابتاً، متشبهاً بأفكاره ومبادئه. رأيت فيه شجاعة وعظمة. إنها شجاعة الثبات على المبادئ مهما كلف الأمر. وقفت عاجزاً أمامه، لأنني لم أستطع أن أفعل له شيئاً. كم كرهت نفسي بسبب عجزى. كره الذات شعور مؤلم. ورأيتُ سجيناً آخر، مشفق القدمين، وسجيناً ثالثاً مطفأ العينين. يا لهول ما رأيت في أحسن سجون دولة السراب. ترى كيف سيكون حالى لو رأيت باقى السجناء؟ أمرت مدير السجن بأن يستدعى طبيباً لعلاج هؤلاء السجناء.

غرقت الفتاة في الصمت وقالت في سرّها: "لماذا استمّْتُ على هذا اللقاء؟ وكيف كنت سأعرف بأننا سنناقش شؤون السجناء في مكان يوحى بالحب، والحب فقط؟"

عندما يعشق الرجل يكون عشقه مسيِّجاً باهتمامات أخرى. أما عشق المرأة فيكون مسيِّجاً بالحب والرغبة فقط. أيفسّر هذا ارتباط اسم الرجال بالفلسفة من دون النساء؟

قالت سارة، محاولة إظهار اهتمامها بالموضوع الذي تحدث عنه مالك:
- دائماً هناك مَنْ يعمّر وهناك مَنْ يدمّر.
سألها:

- أعتقد أن لديّ قدرة على إصلاح ما أفسده حاكم دولة السراب؟
أجابته:
- أنا موقنة.

نظر مالك إلى الأشجار، فرأى عصافير تطير من شجرة إلى شجرة بخفة وحرية.
سألها:

- في ماذا تفكر هذه العصافير يا تُرى؟
قالت الفتاة في سرّها: "والآن تريد أن تحلل تفكير العصافير، ولا أدري ماذا ستحلل بعد قليل."

أخذت الفتاة نفساً عميقاً وقالت:

- ربما في قدرتها على الانتقال من شجرة إلى شجرة، أو ربما في متعتها في الانتقال من شجرة إلى أخرى.

فقال:

- كم أحسد هذه العصافير على حريتها في الانتقال من مكان إلى آخر. لا قيود ولا قوانين. لا أدري لماذا أرى في القوانين نوعاً من أنواع السجون، ولكن باسم مختلف. أحياناً أعتقد أن القانون هو الذي يسمح للفرد أن يفعل ما لا يريد. يعتقد والدي أن القيود والقوانين الصارمة تضبط وتنظم المجتمعات، ولا يؤمن أن القيود والقوانين الصارمة تسحق كرامة الإنسان.. غدت دولة السراب دولة سيئة السمعة.

سألته بشكل مفاجئ:

- لم تخبرني كيف ماتت أمك؟ أقصد هل كانت تعاني من مرض ما؟

أجاب بعد صمت استمر دقائق:

- ماتت بعد أن وضعتني بدقائق، لذلك يقول والدي إنني مصدر شؤم.

قالت:

- بل إنك الخير والأمل كله، يا نبض القلب، ويا سحر الوجود. حاكم

دولة السراب لا يستطيع الحكم على الأشخاص إذا كان رأيه فيك هكذا.

التفتت سارة حولها، فرأت رجلاً ثلاثينياً ينظر إليهما.

أمسكت بيد مالك وقالت:

- هل ترى ذلك الرجل؟

- ما به؟

أجابت وقد شعرت بشيء من القلق:

- لا تعجبني نظراته. أشعر أنه يراقبنا. قد يكون من عملاء الحاكم. ألا

تعتقد ذلك؟

وما أن رأى الرجل الفتاة تنظر إليه حتى ابتعد وتوارى عن الأنظار.

واصلت الفتاة تقول:

- لقد صدّق حدسي. ها هو قد ذهب.

قال مالك:

- ربما يكون من عملاء الحاكم، ولكن لا تخافي. هل تشعرين بالخوف

وأنتِ معي؟

لم تتمالك الفتاة أن قالت في سرها: "أنت تُخيفني وتهدئي في آن واحد.

تُربكني.. تخدّرني.. تصعقني بكهرباء لمسة يديك. أشعر بنوع من التخدير

في يديك. لو علم أطباء التخدير بسحر يديك لجعلوا منها مادة مخدّرة

لمرضاهم. إنك تسحرني وتدّوخي. ما هذا الضياع الذي تسببه لي؟ لا

سيطرة لي على نفسي."

أجابت بعد صمت:

- أخاف ولا أخاف.

ابتسم وسأل:

- وكيف ذلك؟

أجابت:

- أَفْضَلُ أَنْ أَجِيْبَكَ بِصَمْتِي. يُبْهَرُنِي الرَّجُلُ الَّذِي يَقْرَأُ الصَّمْتَ. أَصْدَقُ

مَا يُمْكِنُ أَنْ تُعَبِّرَ عَنْهُ يَكُونُ فِي الصَّمْتِ لَا فِي الْكَلَامِ. الْكَلَامُ يَزِيدُ

مَشَاعِرَنَا وَأَفْكَارَنَا غَمُوضاً. دَعِ الصَّمْتَ يَتَكَلَّمْ.

ابتسم، ثُمَّ قَبَّلَهَا. أَخَذَتْ الْأُمُورَ تَسِيرَ فِي الْإِتِّجَاهِ الَّذِي رَسَمْتَهُ. صَوْتُ

أَنْفَاسِهِ الْمَتَهْدِجِ مِنَ الْإِنْفِعَالِ يَغْلَفُهَا بِسِحْرِ لَا تَقْوَى عَلَى مَقَاوِمَتِهِ.

يَا لِسِحْرِ الْأَصْوَاتِ.. عِنْدَمَا تَعَانِقُ أَنْفَاسُهُ أَنْفَاسَهَا..

زَلْزَالَ مِنَ الْمَشَاعِرِ تُحْدِثُهُ قُبْلَةً..

شَهْقَةُ الْحُبِّ تَتْبَعُهَا شَهَقَاتُ..

قَالَ مَالِكُ:

- سَأَتَزَوِّجُكَ، وَسَأُبْتَئِدُ عَنْ ذَلِكَ الْقَصْرِ الَّذِي يَذْكُرُنِي بِالْحُرُوبِ وَسَفْكَ

الدَّمَاءِ وَاضْطِهَادِ النَّاسِ. سَأُبْتَئِدُ وَأَعِيشُ الْحَيَاةَ الْبَسِيطَةَ الَّتِي أُرِيدُهَا.

رَاعَهَا وَأَذْهَلَهَا كَلَامَهُ. أَكَانَ يَعْنِي مَا قَالَ؟ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُصَدِّقَ. أَكَانَ

هَذَا الْكَلَامُ الْعَجِيبُ بِسَبَبِ تِلْكَ الْقُبْلَةِ؟ أَهِيَ الْأَقْدَارُ الَّتِي تُسَوِّقُهَا

بِطَرِيقَةٍ عَجِيبَةٍ؟ أَهِيَ اللَّاشْعُورُ الَّذِي يَسْحَبُهَا بِأَيْدٍ مُسْتَتْرَةٍ؟

سألت سارة مذهولة:

- أمازح أنت؟ ماذا قلت؟ تتزوجني؟ أين أنا منك أيها العظيم؟ يحضرني في هذه اللحظة قول أحد الفلاسفة: "إن الإنسان لا يعيش، بل يحلم أنه يعيش." أدرك الآن أنني لا أعيش، بل أحلم أنني أعيش. لا أصدق...
قاطعها:

- وقال فلاسفة آخرون: "إن الإنسان لا يعيش في الحياة، بل يعيش على حافة الحياة." بمعنى أن الإنسان آيل إلى السقوط في أية لحظة. إنه قانون التغير المستمر.
قالت الفتاة:

- ما يحدث معي الآن يجعلني أشعر بأننا شخصيتان حبريتان في رواية. لا أصدق ما يحدث. أشعر أنني أقرأ رواية عجيبة غريبة؛ رواية تخلو من المنطق والإقناع، لذلك فهي ليست من النوع الجيد...
قاطعها:

- أليس الأدب مرآة للحياة؟
أجابت:

- هذا إذا كان الأدب أدباً. أقصد ما يحدث معنا يخرج عن خيال شاعر وقاصٍّ وراوٍ. لا أعتقد أنك فكرت جيداً في هذا الزواج. قد تعدل عنه يوماً ما. لا أرى شيئاً منطقياً في هذا الزواج. زواج يولد كي يبقى في دائرة

الأحلام. رائع أن يعيش الإنسان في الخيال، ولكن سرعان ما تشده أيدي الواقع إلى دائرة المعقول والمنطق. لا يمكن أن يكون الإنسان خيالياً معظم الوقت، أو أن يكون واقعياً كل الوقت. الإنسان متأرجح دائماً بين الاثنين.

سأل مالك:

- أهذا رأيك؟

أجابت:

- هذا ليس رأيي. هذا رأي العقل والمنطق. أين نحن منك؟ لقد سُئل تفكيري تماماً.

قال مستاءً:

- أي عقل وأي منطق هذا؟ لا تتكلمي عن العقل والمنطق في دولة السراب. لا شيء يخضع للمنطق هنا. هل وضع السجناء الذين رأيتهم يخضع للمنطق؟ أي منطق هذا في سفك الدماء والاستبداد في دولة السراب؟ ولا أدري لماذا يجب أن يخضع زواجي للمنطق من بين كل هذه الأمور التي لا تخضع للمنطق؟

قاطعته:

- تساؤلِكَ الأخير إشارة ضمنية إلى أن زواجنا غير مناسب.

سألها:

- وكيف ذلك؟

- لأنك ربطته بكل الأشياء غير المنطقية في دولة السراب...

قاطعها ضاحكاً:

- جمالية الحب تكون في حالته الجنونية، وفي خروجه عن القانون والمألوف. الحب الذي يُخطط له وَيُخضع للمنطق ليس حباً، بل حاجة جسمية فقط. عشقتكِ مصادفة، دون أن أخطط للقاءك وكلامي معكِ. سأترورك هكذا. لن أخطط لشيء. سأترك العنان لحالة العشق الجنونية التي تحتاجني. لا أدري لماذا أشعر أن أكثر الأمور فشلاً هي تلك التي يخطط لها.

رمقته بنظرات حاملة وقالت في أعماقها: "آه، يا مالك. ما زلت أحلم. لا أصدق أنني أراك، أجلس جوارك، التمس الدفء من يديك، والجرأة من عينيك، والقوة من قلبك، والاطمئنان بين ذراعيك. سعادة مجنونة تعصف بجسدي عصفاً، ولا أدري ما الذي سنؤول إليه. لا أفكر إلا في هذه السعادة الجنونية."

سألت الفتاة:

- ما الفرق بين الحلم والواقع؟

أجاب مازحاً:

- الاسم فقط.

ضحكت سارة وقالت:

- أنت مذهش. كنت أعتقد أن الحلم لا يحدث، والواقع يحدث. والآن
فإن المفاهيم تأخذ اتجاهاً آخر. لِنَقُلْ إنها تأخذ اتجاهاً جنونياً بعض الشيء.
أتعلم معك أشياء كثيرة غريبة مذهشة.. ولكن أخبرني.
سألها:

- أخبرك بماذا؟
سألته:

- هل يمكنك أن تحكّم على الفرد من نوعية الكتب التي يقرأها؟
قال:

- أتسألين ذلك لأنك تفترضين أنك شخصية حبرية في رواية ليست
جيدة؟
قالت:

- ليس الأمر كذلك. ولكن هل يمكنك أن تحكّم...
قاطعها:

- ربما.. ولكن، أنا أحكم على الإنسان من الأشخاص الذين يحبهم.
قالت:

- كل الأمور تأخذ اتجاهاً آخر معك. أنت مذهش في كل شيء.. ولكن
أعتقد أن والدي سيفقد عقله إن علم بموضوع الزواج.

أجابها:

- دعي الأمور تأخذ منحى عبثياً...

قاطعته:

- لا أفهم.

أجاب:

- سخرتُ منّا الدنيا كثيراً، فلنُسخر منها بطريقتنا.

قالت مذهولة:

- ما زلت لا أفهم.

قال مالك:

- يحضرني في هذه اللحظة الرسام الفرنسي يوجين ديلا كروا، الذي فارق

الحياة مبتسماً. ربما لأنه سخر منها، وربما لأنه أحبها. إن كان أحبها، فما

أجمل أن يودّع الإنسان ما يحب بابتسامة، وإن سخر منها، فما أعظم أن

تستصغرها ابتسامة إنسان، فتبدو الحياة كلها أصغر من ابتسامة تنطلق من

شفيتين شبه مطبقتين...

قاطعته بذهول:

- كلامك يُبهرني، مع أنه غامض بعض الشيء، لكنه يبهرني.

سأل ضاحكاً:

- ألا تفهمين كلامي؟

- لا أفهمه.

عانقها وقبلها، ثم سأل:

- أتفهمين الآن؟

أجابته:

- أنت مدهش..

إذا أردت أن تفهم امرأة قبلها..

* * *

أهي المكافأة.. أم الخوف؟

أهي المكافأة التي دفعت الضابط الرابع إلى إبلاغ الحاكم بالمؤامرة التي يدبرها قائد الجيش ومجموعة من الضباط ضده؟ أم هو الخوف الذي دفعه إلى ذلك؟

الخوف من أن يُفْضَح أمره، فيفقد حياته، ويتعس أولاده وزوجته من بعده.

تأرجح الضابط الرابع بين هذين التيارين من التفكير؛ فتارة يجد نفسه مسوقاً بنعائم المكافأة التي اعتقد أنه سيحصل عليها إن كشف ما يُدَبَّر ضد الحاكم، وتارة أخرى يجد نفسه مدفوعاً بخوف شديد على حياته إن فُضِّح أمره. وسواء أكان هذا السبب أو ذاك، فقد شعر الضابط أنه سيستفيد في نهاية الأمر، فتوجه إلى القصر كي يخبر الحاكم بتفاصيل

المؤامرة التي تُحاك ضده. على عكس توقعاته، فقد استقبله الحاكم بفتور شديد.

قال الضابط بعدما أدرك أن لا مجال للتراجع:

- هل لي أن أحدثك على انفراد يا مولاي؟

فوجئ الحاكم من طلبه، وأيقن أن هناك أمراً خطيراً يستدعي ذلك. أمر حراسه بمغادرة المكان، ما عدا حارسه الشخصي.

قال الحاكم والأفكار تراوده:

- قُلْ ما عندك.

أجاب الضابط متهمياً:

- لم أتوقع أن يكون قائد الجيش وثلاثة ضباط حاقدين عليك إلى درجة التخلص منك يا مولاي.

كان الحاكم يستمع إلى الضابط وقد أظلم وجهه الذهول والاستغراب. واصل الضابط يقول متملقاً:

- ولا أدري كيف وصل بهم الحقد إلى درجة التخلص منك، وأنت الحاكم العادل، ذو السمعة الطيبة، وصانع أعجاز دولة السراب.

سأله الحاكم:

- أأنت موقن مما تقول؟

أجاب الضابط وقد اعتراه بعض الخوف:

- أجل يا مولاي.

سأل الحاكم:

- ومتى كان ذلك؟

أجاب الضابط:

- منذ بضعة أشهر.

سأل الحاكم مرة أخرى:

- ولماذا لم تخبرني وقتئذ؟

لأذا الضابط بالصمت، وقال في سره وقد سرى القلق والخوف في جسده:

"ها أنا قد أوقعت نفسي. تُراه ماذا سيفعل بي؟ تُراني فعلت صواباً أم

خطأ؟ ماذا سيكون رد فعله؟ ماذا أجيئه الآن؟ وجدتها.. سأخبره بأنني

انتظرت حتى يحين الوقت المناسب.. لا.. كم يبدو جوابي ساذجاً! كيف

أقول له إنني كنت مقتنعاً بفكرة المؤامرة في السابق والآن تغريني

المكافأة؟ ولماذا أفترض أنني سأحصل على مكافأة؟ كيف أقول له إنني

عدلت عن فكرة الإطاحة به قبل وقت قصير بسبب خوفي على حياتي؟

ليتني لم أفعل ما فعلت.. ليتني لم أجيء إلى هنا. سأجيئه ذاك الجواب..

الجواب الساذج. السذاجة أحياناً تكون الوسيلة الوحيدة للتخلص من

أزمة حلّت بنا."

أجاب الضابط محاولاً إخفاء قلقه، وإظهار ثقته بنفسه:

- انتظرت حتى يحين الوقت المناسب.

ذهَلَ الحاكم من جوابه، وقال غاضباً:

- أكلَ هذا الصمت من أجل أن تقول ذلك؟

اجتاحه خوف شديد. وقف الضابط مسمراً وقال في سرّه: "لم يُعجبه جوابي إذاً. أشعر أن السماء تنطبق على رأسي. أخشى أن يكون جزاء سنّار جزائي، بل أنا موقن من ذلك إذا لم يصدق أنني انتظرت الوقت المناسب.

قال الحاكم مبتسماً:

- اذهب أيها الضابط، وستحصل على مكافأتك لاحقاً. سأندبر الأمر. غادر الضابط القصر وهو يشعر بارتياح يخالطه القلق. قال الضابط وهو يمشي في الشارع: "هل صدّق الحاكم كل كلامي وهو ملك الشك؟ ولماذا افترض أنه لم يصدقني؟ أعتقد أنه صدّق كل كلامي. ولكن متى سأحصل على مكافأتي؟"

سريعاً جواب سؤاله كان.. مكافأة الرصاص باغتته من الخلف..

هكذا تكون مكافأة السياسيين؛ سريعة.. ساحقة.

هكذا تكون هدية العسكريين؛ مباغتة.. قاتلة.

غريبة هي دولة السراب، وأشد غرابة حظ ذلك الحاكم. تُقدّم له الأشياء على طبق من ذهب، وتأتيه الإجابة دون أن يكلف نفسه عناء السؤال.

obeikandi.com

الفصل الرابع

لا يكفي أن يكون العدل عدلاً كي يحيا ويتنصر..
بعد فشل مالك في إقناع حاكم دولة السراب بأن يستبدل بإعدام قائد الجيش والضباط الثلاثة السَّجْن، قبع قائد الجيش والضباط الثلاثة في عتمة السجن، ينتظرون ظلاماً دامساً أبدياً.
على عكس توقعاتهم، جاءت الأمور مسرعة بصدمة مزلزلة. صدمة الإعدام، وزلزال الرعب منه.
خطة الإطاحة بحاكم دولة السراب أصبحت كجنين مات في الرحم.
تكوّن في الظلام ومات فيه، ودُفِنَ سراً.
غارقون في الرعب. منتظرون ظلام الموت.
أظلت وجه قائد الجيش غمامة حزن وقال ساخراً:

يقال إننا نصنع أقدارنا بأيدينا، ولكنني أرى أن الأيام تسحقنا بأيديها.
ترشقنا هنا وهناك بطريقة عشوائية كأوراق أشجار جافة تبعثرها الرياح.
أنستحق ما نحن فيه؟ أكاد أفقد عقلي.

قال الضابط الأول، مذكراً قائد الجيش بقرب موعد الإعدام:
- بل إنك ستفقد جسدك كله، ولكن أخبرني كيف تشعر وأنت على حافة
الحياة؟

أجاب قائد الجيش بشيء من الهذيان:
- تسأل كأنك في وضع استثنائي. أشعر كما تشعر. ولكن ثمة أمر يراودني
باستمرار، والآن فإنه ينخر رأسي. كيف يشعر الإنسان وهو على بُعد
ساعة أو ساعات من الموت؟ هل يربعنا الموت عندما تقترب منه؟
رد الضابط الأول قائلاً:

- وكيف تسأل ذلك وأنت من يجب أن يخبر إنساناً يبعد عن الموت بسنة
أو سنوات؟
سأل قائد الجيش:

- ألا تشعر أن العقل يقف عند هذه النقطة؛ نقطة ما هو الموت. إن العقل
بكل قدراته التخيلية والتحليلية يرتطم بجدران أسرار الموت المحصنة.
فسأل الضابط الثاني:

- أعتقد أننا أصبحنا فعلاً على حافة الحياة؟ ألا يمكن أن تحدث معجزة تنقذنا مما نحن فيه؟

أجاب قائد الجيش:

- استسلم للأمر. إننا على حافة الحياة. أشعر بأنني أهذي.

قال الضابط الثالث:

- كلنا على حافة الحياة إلا حاكم دولة السراب. إنه يتربع على كبد الحياة.

مُضحكة مُبكية هي الدنيا. لا نفهم فيها شيئاً بعض الأحيان...

قاطع الضابط الأول:

- بل دائماً.

تساءل قائد الجيش تساؤلات مجاورة للهذيان:

- أين نحن؟ أيعقل أن نكون في السجن؟ أانتظر الإعدام؟ أخبروني. هل

نتنظر الإعدام أم الإعدام ينتظرنا؟

فرد الضابط الأول:

- هذه قضية فلسفية. مثل، هل نحن ننتظر الموت أم الموت ينتظرنا؟ كلما

رددت هذا السؤال في ذهنك تجد أنه يأخذ شكلاً دائرياً، لا يخترقه سهم

الجواب، ويسبب لك الدوار.

شعر الضابط الثالث بضيق في التنفس، وشعر بقلبه يزداد خفقاناً،

وبأطرافه ترتعش من كهرباء الخوف:

- لا تتحدثوا عن الموت هكذا. لا أحتمل سيرته. أعلم أنني أقرب منه، ولكن لا أحتمل سيرته. إنكم ترعبوني بهذا الحديث. لا أستطيع أن أصدق أنني سأفارق الحياة هكذا، دون مرض قاتل.

فتساءل قائد الجيش:

- وهل طعم الموت يختلف إذا كان الجسد مريضاً أو معافى. أنت متشبث بالحياة إذاً، ولست خائفاً من الموت كما تدّعي.

ضرب الضابط الثالث رأسه، وقال وقد ارتسم ذلك الحزن الذي يجاور البكاء على وجهه:

- لا أدرك ما أقول. يتسرّب من رأسي ترابط الكلام. أعتقد أننا في وضع يسمح لنا أن نكون جملاً منطقية أو نقول كلاماً مترابطاً؟ إننا غارقون في بحر من متاهات المشاعر والأفكار.

قال الضابط الثاني:

- أنا نفسي، اختفت الأفكار المتعلقة بالحياة من رأسي، لأنها لم تعد تعينني وأنا أقف على عتبة الموت. أفكاري تتركز على ما يعينني ويعنيكم وهو الموت.

قال الضابط الثالث:

- قلت لكم لا تتحدثوا عن الموت هكذا.

فسخر قائد الجيش من كلامه وقال:

- وهل هناك طريقة أخرى للحديث عن الموت؟ إنك تثير جنوني. عن
ماذا تريدنا أن نتحدث ونحن على بعد مسافة قصيرة من الموت؟
قال الضابط الأول:

- لا أذكر اسم ذلك الكاتب الذي قال: "الحزن والخوف ليس من الموت
نفسه، وإنما من الطقوس التي ترتبط به.."
قاطع الضابط الثاني:

- كلامك هذا يتعلق بالأحياء وليس بالأموات. وما يهمنا كيف يشعر
الآخرون بعد موتنا؟
قال الضابط الأول وقد استسلم للأمر:

- لماذا كل هذا الخوف من الموت؟ كلنا زائلون، كما يقول الشاعر:
من لم يمّت بالسيف مات بغيره تعددت الأسباب والموت واحد
قال قائد الجيش باستياء:

- يا لراحة بالك. أما زلت تذكر ما يقول الشعراء وأنت في وضع يُسْحَقُ
فيه العقل؟ لا أصدق أنك لا تخشى الموت. ليتني أعرف ما هو الموت؟
أجاب الضابط الأول:

- كلمة معاكسة للحياة. الكلمة الضد للحياة.
فقال قائد الجيش:

- ألم أقل إنك مرتاح البال. أهذا شعورك قبل موتك؟

قال الضابط الأول:

- ما بالك أيها القائد؟ تمالك نفسك. أكُلُّ هذا الخوف وقد كنت قائداً للجيش! الجيش الذي لا يتكلم إلا لغة القتل. لن أكذب وأقول إنني لا أخاف من الموت. إنني أشعر برعب شديد منه، ولكن لا سبيل إلى الفرار من نهاية حتمية. إني أتمالك نفسي.

أجاب قائد الجيش:

- اصمت أنت. إنك تتظاهر برباطة الجأش. كل شعراء العالم لا يستطيعون وصف ما أنا به. أكاد أُجنّ...

قاطع الضابط الثالث:

- ليت الأمور تقف عند فقد العقل. الأمر أدهى وأمر؛ إنه فقد الروح.

وقف قائد الجيش وراح يتحرك كالتائه، ثم قال:

- أخبرتكم أن هذا الحاكم لا يفوته شيء، ولم تُصغوا إليّ. ونحن الآن ندفع حياتنا ثمناً لأفعالنا...

قاطع الضابط الأول:

- بل قلّ ثمناً لأفكارنا. لم تخرج خطتنا عن إطار التفكير. نحن نُعَدِّم بسبب أفكارنا، لا أفعالنا. ولكن ما سرّ قتل الضابط الرابع؟ لقد قُتِلَ في ظروف غامضة.

قال الضابط الثالث:

- ربما قُتِل لإخفاء سرٍّ ما. لا أدري كيف وصلت تفاصيل خطتنا إلى الحاكم؟

سأل الضابط الأول مخاطباً الضابط الثالث:

- أعتقد أن الضابط الرابع كشف عن خطتنا للحاكم؟
أجاب الضابط الثالث:

- ربما. قرأت نبأ مقتله في صحيفة "الحقيقة المطلقة".
فتساءل الضابط الأول:

- ولكن لماذا قُتِل؟

أجاب الضابط الثالث:

- الأمر واضح بعض الشيء. لا أحد يعلم بخطة الإطاحة بالحاكم إلا نحن وذلك الضابط الذي قُتِل. إن لم نكن نحن مَنْ كشف عن الخطة، فإنه هو. ولكن لا أدري لماذا قُتِل؟

قال قائد الجيش وهو على حافة البكاء:

- سنفارق الحياة قبل أن نحقق هدفاً واحداً من أهدافنا. لم تسُدِ العدالة التي أردناها، ولم يَزُل الظلم...

قاطعه الضابط الأول بعدما رأى الدموع في عيني قائد الجيش:

- لا أدري كيف كنت قائداً للجيش وكل هذا الجُبْن يسكن فيك. ألم تتعلم من الحاكم بعض الصرامة والشراسة؟ إنني على وشك أن أجد للحاكم المبرر عندما أمر بتنحيك عن منصبك. قيادة الجيش تتطلب أشخاصاً جبابرة، أقوياء كالوحوش.

قال قائد الجيش:

- قلت لك اصمت. إنني أوشك أن أنفجر. سنموت ونُدفن ولن يجرؤ أحد أن يزور قبورنا خوفاً من الحاكم.
قال الضابط الأول مبتسماً:

- غريب أنت! أنت تُضحكني وأنا على بعد أقل من ساعة من الموت. أيهمك إن كان قبرك سيُزار أم لا؟
جثا قائد الجيش على الأرض باكياً، فحلّق الضباط حوله، مهدئين.
قال الضابط الأول:

- أتبكي؟

أجاب قائد الجيش باكياً:

- إن كنت لا أبكي الآن، فمتى أبكي؟

أزفت لحظة الوداع. وداع الحياة، والانتقال إلى عالم يصرخ بالرعب. عالم الموت، عالم المجهول، وساد ظلام الغرف؛ غرف صناعة الموت، وسحق النفس البشرية بهدوء، وبدم بارد.. غرف نَسْفِ الأحلام.

سيق قائد الجيش والضباط الثلاثة إلى غرفة كتب عليها "غرفة الأحلام".
ما أن اقتيدوا إلى داخل الغرفة، حتى شعروا بخوف وهلع يفوقان حد الوصف.

دولة السراب لها طقوس خاصة للحياة، وطقوس خاصة للموت، ففي بلاد أخرى، يُعَدَم كل شخص على حدة، أما في دولة السراب، فيتم الإعدام بشكل جماعي اختصاراً للوقت والجهد. بخيلة هي دولة السراب في وقتها.. كريمة في رصاصاتها المميّنة، وطعناتها القاتلة.

قال قائد الجيش مذعوراً:

- لا أريد أن أُقتل.

فأجابه رجل كان يمسك بذراعه ويسحبه نحو مكان الإعدام في غرفة "الأحلام".

- لَنْ يُقْتَلَ أحد منكم. ستُنْقَلون إلى عالم آخر، كالانتقال من دولة إلى أخرى. الأمور أبسط مما تتصورون. لماذا كل هذا الرعب؟ إلى هذا الحد تحبون الحياة؟

سادية رهيبة، وسخرية مقيّنة، لا تنطلق إلا من متقني "فن" القتل، وصناعة الموت.

لم يقوَ قائد الجيش والضباط الثلاثة على الرد. كقطيع من الماشية يساق إلى جزار يمتهن الذبح.

كانوا يتمتمون كلاماً لا معنى له. هذيان اللحظات الأخيرة. وما أن نظر قائد الجيش إلى الرجال الذين اقتادوهم إلى غرفة الإعدام، أو غرفة الأحلام، حتى شعر أنه مات قبل أن يموت. رجال يغلف وجوههم قُبْح مرعب.

لحظات حاسمة.. مخيفة.. ساحقة.

جدران غرفة الإعدام مدهونة بالهلع من الموت، بصرخات الضحايا، بفجائع الناس، بظلم صارخ.

لا أسوأ من لحظات كتلك؛ لحظات الانتقال من عالم كانوا يوهمون أنفسهم أنه عالمهم. تأقلموا مع بيئته. اعتادوا على نوره وظلامه. عاشوا فيه، عشقوا، تألموا، لعبوا، وغضبوا.. إلى عالم لا يعرفون عنه شيئاً سوى الاسم.. الموت.. انتقال صادم.. مرحلة انتقالية مرعبة.

والآن تظهر نعمة الموت المفاجئ، السريع، الخاطف. إنه يوفر ويختصر رعب مرحلة يموت فيها الإنسان ألف مرة. مرحلة يكون فيها الإنسان بين الحياة والموت.

أيستحقون عقاب الموت من أجل فكرة راودتهم، أو حلم عاش فيهم؟ مَنْ هو الذي يقوى على أخذ ما ليس مُلك له؟ غابة بشرية هي دولة السراب.. مطحنة العقول البشرية.

ثم جاء الرجل الذي سينفذ حكم الإعدام بإطلاق الرصاص، وعلى كتفه بندقية. هذه الكتف التي كانت قاعدة لإطلاق صواريخ الموت ضد آلاف الناس في غرفة "الأحلام". رجل ذو ضخامة مخيفة، ونظرات متوحشة. يخيّل إلى الناظر إليه أنه رجل من العصر الحجري. يكاد يكون الرجل الوحيد الذي وُضِعَ في المكان المناسب. مَنْ يقوى على سفك الدماء وأخذ ما وهبت السماء غير الوحوش؟ مَنْ يقوى على إنهاء حيوات الناس غير ممتلئني القتل؟

قائد الجيش والضباط الثلاثة يرتجفون من شدة الخوف، ولا يفكرون إلاّ في تلك الرصاصة التي ستنتهي كل ما كان، وستنقذ إلى ما سيكون من المجهول. ما هو شعور مَنْ يصنع السلاح وهو يرى الأرواح تُزْهَق بسبب سلاح خرجت فكرة صناعته من رأسه، وتكوّن شكله بين يديه؟ هل يعتقد أنه فعل خيراً للبشرية أم شراً لها؟ أم تُراه لم يجد وقتاً للتفكير إن كانت صناعته خيراً أم شراً؟

اقترب الرجل الذي سينفذ الإعدام وسأل بفضفاضة، مخاطباً قائد الجيش:

- هل يعوزك شيء؟

يا له من سؤال. تُرى ماذا يحتاج الفرد وهو على بعد ثوانٍ من الموت؟ قائد الجيش مصفر الوجه من الخوف، مرتعش الأطراف، أبَحّ الصوت من البكاء، مقوس الساقين من الرعب.

أجاب قائد الجيش بصوت متهدج:

- أولادي وزوجتي.

أوماً الرجل برأسه لأحد الحراس، من أجل استشارة الحاكم في طلب قائد الجيش برؤية زوجته وأولاده قبل إعدامه. خرج الحارس بسرعة.

قال الرجل الذي سينفذ حكم الإعدام بنبرة ساخرة:

- ستراهم بعد قليل إن شاءت لك الأقدار أن تراهم.

لاذ الرجل بالصمت برهة، وراح ينظر إلى قائد الجيش الذي كان يرتجف خوفاً، ويغرق في صمت شديد. فماذا يقول الإنسان وهو في لحظة كهذه؟ صمت يختزن ثورة من المشاعر المؤلمة الصارخة.

واصل الرجل الذي سينفذ الإعدام قائلاً، دون أن ينتظر رد الحاكم على طلب قائد الجيش، ربما لأن الحاكم لا علاقة له بالأمور الإنسانية.

- لكن لا أفصل أن يراك أولادك وأنت في هذه الحالة المزرية. سيشعرون بالكآبة. لقد أذفت لحظة الوداع. قل وداعاً يا دولة السراب العظيمة.

صوت الإنسانية يصدر من حنجرة وحش. كيف ذلك؟ أهو حريص على مشاعر الأطفال أم متلهف للقتل؟

فرت من فم قائد الجيش صرخة مدوية:

- ...

قال الرجل الذي سينفذ الإعدام بطريق سادية:

- اهداً.. لست بحاجة إلى هذا. يجب أن تواجه الموت بهدوء.
- رفع الرجل بندقيته وأطلق النار. طلقات عنقودية تتدافع على جسد يكفيه رصاصة واحدة كي تنهي حياته. جسد قائد الجيش مضرج بالدم، ومنتعة عشق القتل تسري في جسد القاتل.
- كاد الضباط الثلاثة يُغمى عليهم لهول ما رأوا. تقدم الرجل، موجهاً بندقيته نحوهم وسأل بصوت غليظ:
- هل تريدون شيئاً أيها الضباط؟
- لم يطلب الضباط شيئاً، فما حدث لقائد الجيش كان عبرة لهم. أجاب الضابط الأول الذي تحلّى بالشجاعة.
- ينقصنا ثلاث رصاصات تخلصنا من قذارة دولة السراب..
- غضب الرجل فزاده الغضب بشاعة وقال:
- وكيف تجرؤ على قول ذلك عن دولة السراب العظيمة؛ الدولة التي مَنَحَتْكَ شرف العيش فيها.
- سخر الضابط الأول وقال:
- وها هي تمنحني رصاصات قاتلة. إنها لا تهدي شيئاً بسخاء مثلما تهدي رصاصات الموت. لم يبق لدينا ما نخسره. لا يهمننا ما أنتم فاعلون. هيا أطلق النار وأرحنا. إنَّ مرَّ الموت الذُّ من حياة ذليلة في دولة تمتهن الإذلال للبشر.

وجّه الرجل بندقيته إلى الضباط الثلاثة الذين غلّف وجوههم الملح، ثم أطلق النار، فسقط الرجال الثلاثة أرضاً، غارقين في بركة من الدم.

ما أفضّلك وما أقساك أيها الموت! قاسٍ على هؤلاء الذين تنتزع منهم حيواتهم بطريقة مفجعة غامضة، وقاسٍ على هؤلاء الذين يودّعون أحبّتهم بقهر مكبوت ومنفجر في آن واحد. مَنْ هو الذي يؤمن بوهم التفاؤل؟ هذا التفاؤل الذي يكفيه موت إنسان عزيز واحد كي ينسفه نفساً. وما أكثر الموت! وما أكثر الحروب والويلات! فأين أنت أيها التفاؤل؟ أخرج من تحت الأنقاض محتفظاً باسمك؟ ألم يكن كتاب كنديد لفولتير هجوماً شرساً على مبدأ التفاؤل في زمن غرق فيه العالم بالحروب والآلام والفساد؟

ما المتفائلون إلا مجموعة من الموهومين، أو الأغبياء، وفي الحالتين فهم بعيدون كل البعد عن الواقعية، فكما يقول هنريك إبسن: "إن الأديب يجب أن يكون واقعياً، يرى الواقع الملموس، ثم يبنّي خياله على أساسه، ويرى رؤياه من خلال عدسته."

انتهى كل شيء. جاءت زوجة قائد الجيش وأولادها كي يروا مَنْ كانوا يعتقدون أنه في انتظارهم. طفل في الثامنة من عمره يهرول أمام أمه، في سرايب ملطخة برائحة الموت، مغلّفة بالظلام، والأم تمشي وهي تمسك بأيدي طفلها، وتتساءل والربع يسري في جسدها: ماذا عساها تقول

لزوجها في لقائهما الأخير؟ كيف ستسيطر على نفسها في هذه اللحظات الحاسمة والمفجعة؟ ماذا سيقول لها يا ترى؟ أن تهتم بالأطفال مثلاً؟ أن ترحل من دولة السراب؟ أيطلب منها أن تبكيه؟ أم يطلب منها أن لا تبكيه؟ كيف سيكون شعوره وهو في اللحظات الأخيرة؟

غلّفها الحزن والقهر وهي تتوجه نحو غرفة تصرخ بالفجائع. وما أن خرج الرجل الذي نفّذ حكم الإعدام، حتى توجه إليه الصبي الذي سأل:

- أين أبي؟ أريد أن أراه...

نظر الرجل بنظرات خيفة إلى الصبي، فرجع الصبي خطوتين إلى الوراء. تَقَرَّمت قامة الرجل أمام براءة هذا الطفل وإن عَظُمَت. أخذ الرجل نفساً عميقاً وقال:

- أبوك قائد الجيش، أليس كذلك؟

أجاب الصبي:

- نعم.

قال الرجل:

- لقد تأخرت قليلاً. تقرر نقل والدك إلى سجن آخر.

للكذب دوافع عديدة؛ نكذب لأن قول الحقيقة مزعج دائماً، وقاتل أحياناً. في بلد لا تُقال الحقيقة فيه إلا صمتاً، فإن الكذب فيه ينطلق

بصرحات مدوّية، فلماذا كذب ذلك الرجل على الطفل؟ أهو حفاظ على مشاعر الطفل من الصدمة؟ وكيف ذلك وهو الذي كان يُطلّق الرصاص قبل قليل بمتعة؟ أين كانت إنسانيته عندما رفض أن يمنح قائد الجيش فرصة لوداع أولاده؟

هناك استخفاف بعقول من نكذب عليهم، فالكذب هروب، قد يكون شعورياً أو عكس ذلك. والكذب الذي يُقال بطريقة لا شعورية يسميه أطباء علم النفس التبرير المنطقي.

لكن.. كلام الرجل للصبي لم يكن تبريراً منطقياً. كانت كذبة فُكّر فيها، وخطط لها، ثم قالها.

أظلت وجه الطفل سحابة حزن، ثم سأل بنبرة حزينة:

- متى أراه؟

أجاب الرجل:

- غداً أو بعد غدٍ.

كذبة أخرى. هروب آخر. استخفاف آخر بعقل الطفل. ابتسم الطفل وقال:

- أراه غداً؟

هز الرجل رأسه دلالة الإيجاب. ابتسم الطفل ابتسامة يلفها خيبة الأمل، وراح يردد في سرّه: "غداً. غداً. إنه بعيد."

نظرت المرأة إلى وجه الرجل وقد خُيِّلَ إليها أنَّ قُبْحَ العالم كله قد اجتمع في وجهه. كي ينظر الإنسان إلى وجه مغلف بالقُبْح والرعب يحتاج إلى شروذ الذهن كي لا يرى ما يرى. تساءلت المرأة في أعماقها: "ماذا يعني كلامه؟ هل تقرر منح زوجي يوماً آخر في هذه الحياة؟ هل تقرر إعدامه غداً؟ وكيف ذلك وقد استدعوني كي أراه؟ لا أدري لماذا أشعر أن هذا الرجل الذي يحمل صفات وحشية يكذب. هذه هي مفاجآت دولة السراب. إنها تسحب اللقمة عندما تكون على بعد سنتيمتر من فم جائع." قال الرجل مخاطباً المرأة، كأنها لم تسمع ما قال للطفل:

- تقرر نقل زوجك إلى مكان آخر.. أقصد إلى سجن آخر.

استمعت المرأة إلى كلامه والارتياح يلوح في عينيها الخزيتين، ثم قالت:

- ولكن كيف يُنْقَل إلى سجن آخر وقد استدعيتوني كي أراه قبل إعدامه؟

أجابها:

- تقرر نقله بشكل مفاجئ.

سألت:

- ولماذا؟ هل تقرر إلغاء أو تأجيل إعدامه؟ لا أفهم شيئاً. الأمر غامض.

كيف حدث هذا؟ ولماذا؟

أجاب:

- ليس من حقي أن أناقش قرارات الحاكم.

قالت المرأة دون أن تصدق ما سمعت:

- أرى أن الأيام قد اختلط بعضها في بعض.. لا فرق بين أمسنا ويومنا
وغدنا في دولة السراب، وغدت الأيام والسنون والشهور تقسيماً غير
مفهوم للوقت...

قاطعها:

- إنك تثرثرين كثيراً.. لا وقت لدي.

حتمًا، لا وقت لديه، فلديه مشاريع قتل أخرى.

غادر الرجل المكان مرتاح البال، وكيف لا وهو لا يرى في القتل ذنباً أو
جريمة؟

ما أن استدارت المرأة لتعود إلى بيتها حتى ظهر مالك راكضاً. وقف
الشاب عند باب غرفة الإعدام يلتقط أنفاسه. تساءلت المرأة وهي تنظر
إليه باستغراب: "ما باله شاحب الوجه هكذا؟ وما الذي يجعل ابن
الحاكم يأتي إلى هذا المكان؟ لماذا كان يركض نحو تلك الغرفة؟"
هدوء مفنخ بالرب.

ولج مالك غرفة "الأحلام" كما يكتب على بابها، ففرّت من فمه صرخة
احتجاج، ثم بكى. هو الذي تسكنه الريشة وتدقق الألوان، وتسكنه
الأحاسيس المرفهة، يجد نفسه واقفاً أمام بركة من الدم البشري.

سمعت المرأة صرخة مالك فأدركت هَوْل الكارثة دون أن تدركها تماماً.
صدّقت دون أن تريد أن تصدّق. لا يمكن أن يُنفذ الإعدام بهذه الطريقة.
هم استدعوها كي تراه. ولماذا افترّضت أن مالكاً كان يبكي زوجها
والضباط الثلاثة؟ هي الوهلة الأولى لعدم تصديق أمر صادم من شدة
الفرح أو الحزن. يأخذ الإنسان بعض الوقت حتى تأخذ مشاعره
المتداخلة أماكنها الصحيحة. كيف يصدّق الإنسان أمراً ترفض أعماقه أن
تصدّقه؟

نُفّذَ الإعدام إذًا. صعقها بكاء صامت وسط تساؤلات مؤلمة: تراها ماذا
تفعل؟ أذهب إلى تلك الحجرة المربعة؟ ولماذا تقود أطفالها إلى مكان لا
يقوى على رؤيته الكبار؟
ببكائها الصامت.. بحزنها العميق غادرت مكاناً يُهدى فيه الموت بسخاء.

* * *

هي ذلك العشق، ذلك الجنون، تلك الشهوة، تلك الشبقية، ذلك الخروج
على المألوف..

ما أحوج الإنسان إلى الهروب أحياناً من واقع مؤلم إلى لحظات عشقية
تنفّس ما في الأعماق من أحزان، وتشعل فتيل ثورة الرغبة الجامحة.
لحظات هاربة تتسلق شجرة المتعة، تقطف ثمارها اللذيذة..

ثورة الكتّاب الجنونية تندلع على الورقة البيضاء..

ثورة الرسامين الجنونية تُشعلُها لوحة فنية..

وثورة العسكريين والسياسيين الجنونية تُخلِّقها المعارك والحروب.

وأما ثورة العشاق الجنونية تكون في لحظات عشقية مسروقة.

ذات يوم، وفي سيارته المغمومة بالإثارة، جلس مالك خلف المقود، يناجي نظرات عشيقته التي كانت تجلس في المقعد الأمامي. بعيداً عن فضول الناس، بعيداً عن تلصصهم، كانت السيارة تقف على جانب الشارع، فدولة السراب بوحل أحزانها وفجائعها لم تعد تهمّهما. تعنيها تلك اللحظات العشقية المسروقة. هو يعانق اللحظات التي جمعتها، وهي تقبّل الأقدار التي دوّنت موعد اللقاء.

مسك بيديها وقال منفِعلاً:

- اشتقت إليك. أشتاق إليك دائماً. لا أجمل ولا أحلى من لحظات تجمعنا. ابتسمت الفتاة ابتسامة يغلفها الانفعال وقالت:

- مدهش.

كلمتها اختصرت كل الكلمات الجميلة. اختصرت الوقت والمسافات بسرعة البرق. اختبأت في أحشائها رغبة مشتعلة لا تنطفئ. ساد الهدوء والصمت. هدوء مفخخ بالشهوة. اقترب منها. أنفاسه السريعة انفِعلاً تقبّل أنفاسها. شعر برعشة شديدة كما لو لثم فاهها. صمّت عينيها يخاطب صمّت عينيها الطاعنتين في الإغراء. يمرّغ نظراته بنظراتها. رؤوس

أصابعه تتسلق إلى شفتيها اللامعتين، وأنفاسه ما تزال تعانق وتقبّل أنفاسها.. ثم عنقها. هي ترتعش استجابة لأنفاسه الساخنة التي تجتاح مساحة من صدرها، فوق ثدييها.

هكذا أشهى.. أشهى وأحلى..

يُقال إن محاولة الصعود إلى القمة خير من الوصول إليها، لأن الوصول إلى القمة، يليه السقوط.

هذه الرغبة الصاعدة ترفض الهبوط. الهبوط المفاجئ والهبوط الموقوت. إنها آخذة في الصعود حتى تصل هدفها.

يضع للمقدّمات مقدّمات بإتقان..

قبلها ممرّاً شفّتيه بشفّتيها، فشعرت كأنها كرة ثلجية يذّيبها لهيب الرغبة. كم كانت مثيرة شفّته.. كم كان مثيراً صوت أنفاسه. ابتعدت الفتاة قليلاً. لاذا بالصمت محاولين ترتيب الفوضى الداخلية.

أخذ مالك نفساً عميقاً، وقال بعدما أدار محرك السيارة:

- أحبك. أنت جميلة. شفّتك شهيتان.

ابتسمت الفتاة وقالت مذهولة:

- أما زال الحلم حلماً، أم واقعاً؟ ليتني أستطيع أن أحدد ما أنا فيه.. هل

يمكن للحلم أن يرتبط بالسعادة، وأن يرتبط الواقع بالتعاسة؟

أجابها بصوت هادئ وهو يقود السيارة:

- الواقع دائماً تعيس في دولة السراب.

قالت:

- أتعلم أن نابليون بونابرت كان قوياً أمام أقوى الجيوش، وضعيفاً أمام رائحة النساء؟ كان له العديد من العشيقات حتى بعد زواجه.

سألها:

- وماذا تعرفين عنه أيضاً؟

أجابت:

- كان يخشى الكتّاب أكثر مما يخشى الجيوش. لذلك كان يُكرمهم كي يتجنب نقد أفعلامهم.

قال مالك:

- لا أدري كيف اجتمع حبه للنساء وحبه للحروب والمعارك في آن واحد. ربما لأن الحب العميق فيه ثورة وجنون.. أرى ظلماً شديداً هنا ولا أستطيع أن أحتمله. لقد أعدم قائد الجيش وثلاثة ضباط قبل بضعة أسابيع، وقُتِل ضابط رابع في ظروف غامضة. أعتقد أننا يجب أن نتزوج ونرحل من هنا. كم تضيق بي الحياة في دولة السراب...

قاطعته:

- نرحل؟

أجاب:

- أجل.

فسألت:

- ووالدك؟

أجابها:

- شؤون الحكم تسلب عقله، ولا يعي شيئاً غير ذلك. لا يفكر إلا في الحروب والانتصارات. ستتزوج وسيكون لنا عالم آخر. كم أرتطم بالمستحيلات والممنوعات. أفكارى ومعتقداتى تسير فى طرق مغلقة. أشعر بعجز شديد.. يُقال: "إذا كانت الجهالة نعيماً فمن حماقة أن تكون حكيماً."

قالت الفتاة متعجبة:

- سترحل من دولة السراب، وستترك الناس غارقين فى الظلم والاستبداد. هذا دور سلبى، ولا أحب أن أراك سلبياً. الناس هنا فى حاجة إلى من يقف إلى جانبهم ويساندتهم. شعر مالك بالغيرة، وقال متسائلاً:

- لا أدري ماذا أفعل.. هل أرحل أم أبقي؟ هل أقاوم أم أستسلم؟ هل أحب والدى أم أكرهه؟ هل أتكلم أم أصمت؟ لا أدري. أشعر أن الحيرة تُقطّعي إرباً إرباً...

قاطعتها:

- لا تقل ذلك.. أعرفك قوياً، وتستطيع أن تفعل الكثير. لو استغل كل إنسان القوة التي في داخله ووظفها بشكل جيد لفعل الكثير. فقط بالإرادة والثبات تقوى على أشدّ المصاعب.

رد مالك قائلاً بنبرة حاسمة:

- يجب أن نتزوج. وإن لم أترك دولة السراب فسأعيش بعيداً عن القصر.
قالت:

- ولكن الحاكم لن يتركنا وشأننا.
أجابها:

- لا شأن له بي. هو يعيش كما يشاء، ويجب أن أعيش كما أشاء. سيكون زواجنا بعد أسبوعين.

قالت مذهولة:

- أنت مندفع...

قاطعها مبتسماً:

- ومجنون.

أوقف مالك السيارة على جانب الشارع، وقبّل الفتاة. وبينما كان يُقبّلها حضره بيت شعر لابن الرومي:

وألثم فاهها كي تزول حرارتي فيشتد ما ألقى من الهيمنان

غريب ابن الرومي هذا. يأتي إلى العشاق في لحظاتهم الحميمة بيت شعر
صارخ بالعشق والرغبة.

قالت الفتاة:

- مجنون حقاً.

أجابها بعدما أدار المحرك وقاد السيارة بسرعة:

- لا أحلى ولا أجمل من الجنون العشقي.

لاذت الفتاة بالصمت برهة، وراحت تفكر في رأي والدها ووالدتها
بذلك الزواج: "ماذا سيكون رد فعل أبي يا ثرى؟ ماذا سيكون رد فعل
أمي؟ كيف سأقنعهما؟ لا أدري أين ستقودني أحلامي. هل سأرتطم
بجدران الواقع؟ ما الذي يجري؟ لا أستطيع أن أجيب على أي سؤال.
أسئلة معلقة على حبال علامات السؤال. كم أحبك يا مالك، ولكني
أشعر أنني غارقة في بحر من الأحلام. أنا مريضة بك، فكيف ستعالجني؟
ما هذه الدنيا التي تعطينا صناديق مقفلة وتأخذ منا المفاتيح؟ ما هذه
الحياة التي تبسم في وجوهنا، وتطعننا من الخلف بخنجر خيبة الأمل؟
أين نحن؟ أشعر أنني في متاهة تقع بين العقل والقلب. هذه المسافة
القريبة البعيدة بينهما تمرّفتني. مجنونة أنا وغيبية. كيف سارت الأمور في
هذا الاتجاه اللغز؟ لا أدري، لا أدري. تتابني رغبة قوية في فقدان
الوعي، وعدم التفكير. أحبك، أحبك حدّ اللا شعور، حدّ اللاوعي، حدّ

الجنون. وأخافك.. أخافك حدّ الهوس. لا أدري لماذا أشعر أنك كالقلعة المحصنة، لا أستطيع الولوج فيها. لا أستطيع اختراق تحصيناتها وأنت تجلس جوارى. أنتَ قريب بعيد في آن واحد. غائب حاضر أنتَ في الوقت نفسه. ماذا أنتِ فاعلة بنا أيتها الأقدار؟ يقولون لا تيأس، وكل أسباب اليأس تسكننا."

تساءل مالك:

- لماذا أراكِ شاردة الذهن؟

أجابت:

- شرود الذهن حاجة نفسية بعض الأحيان.

سألها:

- أعتقدين ذلك؟

قالت:

- لماذا تسأل وأنت تعرف الجواب؟

مرّت بضعة أيام والتردد والخوف يغلفان الفتاة. ولكن.. كان لا بد أن تخرج من كهف التردد والخوف.

سارت الأمور بسرعة عجيبة، وسارة غارقة في حيرة تعمّقت. أتتكلّم أم تصمت؟ أتفصح عما في داخلها أم تكتّم؟ لكن كيف تصمت والزواج بعد تسعة أيام؟ أن لوالدتها أن تعرف، فلم تعد الأمور تحتلّ الكتان.

جلست الأم، وهي امرأة خمسينية، على الأريكة، وراحت تشاهد التلفزيون، في الوقت الذي خرجت فيه سارة من حجرتها. جلست الفتاة على إحدى الأرائك، قبالة والدتها. كيف ستطلق الفتاة رصاصات الكلمات نحو أم لم تعرف يوماً الخروج على المألوف، ولا ثورة العشاق، ولا العصيان والتمرد؟ أم مدفونة في رماد الهدوء، ومُظَلَّلة بمظلة السّلم.

كيف ستفجر الكلمات صمتَ الفتاة؟

نظرت الفتاة إلى أمها، ثم قالت في سرّها: "ماذا ستفعل أُمّي إن علمتُ بما يجري؟ أتثور وهي مدفونة في رماد الهدوء؟ أتصرخ وتُلقي بمظلة السّلم بعيداً؟ أتفهمني؟ ولكن كيف أبدأ؟ هل أبدأ من النهاية، أم أبدأ من البداية؟ سيصعقها الخبر حتماً. لا أدري.. لا أدري كيف أبدأ. لكنها يجب أن تعرف. لا وقت للانتظار. سأبدأ. يجب أن أبدأ. سأتكلم."

قالت الفتاة بتهيّب شديد:

- أُمّي.

ردّت الأم دون أن تنظر إلى ابنتها، متوقعة أن ابنتها ستقول كلاماً لا يستحق اهتماماً كبيراً.

- ما بك؟

تردّدت الفتاة، ولاذت بالصمت هنيهة، ثم قالت مرة أخرى:

- أمي.

نظرت الأم إلى ابنتها وقالت وقد أحست أن أمراً ما تود الفتاة قوله:

- ما بك. تكلمي.

شعرت الفتاة أن ضربات قلبها تتسارع. كيف ستقول ما تريد قوله؟

كيف ستلقى بالعبوة التي تحمل مفاجأة ناسفة. بعد صمت استمر دقائق

قالت الفتاة بصوت متهدّج:

- أيزعُجك أن أتزوج؟

ابتسمت الأم وقالت:

- ليس قبل أن تُنهي دراستك الجامعية.. أهنأك خاطب؟

غلّف التردد الفتاة. مرة أخرى، ثم قالت بصوت منخفض:

- ربما.

تساءلت الأم:

- ربما؟

هزت الفتاة رأسها وقالت:

- أجل.

سألت الأم:

- تُراه مَنْ يكون؟

غرقت الفتاة في الصمت، وقالت في أعماقها: "هل ستصدق مَنْ يكون؟
أشعر أنها ستطير ذهولاً. واصلت الأم تسأل:

- مَنْ هو؟

أجابت الفتاة بعد تردد:

- شاب جميل جداً...

قاطعتها الأم متعجبة:

- لم أقل لك صفيه. قلت مَنْ هو؟

عادت الفتاة إلى التردد، وقالت في سرها: "آه، ماذا أقول لها؟ المشكلة
تكمن في مَنْ يكون. ابن الحاكم.. كيف سيكون وُقوع هاتين الكلمتين
عليها؟ أخشى أن تفقد عقلها."

سألت الأم:

- ألا تعرفين مَنْ هو؟

أجابت الفتاة:

- ليس الأمر كذلك.

قالت الأم وقد بدأ التوتر يرسم على وجهها:

- أجيبي إذاً.

أجابت الفتاة بخوف شديد، وهي تسترق النظر إلى وجه أمها:

- ابن حاكم دولة السراب.

ضحكت الأم، غير مصدقة ما سمعت، ثم قالت:

- قولي إنك تمازحينني.

أجابت الفتاة بجرأة ملفوفة بالخوف:

- الأمر ليس كذلك.

ضحكت الأم مرة أخرى وقالت:

- خيال الفتيات واسع حقاً في الزواج، وفي الزواج فقط.

قالت سارة:

- الأمر ليس خيلاً، وإن كان يبدو كذلك.

اتسعت عينا الأم من الدهشة وسألت:

- ماذا؟

قالت الفتاة:

- صدّقيني يا أمي. إنه يريد أن يتزوجني.

تساءلت الأم:

- ابن ذلك المستبدّ الظالم؟ حاكم دولة السراب الذي قتل وظلم وعذب

السجناء، وذلّ الطلقاء؟ أيعقل هذا؟ أنا أزوّج ابنتي لابن ذلك المجرم؟

شعرت الفتاة بالخوف وقد رأت ثورة من التساؤلات تندلع في أعماق

والدتها. قالت الفتاة مهدّئة أمها:

- اهدئي يا أمي .

صرخت الأم وقالت:

- أهدأ؟ وكيف ذلك؟ ستقوديننا إلى الهلاك بهذا الزواج.

أجابت الفتاة:

- إنه غير والده. إنه شاب يؤمن بالإنسانية والعدل...

صرخت الأم:

-إنسانية وعدل؟ أين كان والسجناء يقادون كالنعا؟ ماذا فعلت لهم

إنسانيته؟

قالت الفتاة:

- يا أمي اهدئي قليلاً. لا تناقش الأمور هكذا.

سألت الأم غاضبة:

- كيف إذا؟ أجيبي.

قالت الفتاة:

- إنه شاب مرهف الإحساس، بعيد عما يحدث في دولة السراب من

الظلم وفساد وقهر.

لاذت الفتاة بالصمت. لم ترغب أن تُخبر والدتها أن الشاب كان على

خلاف شديد مع والده بشأن السجناء والحروب، خوفاً من أن تجد الأم

ذلك سبباً لرفض الزواج.

عادت الأم إلى ثورتها الجنونية، وقالت كَمَنْ يُهْذِي:

- أوقعتنا في مصيبة، في كارثة. مَنْ يقوى على رفض طلب ابن الحاكم؟
إننا هالكون حتماً.. ولكن كيف رأيته؟ أين؟ ومتى؟ كيف حصل كل
هذا؟ أحدث شيء بينكما؟

أجابت الفتاة:

- لا، لم يحدث شيء. حدثت الأمور مصادفة. كنت يوماً على شاطئ
البحر، أقرأ في كتاب "أصل الأنواع"، فرأيت هناك...
قاطعتها الأم:

- كنت تقرئين "أصل الأنواع"، فإذا بك تتعثرين بأصل الاستبداد
والظلم. ومتى كان ذلك؟
أجابت الفتاة:

- منذ سنة تقريباً.

سألت الأم مذهولة:

- سنة؟ سنة كاملة وأنا لا أعلم شيئاً.. تستحقين الشنق.
وقفت الأم، وتوجهت نحو المطبخ وهي تقول كلاماً لم يصل الفتاة شيء
منه.

أصلحت الفتاة من جلستها، ثم قالت في أعماقها: "الرجال كالكلبات
المتقاطعة؛ فبعضهم تستدلّ عليه من النظرة الأولى، وبعضهم تحتاج إلى

دقائق، وربما ساعات حتى تستدلّ عليه، وبعضهم يستغرقك العمر كله دون أن تستدلّ عليه."

* * *

حرب المحاسبة على الأحلام تنظف شعلتها لصالح دولة السراب..
لا أسوأ من إنسان يجعل معاناة وآلام الناس انتصاراً له، ويجعل من قهرهم وإجباطهم باعثاً لسعادته.

الانتصار الحقيقي هو القدرة على منع وقوع الحرب، وتجنب الناس الألم والمعاناة.

كما في نهاية كل حرب، يجتمع الحاكم وقائد الجيش والمستشار العسكري يناقشون انتصاراتهم بشماتة الشامتين، وفخر المنتصرين..

دخل مالك القصر فوجد المثلث المبتلع، كمثلث (برمودا) الغامض.
الحاكم وقائد الجيش الجديد والمستشار العسكري. كان ثلاثتهم يجلسون بشكل مثلث تساوت أضلاعه.

معادلة ظلم وقهر تكعيبية حلّت ألغازها وغموضها قوة السلاح الفتاكة.
في الحروب، وفي الحروب فقط يتم تشييء الإنسان بطريقة عجيبة، فتختلط أشلاء القتلى بالآلات الحربية المدمّرة. في ساحات الوغى يصبح الإنسان شيئاً. وفي الحروب يصبح الإنسان عنصراً، فيقال: "تمكنت عناصر من الجنود من السيطرة على ذلك المكان".

وقف مالك عند باب حجرته متفجعاً وراح يقول في نفسه: "ما أنتم إلا مجموعة من القتلة، أنتم تستطيعون سفك الدماء والقتل كمن زُينَ له سوء عمله.. لن تغفر لكم عدالة السماء".

دخل مالك في عباءة الذهول والحزن عندما لاحت صورة قائد الجيش والضباط الثلاثة. لم يَرَ في إعدامهم عدالة.

العدالة.. ما هي العدالة؟

تموت العدالة عندما تصل إلى يد الإنسان، وتحيا كلما ابتعدت عنه، لأنه مجبول بالنقص. فالعدالة كمال.. أين هي العدالة في وضع مئات الآلاف من السجناء في سجون دولة السراب دون محاكمة، ودون تهم واضحة؟
شعر مالك بحزن عميق يزلزل أعماقه، لم يدر ماذا يفعل. لم يعد دارياً إلى أين يذهب. أن يعيش الإنسان في عالم لا يوجد إلا في رأسه معناه أن لا يرى أحداً أو شيئاً، ولا يسمع أحداً، ولا يخاطب إلا صمت الأعماق..

الشمس تتوسط كبد السماء كما تتوسط الأحزان كبد جسده. استلقى على سريريه، يلتمس الراحة والهدوء. حاول أن ينام، لكنه لم يَنَمْ. كيف ينام مَنْ يتوسد الحزن؟ كيف ينام مَنْ يلتحف فوضى الأفكار، وثورة الرفض؟
أغمض عينيه ثانية، محاولاً ترتيب فوضى الأفكار، ولكن قهقهات مثلث القهر تسربت إلى أذنيه..

لا نوم، ولا راحة، ولا هدوء..

نظر إلى مسدسه الموضوع على طاولة صغيرة بالقرب من سريره، وشعر
لحظتها أن في ذلك المسدس قوة الخلاص. خلاص شعب دولة السراب
من مثلث القهر والاستبداد. قفز من سريره حاملاً مسدسه. وبينما كان
يهمّ للخروج من حجرته، تسمّر في مكانه وقال في أعماقه: "أنا أقتل؟ إنه
أبي.. كيف أقتله؟ كي أستطيع أن أقتل يجب أن أقتل شيئاً ما في أعماقي.
يجب أن أقتل فكرة رفض القتل. ولكن كيف أقتلها وقوتها تفوق قوة
جسدي؟"

فسقط المسدس من يده على الأرض.

من لا يقوى على القتل بفكره، لا يمكن أن يقوى على القتل بيده.

أن تشيح وجهك عن معاناة وقهر إنسان، معناه أنك خلعت ثياب
الإنسانية.

ظلت معاناة السجناء الذين رأهم تدور في رأسه، تصطدم في صخور
الرفض.

أدرك مالك بعد زيارته الأولى للسجن سبب رفض الحاكم لزيارة
السجناء، والإطلاع على أحوالهم، ففي السجن، كما في أعماق البحار،
الكثير من الخفايا والأسرار، وفي السجن حكايات تكتبها أقلام المعاناة
والألم والاستبداد، على أوراق الرفض المعلقة في فضاء الزنانات.

نحو عتمة سجن "السعادة والبهجة" قاد مالك سيارته، دون علم والده. وهناك تصعقه حكاية سجين قيل إنه انتحر في ظروف غامضة. كان السجين في التاسعة والعشرين من عمره. سُجن وهو في الخامسة والعشرين.

عمل محاسباً في إحدى المؤسسات قبل أن يتم اعتقاله. وعندما سأل مالك عن سبب موت السجين، قال مدير السجن إنَّ السجين خنق نفسه بقميصه الذي كان يرتديه، لأنه عندما وجد ميتاً في زنارته، كان القسم الأعلى من جسمه عارياً تماماً. وقال أحد الحراس إنَّ السجين تناول عشرين حبة من الدواء الذي وصفه له الطبيب دفعة واحدة، فمات على الفور. لم يتلق مالك خبر انتحار السجين دون تدقيق وفحص أو كيفما اتَّفَق.

فاقترب مالك من مدير السجن وقال:

- إن كان قد خنق نفسه بقميصه، فمَن الذي أزال القميص عنه بعد موته؟

أجاب مدير السجن والقلق يلوح في عينيه:

- لا أحد. عندما ذهبت إلى زنارته، كان القسم الأعلى من جسمه عارياً تماماً، ولم أر شيئاً حول رقبته...

قاطعهُ مالك:

- وكيف ذلك؟ إن كان كلامك صحيحاً، فلا بدّ من وجود الأداة التي خنق بها نفسه. أنا متأكد أنك كاذب.

ارتسم الوجوم على وجه مدير السجن لبضع دقائق، ثم قال:

- هناك تفسير آخر. يقول أحد الحراس إن السجين تناول عشرين حبة من دوائه دفعة واحدة.

استاء مالك وقال:

- ما هذا الهراء؟ وهل كان الحارس يقف متفرجاً حتى يعدّ عشرين حبة من الدواء الذي تناوله السجين. قل كلاماً يقبله العقل.. حتى وإن تناول الدواء بهذه الطريقة فلا يمكنه أن يموت على الفور.. ألم يكن بالإمكان علاجه؟

هز مدير السجن رأسه وقال:

- لا، لا يا سيدي. لو كان بالإمكان علاجه لفعلنا، فنحن نهتم بالسجناء اهتمامنا بأنفسنا أو أكثر...

قاطعته مالك ساخراً:

- حقاً إنكم تهتمون بالسجناء أكثر من اهتمامكم بأنفسكم، لذلك مات السجين وعشت أنت. فهذا زمن الأوغاد. يجب تشريح الجثة كي أعرف سبب موته.

أجاب مدير السجن قلقاً:

- لا يمكن يا سيدي، لأن السجين قد دُفِن.

فقال مالك غاضباً:

- دُفِن؟ دُفِن دون أن يُعرف سبب موته، كأن مَنْ مات حشرة حقيرة لا يؤبه بحياتها ولا موتها. يجب إخراج الجثة من القبر لمعرفة سبب الموت.

فأجاب مدير السجن:

- لن يوافق الحاكم على أمر كهذا.

لم يتمالك الشاب أن صفع مدير السجن وقال غاضباً:

- هذه المرة لا تقلّ إنك ضُربت دون أن تعرف السبب، فالسبب واضح

أمامك. الاستهانة بحياة الناس. أوجد أقوى من ذلك السبب؟

مات السجين ودُفِن ولم يعرف مالك أن السجين قد عُدّب حتى الموت.

ومع أنه لم يصدق كلام مدير السجن حول سبب الوفاة، إلا أنه لم يجد

إجابات على أسئلته.

في السجن يُمارس التعذيب بفنون..

توجه مالك إلى زنزانة عمر. كان عمر يجلس على الأرض، وفي يديه قطعة

منحوتة من الخشب، وأمامه بعض لوازم النحت الخشبي. حتى في أكثر

الأماكن فراغاً يجد الإنسان شيئاً ما يُشغله..

وقف مالك محققاً بالقطعة الخشبية بين يديّ السجين. أما عمر فلم يشعر

بوجود ابن الحاكم الذي كان يقف عند باب الزنزانة، ففي أصعب

الأوقات يومض بريق ما، ينير عتمة المكان. شعر مالك أن ذلك السجين ذو همّة ونشاط دائم، يُنير عتمة المكان بالفن، فالفن الحقيقي يمحو العتمة بممحة الإبداع.

أمر مالك السجن أن يفتح باب الزنانة، ففعل، ثم توجه نحو عمر مبتسماً. جلس مالك قبالة، متأملاً القطعة الخشبية، التي أخذت شكل رجل يرفع يديه بشكل احتجاجي. ابتسم مالك وقال:

- إنك فنان. يُعجبني شكل هذه القطعة الخشبية، وأشعر أنها تنمّ عن معان عديدة، كالاحتجاج والرفض، أليس كذلك؟ انطلقت من صدر عمر آهة عميقة وقال بصوت هادئ:

- إنها وسيلة للتفريغ، أو قُلْ لإهدار الوقت. أحتاج إلى شيء يسليني كي لا أشعر بمرور شعاع الوقت الذي لا ينكسر إلا بالموت. كل الأيام تسير في خط مستقيم، لا نَمِيز، نحن السجناء، تقسيماتها. أتصدق يا سيدي أنني لا أذكر أي يوم هذا.

حزن مالك وقال بابتسامة شاحبة:

- الأحد.. ولكن هل تشعر أن قطعة خشبية بشكلها الحالي تفرّغ أعماقك؟

أجاب عمر بذكاء:

- أتصدق يا سيدي أن قلماً لا يتجاوز طوله بضعة سنتمترات يمكنه أن يفرّغ، وينفض أعماق إنسان؟ إن هذه كذاك.

أعجب مالك بجواب عمر، وقال:

- الحياة قصيرة، ونحن نخطف اللذة والمتعة خطفًا، كما قال برنارد شو. أتعرف من هو؟

لم يدر عمر لماذا تحدث مالك عن برنارد شو في وقت كان يتحدث فيه عن الفن.

أجاب عمر بعد صمت:

- فيلسوف إنجليزي. درست عنه، وعن فلاسفة آخرين. أنا حاصل على دبلوم في الفلسفة. أذكر عندما كنت في السابعة عشرة من عمري، وذلك قبل دخولي السجن، حكاية رجل ناهز الأربعين. كان الرجل متقد الذكاء، عظيم الثروة، متعمقاً في العلم. كانت تربطه بوالدي علاقة صداقة. لا أدري لماذا شعرت برغبة شديدة في التحدث معه. لأنه كان غامضاً، أم ودوداً، أم محباً للعلم في بلد دُفن فيه العلم؟ قررت أن ألتقي به، فكان اللقاء. أخبرني أنه جاب بلاداً عديدة، وقال لي: "زرتُ بلاداً كثيرة يا عمر، وقد وجدت شراً كبيراً في هذا العالم. إني أتساءل: هل الإنسان مسوق وراء الشر بدوافع لا سيطرة له عليها؟ وإن كان الأمر كذلك، فما معنى العقاب؟ هل هناك صراع حقيقي بين الخير والشر؟

وهل يخضع الخير والشر للنظرية النسبية؟ أسئلة كثيرة أتعبتني، تقف أجوبتها صامته. كنت مانوياً قبل أن أزور تلك البلاد، والآن فأنا أشعر بالحرية. "سألته: ما المانوية؟ أجاب: "مذهب يقول إن الخير والشر يتساويان قوة فيتنازعان الكون. أين مذهب المانوية في زمن يسود فيه الفساد والقتل والدمار والحروب والاستبداد؟ إن الإنسان مخلوق معقد التكوين من حيث دوافعه وسلوكه وتفكيره، متناقض بطبيعته، مسير في كثير من تصرفاته. وإن كان الأمر كذلك، فأين دور العقل؟ الإنسان محاط بهالة غريبة عجيبة. تارة أتساءل عن سبب الموت، وتارة أخرى لا أجد سبباً لحياة يسودها الظلم والقهر والحروب. ما أن يتأمل الإنسان النهاية حتى يشعر ويدرك تفاهة البداية. ما أن يدرك ديمومة الصمت الداخلي حتى يجد عبث الكلمات. ما أن يغوص في ظلام لا نهائي حتى يُصعق بوهم النور. ليتني أجد ما أبحث عنه. ليتني ألقى الحلقة المفقودة لأجوبة أسئلتني، وسأكون سعيداً ببقائها. "ثم راح يقول كلاماً لا تستطيع قدرة العقل إدراكه، كلاماً ذا أصوات غريبة، طرق مسامعي بلا عذوبة ولا تناغم، قشوراً خلت من لبّها.

عزف ذلك الرجل عن الزواج، لأنه لم يرَ في أية امرأة شيئاً من المغريات، وأما السبب الأهم لعزوفه عن الزواج هو أنه اعتبر الزواج مرحلة معقدة جداً من حياة الإنسان، فحياة الإنسان بالغة التعقيد في الأصل، ولا

ينقصها مزيد من التعقيد. وقال أيضاً إن العدل بين البشر وهم يوهم الإنسان نفسه به. لا عدل في الحكم. فالأب حاكم في بيته، والحاكم حاكم في دولته، والمدير حاكم في مؤسسته أو مدرسته، والمعلم حاكم في غرفة صفه. العدل قيمة سامية عالية، لا يمكن للفرد أن يبلغ مبلغها، ولا يمكن للعقل البشري أن يرتقي إليه. وقال أيضاً إن الإنسان مخلوق غريب في كل بيئة يوجد فيها، فلا يمكن أن تجد تشابهاً حد التطابق بين معتقدات وتفكير شخصين مهما كانت العلاقة قوية بينهما، وهذا ما يجعله غريباً عن هؤلاء الذين يحيطون أو يرتبطون به. يسكن في الإنسان غربة داخلية لا تنضب، وهذا ما يفسر رغبة الإنسان في الاختلاء بنفسه بعض الأحيان، ففي داخل كل إنسان أفكار ومعتقدات تفهمها، وتحللها أعماقه فقط.

قال لي أيضاً إنه قرأ ملحمة "جلجامش" البابلية القديمة أربع مرات، وصعقه ما جاء فيها. كان متديناً دون أن يرتدي ثياب التدنّ، سياسياً دون أن يدخل كهف السياسة، متحدّثاً لبقاً دون أن يطرق باب الكلام تماماً.

قال مالك متعجباً:

- إنه رجل لغز.

قال عمر:

- وسافر الرجل إلى الصين، وعاش فيها ثلاث سنوات، ثم عاد إلى دولة السراب. أخبرني أنه أعجب بالحضارة والثقافة الصينية، واعتقد الرجل أن الأمم لا يمكنها أن تتطور وتزدهر إلا بحرية الفكر. كيف يمكنك أن تحرّر فكراً قتلته سياط الصمت؟ لم أكن أفهم كل كلامه، لأنني كنت في السابعة عشرة عندئذ، لكن كلامه كان يضعني على علامات السؤال.

قال مالك:

- الشر سائد في كل مكان.

أجاب عمر:

لست على صواب في هذا...

قاطعه مالك:

- وكيف ذلك؟

أجاب عمر:

- لو كان الشر سائداً في كل مكان، لما كنت أنت يا سيدي.

ابتسم مالك وقال:

- لا تقل سيدي، فأنا أجلس قبالتك، ولا أرى فرقاً بيننا سوى المعرفة الهائلة التي تدركها أنت ولا أدركها. لقد تعلمت منك الكثير، وأكن لك احتراماً وتقديراً شديدين. أودّ أن أسأل إن كان الخير والشر نصفين متساويين.

أجاب عمر بصوت هادئ:

- لا يمكن أن يقاس الأمران هكذا. هذا موجود وذاك موجود، ولا تستطيع أن تنكر أيًا منهما.

هز مالك رأسه إعجاباً وقال:

- أنت مفكر وعظيم يا عمر. ويؤلمني، ويذهلني أنك قضيتَ عشرين عاماً في هذا المكان البائس.. سأزورك دائماً. أتمنى أن تكملَ لي حكاية ذلك الرجل. ليتني أستطيع أن أفعل شيئاً لأجلك، كي تخرج من هذا المكان. اعترف أن هذا المكان ليس مكانك. مكانك هناك، بين هؤلاء الذين ضُعِفَتْ وماتت عقولهم، وعُظِّمَتْ وتحركت أجسامهم، حتى تصلح ما أفسده الدهر. أرى فيك مصححاً اجتماعياً وسياسياً.

رَبَّتْ مالك على كتف السجين عمر وأردف يقول:

- سأزورك قريباً.

لاذ عمر بالصمت هنيهة، وقال في نفسه: "لا أدري لماذا تتدفق الكلمات وأنا أتحدث معك. منذ رأيته قررت أن لا أقول كل ما أعرف، ولكن إنسانيته تستنطق صمتي."

وقف مالك، وخرج من الزنزانة، ثم نظر إلى الحارس الذي أغلق الباب وقال ساخراً:

- يُسَجِّنُ النور، ويُتْرَكُ الظلام طليقاً، لأن كل شيء في دولة السراب على أحسن حال.

ذهب مالك.

شعر الحارس بالذهول لما رأى وسمع، إذ كيف يقضي ابن الحاكم هذه المدة في تلك الزنزانة؟ وكيف يجلس على الأرض قبالة ذلك السجين يتحدث معه، ويستمع إلى حديثه؟ أيعقل أن يتصرف ابن الحاكم هكذا؟ حقاً، إن الأمور في دولة السراب لا تخضع إلى العقل والمنطق.

obeikandi.com

الفصل الخامس

غدت مساعدة السجناء، ولو بالكلام، هدفاً له..

كي يخلع الإنسان عباءة صمت دافئة، ويرتدي برد وصرير رياح الاحتجاج والرفض يحتاج إلى الشجاعة، إلى جنون الثورة، وإلى جنون المغامرة.

في حجرته التي تحتضن ثورة أعماقه، جلس مالك متأملاً ما يحدث في دولة السراب، وعبث الحروب، والانتصارات الجوفاء التي يتباهى بها الحاكم. استحوذت عليه فكرة العدالة والمساواة بين الناس، واعتبرهما أمرين هامين يجب تحقيقهما كي تسود السعادة، واعتبر حياة الإنسان أمراً مقدساً، وحقاً، يجب عدم المساس به، وآمن بوجود إلغاء عقوبة الإعدام في دولة السراب، فلا إنسانية في الإعدام. الإعدام هو أن يفترس الإنسان

الإنسان. ولكن كيف يخترق كل الحواجز المفخخة باليمنوع، والمحاطة بأسلاك الحظر المكهربة، كي يحقق أهدافه؟

لقيادة ثورة، يحتاج الإنسان إلى التخطيط والمغامرة والسلاح، ولاستئصال استبداد ذي جذور طويلة ممتدة، يحتاج إلى ثورات عنقودية.

بغضب يموج على شواطئ عينيه، دخل حاكم دولة السراب حجرة مالك، وجلس على كرسي فخم ذي مقعدين.

قال الحاكم بنبرة ساخرة:

- العاشق الوهّان.

نظر مالك حوله، وقد خال أن والده يخاطب شخصاً آخر. ثم استقرت الكلمات في رأسه بعدما انقشع ضباب الأخيلة.

أخذ الشاب نفساً عميقاً، وقد شعر بقليل من القلق، وسأل بصوت متهدج:

- ماذا تقصد؟

أجاب الحاكم:

- تعرف ماذا أقصد. لا تروك الحياة الفخمة الرخية التي تعيشها، وتستطيب نزوتك مع فتاة من عامة الناس. لا تروك حياة النبلاء والأمرء. أنسيّت مَنْ أنت؟

حاول مالك أن يجيب، ولكن والده حدّجه بنظرة أسكتته. وأردف الحاكم يقول:

- تعيث في دولة السراب فساداً. غضضت بصري عن أخطائك كثيراً. والآن أزفت ساعة الحساب. هذه الفتاة تريد أن تتسلل إلى قصري ونفوذني كاللصوص، وأنت تسهّل لها المهمة.

لم يتمالك الشاب أن قام واقفاً وقال:

- الفتاة التي تتحدث عنها بسيطة جداً، وهي لا تفكّر هكذا.

اشتد غضب الحاكم وقال بفظاظة:

- لا تقل شيئاً، واجلس. أنا أعرف النساء جيداً.. لن تتزوج الآن.

جلس مالك، وقال محتجاً:

- أنت تزوجت وأنجبت...

قاطعهُ الحاكم:

- أنجبت؟ ليتني لم أفعل. أنجبتُ شاباً يتسكع في الشوارع والأزقة

والحدائق العامة مع فتاة من عامة الناس. أنجبتُ شاباً يشكل خطراً عليّ

وعلى دولتي أكثر من أعدائي. أنت عار عليّ. طيشك سيدمرني، وأنت لا

تعني العواقب.

خيّم الصمت في المكان دقائق، وراح مالك يفكّر في كل الاحتمالات؛ احتمال إلحاق الأذى بالفتاة، واحتمال إلحاق الأذى به، واحتمال نفس زواجه من الفتاة.

شعر الشاب بالقلق على الفتاة، فهو يعرف والده جيداً؛ لا يتردد في فعل أي شيء من أجل الحفاظ على النفوذ والحكم. في تلك اللحظة شعر مالك بقلق شديد على الفتاة يفوق القلق الذي شعر به على نفسه، وما يمكن أن يحدث له. لكنه ما لبث أن طمأن نفسه عندما عصفت بذهنه فكرة أن والده لن يكون بهذه القسوة عليه وعلى الفتاة، فهو ابنه الوحيد، ولن يطاوعه حنانه على أن يُلحق بابنه الأذى، وستكون يد حنان الأبوة أقوى وأشد من يد الانتقام وإلحاق الأذى. وما أن طمأن نفسه بهذه الكلمات، حتى عاد إلى قلقه، حتى عادت أمواج الأفكار تتلاطم في رأسه، وأما البحر في أعماقه فيهدأ قليلاً، ثم يثور ثانية بعنف شديد، مخلفاً شعوراً بالفوضى والدمار والضياع.

كيف يُقنع عقلاً لا يفهم إلا لغة القتل والدمار بحب لا يفهم إلا لغة الحياة والبناء؟

كيف يُقنع قلباً مجبولاً بشراسة الحروب وعنفها، بعاطفة الحب الرقيقة؟ الجبروت والحب يتنافران، ليس بينهما جاذبية.. وبين تأرجحه بين رغبة والده ورغبته، شعر مالك بضياع شديد، لا أمل في نهايته. وفجأة خطرت

ببإله فكرة اللجوء إلى إقناع والده بموقفه، بدلاً من المشادات الكلامية. تنهد مالك، ونظر إلى والده وقد برق الرجاء في عينيه الحزيتين، ثم قال: - دعني أعيش كما أريد. أنا لا أشكل خطراً عليك كما تقول، لأنني أحبك، ولا أستطيع أن ألحق بك الأذى. إذا كانت معتقداتي وأفكاري تختلف عن معتقداتك، فلا يعني ذلك أنني لك كاره. أحب هذه الفتاة، وأحسستُ بحبها العميق اتجاهاً. قلبي ينبض بحبها، فلا تقتل حباً عميقاً، وتكون لقلبي قاتل...

قاطعها الحاكم وقال بنبرة حاسمة:

- عشقك كهذيان المجانين. لا تع ما تقول. إنك لا ترى نفسك وأنت تتحدث عن فتاة إن ارتبطت بها ستكون مصيبة كبرى، وإن أنجبت منها ستكون المصيبة أعظم. إني أمرك أن تتحلل من علاقتك بها، وأن تعود إلى رشدك. غرامك الطائش سيدمرّك وسيدمرني. وإن كانت لديك رغبة في الزواج، فاترك الاختيار لي. زواجك، وإن يبدو لك شأناً خاصاً بك، فهو ليس كذلك عندما تكون ابن الحاكم. أنسيّت مَنْ أنت؟

أجاب مالك مستاءً:

- المصيبة أنني غير ناسٍ.

غرق الشاب في الصمت، وقال في سره: "لا جدوى من الإقناع، ولا جدوى من الرجاء، فهذا الحاكم لا يعرف للمشاعر طريقاً. يجب أن يثور

البحر حتى تخرج كل خفاياه. يجب أن تهب العاصفة، محدثة الدمار، كي
تخور قواها فتهدأ.

نظر مالك إلى والده بنظرات حزينة، وعدم الرضا يتأجج في صدره. في
تلك اللحظة، تاق لأن يبتعد عن ذلك القصر الذي لا يحتضن إلاّ
الذكريات البائسة. الرغبة التي تصطدم بجدران الرفض. نظر الحاكم إلى
مالك وهو موجس من أن ابنه قد ارتكب حماقة معاشرة الفتاة معاشرة
الأزواج.

قال الحاكم:

- أعلم أن تصرفاتك غير مسؤولة. أخبرني بصدق. أتعاشر الفتاة معاشرة
الأزواج؟ أنا على يقين من أنك تضاجعها.

سقطت عناقيد الكلمات من فم مالك، وتناثرت حروفها، كما تسقط
عناقيد العنب. كيف يخبر والده أن الحب الذي يكون هدفه الاتصال
الجسدي فقط ليس حباً، إنما رغبة متوحشة؟ إن الذي بينه وبين الفتاة
حب عميق مسيَّج بالشهوة. قد يعتقد البعض أن الاتصال الجسدي يطفئ
شعلة شمعة الحب.

أجاب مالك:

- لا أعاشر فتاة أحبها معاشرة الأزواج قبل أن أتزوجها. هذا مبدأ ثابت
عندي. أنت واسع الشك...

قاطعہ الحاکم:

- الشک أساس التفكير، والوجود. ألا تعرف القول الشهير: "أنا أشك، أنا أفكر، فأنا موجود."

قال مالك:

- قول ديكارت. الشك المؤقت الذي يؤدي إلى اليقين. ولكن أود أن أعرف شيئاً. لماذا لم تتزوج بعد موت أمي؟

ابتسم الحاكم ابتسامة ساخرة، ثم قال جاداً:

- النساء في رأيي مخلوقات قليلة الشأن، لا حاجة لي بها.

تعجب مالك من كلام أبيه، وقال:

- اعتقدتُ أنك لم تفعل ذلك بسبب إخلاصك لأمي.

أجاب الحاكم:

- تكاد لا تجد رجلاً واحداً في هذا العالم يخلص لزوجته على قيد الحياة،

فكيف ستجد رجلاً يخلص لزوجته ميتة؟ واهم أنت. في الوقت الذي

يكون فيه الرجل يمارس الحب مع زوجته، يكون قلبه ينبض بحب امرأة

أخرى. وفي الوقت الذي تكون فيه المرأة تمارس الحب مع زوجها، يكون

قلبها ينبض بحب رجل آخر. أتدري لماذا؟ لأن الإنسان يملّ المؤلف،

وفي داخله رغبة دائمة في التجديد واكتشاف ما هو غامض. لا تتعجب

من هذا الكلام، فهذه الطبيعة البشرية. الإنسان متناقض بطبيعته، ولا

يمكن السيطرة على تناقضاته إلا بطحنه. تستهويني المرأة الغامضة
بجاذبيتها، ذات التفكير المعقد كالمفكرين، ولا تستهويني المرأة ذات
التفكير العادي، وإن كانت جميلة. ألا تستغرب أن لا يرتبط الفكر باسم
المرأة، فتجد رجلاً مفكراً، وتكاد لا تجد امرأة مفكرة.

قال مالك متعجباً:

- أنت تبحث عن العقل في دولة أنت تقتل العقل فيها. حتى نابليون
الذي كان مجبولاً بحب الحروب والقتال، كان ضعيفاً أمام النساء.

قال الحاكم:

- لذلك هُزم ونُفي إلى جزيرة سانت هيلانة في جنوب المحيط الأطلسي.
لا يعرف القوة مَنْ يتأبط ذراع امرأة. القوة والمرأة لا تلتقيان.

تنهد مالك وقال:

- ما أروع أن يجد الإنسان امرأة يحبها وتحبه. الحب حاجة جسمية ونفسية
لا يقوى الفرد على مقاومتها...

قاطع الحاكم ساخراً:

- وأنا لا أتعجب من كلامك وأنت العاشق الوهان.. والآن يا نصير
السجناء والمستضعفين في الأرض، كيف بدت لك السجون التي تزورها
بين الحين والآخر؟ السجناء بدوا لك أنساء. ألا تتحجل من نفسك وأنت

تجلس على الأرض مع هؤلاء المجرمين؟

أجاب مالك بنبرة حاسمة:

- ليسوا مجرمين، بل مضطهدين. أعدمت قائد الجيش والضباط الثلاثة بغير حق، ودون محاكمة. أعدموا فقط لأنهم فكروا بنشر العدالة في دولة السراب. لا يحاسب الإنسان على تفكيره، وإنما على أفعاله. أنا أعاطف مع السجناء.. تعاطفي معهم لا يعني أنني أحرص السجناء ضدك. قال الحاكم بنبرة غاضبة:

- أكنت تريدني أن أنتظر حتى يجعلوا عالي دولة السراب سافلها؟ أنت معتوه، مأفون، لا تعي ما تقول. أنت ضعيف وستبقى ضعيفاً. ألا تدرك قول فريدريك نيتشة: "إن بين البشر ضعفاء يستحقون الفناء، كما أن بينهم أقوياء يستحقون البقاء." أجاب مالك:

- إذا كنت تعتقد أنني معتوه ومأفون، فلماذا تحاسب معتوهاً على أفعاله؟ ولا أعتقد أن نيتشة عندما تحدث عن الضعف كان يقصد ما تقصد. متى كانت مساندة ومؤازرة المضطهدين ضعفاً؟

استشاط الحاكم غضباً، واقترب من ابنه وصفعه بقوة، ثم قال:

- أوقن أنك تتآمر عليّ مثل هؤلاء المجرمين ومثيري الفوضى السياسية. أنت ترجو ودّهم لأنك سيء مثلهم، بل أسوأ منهم.. لا مكان لك في هذا القصر.

أومض برق الحقيقة، واتضحت الصورة أمامه. حاكم تشتعل نيران الظلم والاستبداد في أعماقه. نيران لا تنطفئ. لم يعد مالك قادراً على أن يحتمل ما يجري في دولة السراب. فالظلم السائد، ورفض الحاكم لعلاقة مالك بالفتاة، ومنعه من التعاطف مع السجناء السياسيين الذين زجوا في السجن، دون محاكمة، أو تهمة واضحة ضدهم، كل هذه الأمور جعلت ثلوج الأمل بالتغيير نحو الأفضل تذوب أمام عيني الشاب. اتضحت الصورة القائمة. هدأت رياح التغيير، ثم ماتت. ظل مالك غارقاً في صراع عنيف مع ماضٍ مشؤوم سادته الظلم والاستبداد، ومستقبل لن تعصف فيه رياح التغيير نحو الأفضل. بحزن عميق، وقف مالك واضعاً يده على خده الأيسر، الذي احمر من الصفعة التي تلقاها، وحدج والده بنظرة يلوح فيها خيبة الأمل ممزوجة بالتحدي. لن تهدأ عواصف الحزن ما دام الشاب مقيماً في ذلك القصر، فآثر أن يبتعد. سيأوي إلى مكان يعصمه من طوفان الظلم والاستبداد.

تقدم مالك قليلاً، وقال بصوت هادئ ممزوج بالحزن:

- خير لك ولي أن أذهب.

أجاب الحاكم غاضباً:

- اذهب حيث تشاء، ولكن ابتعد عن السجناء. لا شأن لك بهم.

أفهمت؟ ابتعد عنهم وإلا لا عاصم لك من بطشي وجبروتي.

خرج مالك من الحجرة، وهو يسمع الحاكم يقول بصوت عالٍ:
- ابتعدْ عن السجناء، فأنت تزيدهم فساداً. ابتعد عنهم وإلاّ أمرتُ
باعتقالك، ولن أتردد في ذلك.

وما أن خرج مالك من القصر الكبير، حتى تنفس الصعداء، لتركه ذلك
المكان الذي يعصف برياح الشؤم وخيبة الأمل، ولابتعاده عن القيود،
وإصراره على الزواج من الفتاة التي أحبها.

مشى الشاب في ممشى طويل يؤدي إلى الشارع، وهو يشعر بسعادة يطفو
على سطحها الحزن كما يطفو الزيت على سطح الماء، فشعر بالسعادة، لأنه
اعتقد أنه سيتحرر من القيود، وشعر بالحزن لأن الأمور بينه وبين والده
آلت إلى ما آلت إليه. لم تكن لديه الرغبة في أن يخوض صراعاً فكرياً
وعقدياً ضد والده، ولكنه وجد نفسه مرغماً على خوض صراع كهذا. في
أعماقه، تمنى مالك أن يستجيب والده إلى مطالبه، ولكن الغام الواقع
غالباً ما تنسّف جبال الأمانى الشاهقة.

ما أن وصل إلى نهاية الممشى، حتى استدار ونظر إلى القصر بعينين لاحت
فيهما حيرة تتدثر بالتردد. أيعود إلى القصر، ويحاول إقناع والده مرة
أخرى؟ أم يبتعد ويعيش كيفما يشاء؟

لكنه سرعان ما أدرك عبث العودة إلى القصر، وعبث الرجاء والإقناع،
فالحاكم لا تطاله يد الإقناع، وقراراته لا تراجع عنها.

أدرك مالك أن لا مفرّ من مواصلة السير إلى الأمام، دون الالتفات إلى الوراء، إلى ذلك النور المظلم، إلى ذلك المكان الذي انتشرت فيه ألغام الاستبداد والقهر.

وأخيراً أخذ قراره. لا عودة إلى ذلك القصر، يجب المضيّ قدماً نحو تحقيق أهدافه.

قاد مالك سيارته، وتوجه إلى أحد البنوك، وسحب مبلغاً من المال، ثم اشترى طعاماً وملابس للسجناء. لم يكن في تحذير والده من زيارة السجناء ما يثنيه عن زيارتهم والإحسان إليهم.

وصل مالك سجن "السعادة والبهجة" الساعة الرابعة عصراً.

شعر أن صمت السجناء يناديه، وصمت السجن يخلّق حوله. كان مالك يفكر في كيفية اختراق صفوف الحراس في السجن، لأنه خشي أن يعلم والده بزيارته للسجناء. لم يشعر مالك بالقلق على نفسه، وإنما خشي أن يأمر الحاكم بنقل عمر إلى مكان مجهول، فالحاكم، الذي ما انفك يحذر ابنه من الاختلاط بالسجناء السياسيين، لن يتردد في نقل عمر إلى مكان آخر، مفوّتاً على مالك فرصة التحدث والتعاطف مع السجن.

تساءل مالك، وهو يقترب من زنزانة عمر حاملاً أكياس الطعام والملابس، كيف يضمن صمت سجن يتكلم ويصمت بالضغط على أزرار الكلام والصمت؟ حارس كالألة تحركه بطاريات الأوامر التي تأتي

من القصر. هل يكون الكذب كذباً إذا كان في سبيل إنقاذ حياة إنسان؟ وهل تُعتبر الرشوة رشوة إذا كانت من أجل رسم ابتسامة على وجه إنسان يلقّه البؤس والحزن؟ ثمّة أجهزة لا تعمل إلاّ بالنقود، كذلك السجّان الذي يقف عند باب زنزانة عمر، فهذا زمن عجيب يُشترى فيه كل شيء تقريباً. يُشترى فيه النجاح، والجدارة، والاحترام، والشهرة، والنفوذ، والصمت، والكلام. المال لغة تفهمها جميع الشعوب، وتنحني أمام قوتها الرؤوس.

أخرج مالك بعض المال من جيبه وأعطاه للسجّان الذي تحركت لواعج الطمع والجشع في داخله. وضع السجّان المال في جيبه مذهولاً.

عندما يفعل الإنسان شيئاً لا يؤمن به، يشعر بعدم الراحة، وهكذا شعر مالك بعدما أعطى المال إلى السجّان، ولكنه كان سيُشعر بألم أعمق إن هو مُنِع من مساعدة السجّناء والتعاطف معهم.

سأل مالك حتى يطمئن على سرية الأمر:

- أين الحراس؟

أجاب السجّان والدهشة ترسم على وجهه:

- يوجد عدد كبير من الحراس في نواحٍ أخرى سيدي.

قال مالك بعد صمت:

- افتح الباب، ولا حاجة لأن يعلم أحد أنني جئت إلى هنا.

قال السجان وقد أدرك أنّ لدى ابن الحاكم شيئاً يخفيه:

- أمرك يا سيدي.

ففتح السجان الباب والذهول يغلف وجهه، والتساؤلات لا تنفك تطارد أجوبة هاربة: "ماذا يفعل هذا الشاب؟ لماذا يتصرّف كالمجانين؟ لم أر مثله قط. غريب الأطوار حقاً هذا الشاب.. يأتي إلى السجن محملاً بأكياس للسجناء. لا بدّ أنني أحلم. إنه لمجنون بلا ريب. أهذا ابن الحاكم؟" دخل مالك الزنزانه، والسجان يتمتم، كأنه يحدث نفسه. كان عمر نائماً، متوسداً بؤس المكان، وملتحفاً صمت الجدران. صمت ينطق صمتاً. جلس مالك على الأرض، ووضع أكياس الطعام والملابس أمامه، ثم تأمل السجين، الذي كان يغط في نوم عميق.

النوم..

نعمة النوم.. إضافة إلى أن النوم حاجة فسيولوجية حيوية، فهو حاجة سيكولوجية أيضاً. كم من الهموم والأحزان تنام بنوم الأجساد التي تحملها، ويطفئ الصمت والسكون لهيبها المحرق. كم من الآلام يوارىها صمت النوم، كما يوارى التراب الجثث. شعر مالك بأن شعب دولة السراب بحاجة إلى النوم ثمانٍ وأربعين ساعة كل أربع وعشرين ساعة، لفرط القهر والظلم اللذين يسكنان في أعماقه. مسألة حسابية عجيبة.

النوم لمدة ثمانٍ وأربعين ساعة كل أربع وعشرين ساعة.

في وقت من الأوقات، يكون الإنسان بحاجة فيه إلى اللا شعور، إلى اللاوعي، كي يحافظ على ذلك الجزء البسيط المتبقي من عقله. يستيقظ من نوم عميق، فيشعر برغبة شديدة في أن يغط في نوم أعمق، كَمَن يهرب من النوم إلى النوم.

يا لرحمة السماء التي أهدتنا النوم.. أعطتنا إياه مجاناً في زمن الأسعار والثلثين..

وضع مالك يده على كتف عمر، وقال بصوت هادئ والابتسامة تنتشر على وجهه:

- أنا هنا يا عمر.. أحضرت لك بعض الطعام والملابس.

نهض عمر، وفرك عينيه الحمراوين، وقد أضاء وجهه بفرحة المفاجأة.

نظر عمر إلى أكياس الطعام والملابس الموضوعة أمامه وقال:

- إنك تتعب نفسك كثيراً من أجلنا يا سيدي.

كان في عمر شيء يثير الإعجاب. ربما ابتلاعه الآلام والقهر لمدة عشرين

سنة بهدوء، وبذلك الابتسامة التي يطفو على سطحها ألم الماضي والحاضر.

وربما ثباته على مبادئه ومعتقداته على الرغم من عواصف الاستبداد،

وأمطار الذل التي لا تتوقف عن الهطول في دولة السراب، وفي سجونها.

وربما لأنه رجل معرفة. أو ربما بسبب الأمور الثلاثة مجتمعة.

أصلح مالك من جلسته، وقال بابتسامة مشرقة جذابة:

- لا تقل سيدي، فأنا لست سيدك.

أشار مالك إلى الطعام وأردف يقول:

- هذا الطعام لك، والملابس أيضاً. أنت جائع بالتأكيد. فأنا أعلم أنهم يقدمون لكم الفتات.

ابتسم عمر، واعتلى وجهه هدوء نائر، وقال:

- لسنا هنا كي نأكل ونعيش. نحن هنا كي نموت من القهر الذي تغلفه سرية تامة يا سيدي.

غرق مالك في الصمت من شدة التأثر والحزن. قدرة الصمت على التعبير أحياناً تفوق قدرة الكلمات الصارخة. لحظتها حضر مالكا قول الشاعر الذي قال:

وإذا نطقْتُ فإن نطقي جارح وإذا صمتُ فإن صمتي قاتلُ

شعر مالك برغبة في اختراق أعماق هذا السجين؛ رغبة في اختراق صمته وكبريائه وغموضه.

سأل مالك، وهو لا يتوقع ردّاً سريعاً على سؤاله:

- أعشت يوماً في حياتك يا عمر؟

لاذ عمر بالصمت برهة. صمتُ مَنْ فاجأه السؤال. صمتُ مَنْ استيقظت في أعماقه آلام الماضي.. صمتُ قلب مكلوم، وصمتُ مَنْ شعر بالضيق.

لكنه شعر برغبة في الكلام. مع مالك كان دائماً يشعر برغبة في الكلام. اعتدل عمر في جلسته، ثم قال بعدما ابتسم ابتسامة توحى بفقدان شيء عظيم:

- أجل يا سيدي. كان ذلك قبل أن أدخل السجن طبعاً. قد لا تصدّق إذا قلت لك أنني عشقتُ مدرّستي، التي كانت تكبرني ببضع سنوات. وقد لا تسمّي ذلك عشقاً. قد تسميه نزوة. ولكن ما شعرت به نحوها آنذاك فاق حدّ العشق. كانت تدرّس حضارة الإغريق. كم كانت جميلة. كنت أحب أن أسميها إفرووديت. و"إفرووديت" هي آلهة الحب عند الإغريق. اخترتُ لها هذا الاسم، لأنني شعرت آنذاك، أن حبي لها منحنى سلطنة عليها إلى درجة أن أمنحها اسماً أناديه بها وأنا أحتلي بها في خيالي. قد يكون ذلك أمراً أناانياً يخترقنا بطريقة لا شعورية ونحن في أجمل لحظتنا العشقية. انتابني شعور غريب بأنني إذا اخترت لها اسماً فإنها ستكون خاصتي. كانت امرأة مغوية، ولها جسد طاعن في الإغراء. أحببتها دون أن أخبرها بحبي لها. ما أصعب أن يحب الإنسان مدرّسته المتزوجة، وتعمل في مؤسسة تعليمية تدثرها صرامة القوانين. لا أجد تفسيراً لماذا يسير الحب معظم الأحيان في اتجاه لا معقول، بل إنني أجد أن جمالية الحب تكمن في خروجه على المعقول. كنت دائماً أراها في أحلامي، تشاركني سريري، تصعقني.. تهدئني.

أحببتها دون أن تبادلني كلمة حب واحدة، ولكنها كانت لطيفة معي، ورقيقة جداً. وجهها كان يضيء بابتسامات حميمة مثيرة، لدرجة أنني كنت أشعر بعض الأحيان أنها تعرف ما يجول في داخلي من شعور عشقي مجنون اتجاهاها. هناك نساء، كما الرجال، يستطعن قراءة صمت الرجال بذكاء متقد. هي التي بلمسة عفوية من يديها الناعمتين كانت تصعقني وتكهربني. تنومني مغناطيسياً وتوقظني، فأني سحر هذا الذي كان يسكن في جسدها؟

كانت تتحدث عن الإغريق بإسهاب فأحببتهم، لأنهم كانوا، حسب اعتقادي، طريقها إليّ. ما زلت أذكر رائعة هوميروس "الإلياذة والأوديسا". هي التي جعلتني أفهم فلسفة الإغريق، دون أن أفهم فلسفة تفاصيل النساء. وقتئذ شعرت بالغرق في بحر متاهات النساء. كانت كل النساء. المرأة الشائرة بإغرائها. المرأة الهادئة بحكمتها. المرأة الجريئة بنظراتها، والمرأة الممتلئة بالمعرفة. اختلقت الكثير من المبررات كي أذهب إلى مكتبها، وأخلو بها. خلوتي بها كانت مفخخة بالرغبة، وكلما كانت تغلفها ألغام الشهوة. كم أشتهيتها وهي تفسّر لي بعض المصطلحات الصعبة التي ادعيت أنني لا أفهمها. لم أفهم من تفسيراتها شيئاً، لأنني كنت غارقاً في فوضى من المشاعر المتصاعدة، ملفوفاً بألحفة الشهوة.. عشقتها حد الانغماس في لذة لم أذق منها سوى لذة لمس يدها بطريقة

عفوية. أترى يا سيدي التقشف العاطفي الذي كان نصيبي؟ أترى الزهد
العشقي في حياتي؟

حزن مالك لأجل عمر. ثمة آلام تُغرُس في أعماقنا كالسفود الملتهب. ثمة
أشياء لا يستوعبها العقل إلاّ إذا ابتعد عن تفاصيلها، فتدخل في قائمة
المُسَلّمات. هل ما حدث لهذا الرجل يدخل في قائمة المُسَلّمات؟ كم يهرب
العقل البشري من مطبّاته إلى صندوق المُسَلّمات..

ابتسم مالك ابتسامة ممزوجة بالشفقة وسأل:

- ألم تعشق غيرها؟

أجاب عمر بعدما صعدت من صدره آهة عميقة:

- لم تمنحني الأيام فرصة لذلك، لأنني سُجِنْتُ.

غاص مالك في صمت استمر دقائق، وقد صعقه الألم لأجل ذلك
الرجل. قصة حب صادمة، يذيلها بؤس السجن الذي دام عشرين عاماً
دون تهمة محددة. يا لبؤس البؤساء.. يا لتعاسة التعساء.. أيام فتحت
أبواب شرورها. رجال ينزلقون نحو وهْد الهاوية.. أي الدول أنتِ يا
دولة السراب؟

واصل عمر يقول:

- كم شعرت بالندم لأنني لم أقبلها، ولم أحس ريقها كما أحسني قهوتي.
القبلة، كما الصندوق الأسود في الطائرة، تكشف خفايا المرأة، كأنّ حركة

شفيتها تفتح أبواب الإجابات على التساؤلات. كم اشتهيت تلك القُبلة،
التي كانت ستفتح كل أبواب أسرارها، والآن لم تعد النساء تعني لي شيئاً.
شعر مالك بحزن عميق، عندما تلقى رصاصة بؤس وتعاسة ذلك
السجين، ثم نظر إلى عمر وقال:

- جئتُ مودعاً.

غلّف عمر حزن الصدمة.. صدمة فراق هذا الرجل، الذي ينبض قلبه
بالإنسانية. لم يتمالك عمر أن سأل متعجباً:

- جئتُ مودعاً؟

أجاب مالك:

- أجل.. سأتزوج قريباً، وسأشغل بعض الوقت.

لاذ عمر بالصمت. وما أن نظر مالك إلى وجه الرجل، حتى صعقه
الشعور بالذنب. كيف يتحدث عن الزواج أمام رجل حرّمته الأيام من
أبسط متع الحياة؟ كيف يتحدث عن الزواج أمام رجل لم يعانق امرأة في
حياته قط، لم يقبلها؟ كيف ذكره ببؤسه وبحرمانه، وإن لم يقصد ذلك؟

نظر مالك إلى السجين، وقال كَمَنْ يعتذر:

- ليس هناك من سعادة حقيقية في هذا العالم. الإنسان مجبول بشقاء
عجيب..

ابتسم عمر، وقد أدرك معنى الاعتذار في كلام مالك، ثم قال:

- أهنتك، وأتمنى لك حياة زوجية سعيدة.. ما أخبار دولة السراب؟
فنحن هنا، كما ترى، لا نعرف شيئاً. نعيش في عالم آخر. لا نرى الشمس،
ولا نسمع شيئاً سوى أصوات الصراخ والفران، وصراخ السجناء
أثناء جلسات التعذيب. لا نرى أحداً سوى الحراس، وهذه الجدران التي
تبث الكآبة في النفس. قبل سنة تقريباً زارني والدي في السجن وكانت
تلك آخر زيارة له، لأنه مُنع من زيارتي، دون ذكر الأسباب.
أجاب مالك:

- دولة السراب لا تزال غارقة في ظلمة رحم الاستبداد. كُلُّ يا عمر.
راح عمر يتناول الطعام بصمت، وفي أعماقه شعر أن كل كلمات الشكر لا
تعبر عن شعوره بالامتنان لهذا الشاب. ما زال عمر لا يصدق أن ابن
الحاكم يحضر الطعام والملابس له وللسجناء.

جدران الزنزانة طُلِيَتْ بالقسوة والآلام والأحزان، وأما السقف المظلم
فتتدلى منه حبال موت الرحمة، وتلك النافذة الصغيرة، فيبدو أن ضوء
الشمس لا يستطيع أن يخترقها، ولا الهواء النقي يمكنه أن يتسرب منها،
كأنها صُمِّمت لتزيد المكان ظلاماً ورعباً، فالزنزانة المصنوعة من الظلام
واحتماس الأنفاس، لا يمكن أن يخترقها النور، ولا يمكن أن يتسرب
إليها الهواء. النافذة في الزنزانة كاليأس في الحزن؛ نافذة مشبكة بالحديد،
لا يُرى فيها سوى صدى الحديد، ولا يتسرب منها هواء، بل صدى الحياة.

عمر يتناول طعامه، ومالك يتأمل الكآبة في المكان، والصمت.

قال مالك في نفسه: "كيف تبتلع كل هذه القسوة يا حاكم دولة السراب؟ تُرى ما سرّ جسدك الذي يختزن كل هذه الجينات الإجرامية؟ أتنام نوماً هنيئاً وآخرون يتعذبون بسببك؟ كيف ذلك؟ عذابهم من صنع يديك؟ أأصبح تعذيب الناس حرفة يدوية.

أخذ مالك نفساً عميقاً، وهو يتأمل صمت المكان، واحتضار مَنْ فيه. موت الرحمة في السجون.. بؤس جماعي من صنع الإنسان، يُعطى للناس مجاناً. أليست هي الأحزان التي تُعطى للناس مجاناً؟ أنهى عمر طعامه.. سأل مالك بعدما عاد إلى ذاكرته ذلك الرجل الذي تحدث عنه عمر خلال زيارة سابقة:

- ماذا حدث للرجل الذي حدّثني عنه؟ أودّ أن أعرف حكايته.

قال عمر:

- شكراً لك يا سيدي على هذا الطعام اللذيذ. أما بالنسبة إلى ذلك الرجل، فقد سافر إلى العراق قبل سنتين تقريباً. علمتُ ذلك من والدي الذي زارني قبل سنة تقريباً.

سأل مالك:

- ولماذا العراق؟

أجاب عمر بصوت هادئ:

- أراد أن يعرف كيف أصبح وضع العراق بعد دخول القوات الأمريكية والقوات الدولية إليه، فبعض وسائل الإعلام تحدثت عن عراق جديد، ينتظره مستقبل مزدهر بعد زوال نظام البعث. أراد أن يكتشف ذلك بنفسه...

قاطعته مالك:

- وماذا حدث له؟

قال عمر:

- قُتِلَ...

قاطعته مالك مرة أخرى، متعجباً:

- قُتِلَ؟

أجاب عمر:

- أجل. قُتِلَ عندما كان يخرج من مطعم "الحياة السعيدة" في بغداد بواسطة انفجار سيارة مفخخة كانت تقف بالقرب من المطعم، فتطايرت أشلاء الرجل في الهواء، ثم سقطت وقبّلت أرض العراق شاكرة.

رد مالك بعدما أدرك النبوة الساخرة في جملة عمر الأخيرة:

- أظن أنه اكتشف بنفسه كيف أصبح العراق بعد دخول القوات الأمريكية. عجيب أنه في الوقت الذي يغني فيه الإنسان للحياة، تباغته أنياب الموت.

قال عمر:

- وعلمت من والدي، أيضاً، أن صحافياً من دولة السراب، ذهب في مهمة صحفية إلى أفغانستان، كي يغطي بعض الأحداث في مدينة كابل، ولسوء حظه أنه كان في مكان تتساقط فيه القذائف من الطائرات الحربية كالأمطار، فقتل هو والمصور الذي كان يصوّر الحدث، والعجيب أن الكاميرا التي كانت بيد المصور، ارتفعت في الهواء، ثم وقعت على فم الصحافي الميت، كأنها تلومه على كلامه الذي قاده إلى الموت.

ابتسم مالك، وقال بنبرة ساخرة:

- العراق وأفغانستان أكثر المناطق استقراراً في العالم. حكاياتك عجيبة ومثيرة يا عمر. عندما يُجبر صحافي على الصمت، فاعلم أن هناك كلاماً موجعاً.

قال عمر:

- أصبت يا سيدي. السجناء هنا يحبونك كثيراً. إنك تبث السعادة في قلوبهم.

أجاب مالك:

- إنها لسعادة عميقة بالنسبة إلي أن أرى البهجة على وجوه السجناء في سجن لا تنزلق البهجة نحوه. كن موقناً يا عمر أنه "لا بد للقيد أن

ينكسر. "أنا معجب بصمودك وثباتك على مواقفك. سأراك في وقت آخر.

وما أن وقف مالك وتوجه نحو باب الزنانة، حتى شعر عمر بحزن عميق، وغمغم وعيناه لا تتحولان عن الشاب: "أين ستذهب يا أعظم الرجال؟ لن أنساك ما حييتُ، لأن الرموز لا تُنسى، لأن الرموز تبقى عالقة في الذاكرة، لأن للرموز هيبة."

خرج مالك من الزنانة، فوجد السجان واقفاً، ومن عينيه الصغيرتين تُطلُّ نظرة ذهول. اقترب مالك من السجان وقال بنبرة أمة:

- اعتن بالسجناء، وكن لطيفاً معهم. وقبل أن تغلق الزنانة خذ أكياس الملابس الموضوعة أمام عمر وأعطها لباقي السجناء.

أجاب السجان:

- أمرك يا سيدي.

ذهب مالك، ووقف السجان، وهو يهمس ساخراً ذاهلاً: "صحيح أن كل شيء في دولة السراب على أحسن حال. السجناء يحظون برعاية عظيمة من ابن الحاكم.. الحاكم الذي أمر بالزج بهم في السجن. إنه لأمر يُطير العقل. دولة السراب، دولة العجائب والغرائب."

obeikandi.com

الفصل السادس

ويأتي ذلك اليوم..

يأتي بفرحته العارمة.. بأضواء الأمل.. ببهجته المتصاعدة. يوم زواج مالك..

صباح ليس ككل صباح. صباح متألق.. مغلف بالتخيلات، وبلهفة قوية لحُرقة اللقاء.

خياله يصوّر العناق، والقُبْل، والهمسات العذبة، وتوحد الروحين، في سرير ما كان إلا لعشقهما.

يتخيّل عشقهما، الذي كان كعشق الشعراء.

يا جنون الشعراء العشقي!

ربما لا يستطيع الإنسان أن يكون شاعراً إلا عندما يعادل وزنُ أحزانه وزنَ جسمه، إذا كانت الأحزان تُقاس بالوزن؛ فبقدر أحزان الشاعر، يكون تدفق المشاعر والأفكار.

نهض مالك من سريره وهو شارد بجسد الفتاة؛ جسده مُضمخ برائحتها. برائحة الأنثى. يعانقها. ذراعه تُحاصرها بتلك الرغبة المشتعلة. سرير مُتَظَرٍ..

وجسد مشتعل بالرغبة..

ودقات قلب تستطيب تسارعها..

ذبذبات العشق تنهمر..

شرب مالك قهوته الصباحية، وهو يتأمل أركان المنزل الذي اشتراه بعد ما ترك القصر. يتأمل ويتخيل الفتاة تتحرك في كل ركن فيه. كراس وأرائك تنتظر جسدها، كما ينتظره جسده.

في بيته البسيط، في مدينة الوهم، بعيداً عن الخدم والجاه والنفوذ، قرر أن يعيش. تلك هي الحياة التي اشتتها ريشته، والتي ما انفكت تنتج اللوحات.

الألوان تتعانق على اللوحة، فتدبّ فيها الحياة، تتجسد فيها المعاني والمشاعر بصورة رائعة. تنطق وتتكلم وتخطب الناظرين بلغة الانتظار والتمعن والتأمل. ألوان تخرجُ من الموت إلى الحياة.. من الصمت إلى

الكلام.. من الهدوء إلى الثورة.. من الاستسلام إلى المقاومة.. من الخيال إلى الواقع.

جلس مالك على إحدى الأرائك بفرحة المُتَظَرِّ، بلوعة المشتاق، بثورة الثائر، بهدوء الفيلسوف، برعشة العاشق، بجنون الشاعر..

تسري في جسده ذبذبات اللوعة والاشتياق. تساءل في سره: "ماذا سيقول لها؟ ماذا سيفعل في ليلة ملغومة بالشهوة؟ ماذا يقول وألغام العشق مزروعة في كل الكلمات، وفي كل الحروف؟"

في تلك الليلة، تُراه ماذا سيفعل؟

لو كان شاعراً لَنَظَم قصيدة مشتعلة بالعشق..

لو كان كاتباً لأَلَف قصة تندقق فيها الأحاسيس..

لو كان مخترعاً لاخترع آلة لتحنيط توحد الروحين وتوحد الجسدين..

لو كان طبيباً لاكتشف أسرار جسدها دون أن يلمس جسدها تماماً..

لو كان مؤرخاً لأَرخ تاريخ القُبل المحمومة، وتاريخ اللمسات المكهربة، وتاريخ الكلمات التي تُسكتها المشاعر..

فالمرأة، كما التاريخ؛ لكل جزء في جسدها حكاية ثورة.. حكاية شهوة..

قصة نضال.. ضحايا عشق.. جرحى نظرات طاعنة.. حرب أهلية في

جسد تنتفض فيه المشاعر الأنثوية، وتخوض صراعاً ضد ذاتها..

لكنه رسام.. تسكنه الريشة والألوان، مفرط الحساسية، كما هو مفرط
العشق. رسام درس العلوم العسكرية دون أن يدرسها.

سيرسمها إذاً.. سيرسمها بريشة تعشق الرغبة، بألوان ناطقة بالانفعال،
على لوحة تتوق إلى جسد جميل محموم. لوحة يعلقها على جدار روحه قبل
أن يعلقها على الجدار فوق السرير. بذلك تكون الأجل والأشهى..

وقف مالك، وتوجه نحو النافذة، وفتحها بتأنٍ. أشعة الشمس تعانق
دولة السراب بحميمة لم تعرفها دولة السراب يوماً. عدوى العشق
وحرارته تنتقلان إلى الأشجار والطرق والمنازل. كل شيء ينبض
بالعشق. هكذا رأى مالك الأشياء.

بينما كان ينظر من النافذة إلى الأشجار القريبة من المنزل، لاحت صورة
عمر في ذهنه؛ ذلك الرجل الذي لا يرى ضوء الشمس، ولا تعانق أنفاسه
الهواء النقي، ولا يفتح نافذة الأمل، ولا يحدث إلاّ عتمة السجن.

عمر والسجناء يصارعون الصمت في وكر الصمت.
اجتاحت مالكاً رغبة قوية مفاجئة في زيارة عمر في ذلك اليوم؛ يوم
زواجه. هي الأمور تأتي هكذا أحياناً، دون تخطيط، وكيفما اتفق.

كانت الساعة العاشرة صباحاً. ذهب مالك إلى الحمام كي يخلق ذقنه،
وينظف أسنانه.

كعادته، عمر يجلس في وحدة ملغومة بالصمت. يرتدي الهدوء بأناقة. في السجنون يلتصق الصمت بالأعماق كما يلتصق الطلاء بالجدران. تموت الكلمات، كأن اللغة فقدت رموزها وأصواتها. كيف تحيا اللغة في جسد قتلته وحدة وصمت السجنون؟

ما أن رأى عمرٌ مالكاً يجلس جواره، حتى صعقته المفاجأة. انفرطت مسبحة الكلام، فتناثرت الكلمات، دون أن يقوى على التقاط كلمة واحدة. في وقت من الأوقات، يحدث أن الكلمات تسقط وتتناثر هنا وهناك، كما تتناثر حبّات المسبحة. هذا يحدث عندما تموت اللغة في الأعماق التي أصبحت تجد في صمتها اللغة المعبرة.

بقى عمر على ناصية الأسئلة: "كيف أتى إلى السجن؟ ألم يقل إنه سيتزوج وسينشغل بعض الوقت؟"

قال عمر بابتسامة يطفو على سطحها إعجاب شديد بمالك:

- مجيئك إلى السجن، في هذا الوقت المميز بالنسبة إليك يذكّرني بالعالم الفرنسي لويس باستور، الذي نسيَ زواجه. قلقت عروسه عليه، وعندما ذهب أصدقاؤه يبحثون عنه، وجدوه في مختبره يشرح أرنباً. أكان ذلك إهانة لعروسه، أم تكريماً للأرنب؟

أجاب مالك:

- الأمر ليس كذلك يا عمر. لويس باستور، ذهب إلى المختبر من أجل أرنب، أما أنا فأُتيت إلى هنا من أجل إنسان، مع أننا في زمن تكريم الحيوان، وإهانة الإنسان.. في زمن قهر الإنسان وتقييده، وفي زمن الحرية للحيوانات. لويس باستور ذهب إلى مختبره من أجل قتل أرنب وتشريحه، وليس في ذلك تكريماً للأرنب. أما أنا فأُتيت من أجل حياة إنسان حُكِمَ عليها أن تموت وهي على قيد الحياة. في هذا العالم، كثيرون الذين يموتون دون أن يموتوا.

انتاب عمر شعور بالامتنان والتقدير لهذا الشاب وقال:

- إنك تعطي الكثير يا سيدي، وإن يُحْيِلَ إليك أنك لا تعطي شيئاً. فزيارة كهذه، في وقت كهذا، تخزنها الذاكرة، وتنقش الأيدي تفاصيلها على الجدران التي أتعَبَها الصمت والظلام.
أجاب مالك:

- لو كنت كاتباً لكتبت عنك، وجعلت منك بطلاً حبرياً يزيّن رواية. أين أقلام الكتّاب عنك يا عمر؟ هل جفّ الحبر، أم كُسِرَت أقلام الكتّاب في هذا العالم؟ أراك تعطي الخلود لكتاب أنت فيه، وليس العكس.

ابتسم عمر ابتسامة يجاور فيها الحزن الغموّض، وقال:

- إلى هذا الحد يا سيدي؟ أجهل وأصدق الأدب في منطقة قرب اللاوعي، أو في منطقة مجاورة له. ليس كل مَنْ يَكْتُبُ يستطيع أن يصل

عقله إلى تلك المنطقة، لذلك تجد بعض ما يُكتب مصنّعاً منمّقاً، يخلو من العاطفة، وربما المعرفة، وربما المضمون. يُخَيِّلُ إليّ بعض الأحيان، وهذا رأيي بالطبع، أن أجمل الأدب أشده غرابة وجنوناً، كما الحب، جماليته في جنونه.

سأل مالك:

- ولماذا لا تكتب إذا كنت عاشقاً للكتابة إلى هذا الحد؟ أعتقد أنه يكفيك أن تكون عاشقاً للكتابة كي تكتب...
قاطعته عمر:

- وأن تكون في صراع داخلي عنيف مع فوضى متصاعدة من الأحاسيس والمشاعر. بهذا يكون الإنسان كاتباً.
سأل مالك مبتسماً:

- أتعشق الموسيقى يا عمر؟

أجاب عمر:

- وَمَنْ لا يحب نوعاً من أنواع الموسيقى؟ ولكننا هنا، لا نسمع إلاّ موسيقى غريبة، لم يتوصل إليها موزارت وجوزيف هايدن. إنها موسيقى الصمت، تخرقها أصوات الفئران. أتتصور أن تُطرب أذنيك بأصوات الفئران تارة، وبأصوات الصمت تارة أخرى. تُطرب أذنيك بصوت الفئران. إنه تزاوج عجيب بين الكلمات. الطرب وصوت الفئران، ما كان

لها أن يجتمعا إلا في مكان عجيب كهذه الزنزانة. كم أتمنى أن أستمع إلى تلك المقطوعات الموسيقية لجوزيف هايدن وياني. هذين الرجلين لمسة سحرية رائعة على مقطوعاتها الموسيقية. أشعر أن ذاتي تخرج من أعماقي إلى عالم حالم جميل عندما استمع إلى الموسيقى الكلاسيكية. مَنْ يقول إنّ الموسيقى تسبي العقل، وتُنْعش الروح فقد أصاب. تدوخي مقطوعات ياني الموسيقية.

ابتسم مالك ابتسامة جميلة وقال:

- إنها موسيقى النخبة.

أجاب عمر جاداً:

- النخبة في العقل، وليس في المستوى الطبقي...

قاطعهُ مالك:

- أصبَتْ يا عمر.

نظر مالك إلى ساعته، حول معصمه، وأردف يقول:

- كم سعدت لوجودي معك هذا اليوم. سأزورك في وقت آخر، فالיום

هو يوم زواجي كما أخبرتك منذ دخلت الزنزانة.

ابتسم عمر وقال بصدق:

- أهنتك مرة أخرى يا سيدي.

غادر مالك الزنزانة، وعاد عمر إلى كهف صمته، متعثراً بالظلام، وبفراغ المكان!

* * *

هي أمام المرأة. تتخيل سارة ضوء السعادة والفرحة العارمة. على صفحات الحياة، يجب أن تُكتب كلمات السعادة مجزوءة، وتُرسم سطور البهجة ناقص، فالنقص سمة الحياة، لذلك كان الموت. سكين الموت تقطع خيوط الحياة.

ربما يجب أن تكون خريطة الحب غير واضحة المعالم. فاشطب التضاريس، والحدود، والمدن والدول. ربما ما تشطبه الأقلام على الخريطة، تشطبه الأيام على صفحات الحياة. ابدأ أنت بشطب تضاريس السعادة قبل أن تفاجئك الأيام بشطبتها على خريطة الحياة. بذلك تحمي نفسك من هول الصدمة.

الصدمة.. تعني الضربة. كأن الأيام تضربك. لماذا؟ ربما لأنك وجدت. سعادة عميقة. تتأمل سارة جسدها الذي سيستقر في موطنه، في أحضان الرجل الذي أحبها، وأحبته. هي الأقدار فتحت يدها. منحت ووهبت بسخاء. يا لسخاء الأيام في وقت ساد فيه البخل!

كانت الأبهى والأشهى..

ناهدين ثديها كانا.. يتوقان إلى تلك اللمسات المكهربة.

عَبَقَتَيْنِ شَفَتَاهَا كَانَتَا.. تتوقان إلى الاندماج في شفثيه.

عينها بالبهجة لمعتا.. فسحرها يسكن في عينيه.

ومن جسدها الدافئ تنطلق الرغبة.

أيها الزمن قف.. فقد سئم العشق سرعتك الجنونية.

أيتها الأيام جودي بشهقات الحب..

أبعدي أحزانك، أبعدي آلامك، وافتحي مظلة العشق..

فلا أجمل ولا أشهى من العشق إلا جنون العشق.

تتلاً السعادة في فستان زفافها. تنطلق منه أشعة الفرح لتتكسر في المرأة،

فتعود إليه، ليحتفظ بالضوء والحرارة للحظات الضوء والحرارة.

العشق، كمانعة الصواعق، يحمي الجسد من الانهيار الداخلي، كما تحمي

مانعة الصواعق البيوت من الدمار.

هي الساعات القادمة.. والساعات الحاسمة، التي تهرول بين دقائقها

الرغبة..

مأخوذة بسعادتها كانت..

وبتلك الليلة الحافلة بالأحداث..

وفي لحظات خلوة بنفسها، لم تنفك الفتاة تتساءل إن كانت ستستطيع أن

تتكيف مع بيئة الطبقة الحاكمة، وتندمج في حياتها، وإن كانت ستسير

الأمر على ما يرام. إنها تخشى من السعادة المفرطة، وفي دولة السراب،

حيث يتوطن القهر، فإن السعادة مهما كانت عميقة، فإنها تلتحف حزناً أعمق.

السعادة تعانق الحزن حد الالتصاق أحياناً..

وجدت الفتاة نفسها تطارد المجازفة، فماذا أنت فاعل أيها الحب، وقد تكالبت عليك قوى الممنوع، واللامعقول، واللامنطقي؟ حضرها بلزأك في تلك اللحظة..

كيف استطاع الكاتب الفرنسي بلزأك أن يسخر عواطفه لإشباع تطلعاته الطبقية، والطبقة الحاكمة بالذات؟ نال هذا الكاتب المسرحي، وهو من الطبقة المتوسطة إعجاب الدوقيات والكونتيسات اللائي أحبين كتاباته، حتى أنه ولج قصورهن، وعاشر بعض الدوقيات والكونتيسات معاشره الأزواج؛ فالبرجوازية كانت في تفكيره ومشاعره. بكتابات ومسير حياته اخترق قلوب نساء الطبقة الحاكمة، قبل أن يخترق قصورهن، حتى أنه أضاف إلى اسمه كلمة "دي" إيهاماً بنبالة أصله.

ما وجه الشبه بينها وبين بلزأك؟

بلزأك كان كاتباً، أما هي فلا.

أحب بلزأك الدوقيات بسبب تطلعاته البرجوازية، أما هي فقد أحبّت ابن الحاكم لذاته، وليس للطبقة التي ينتمي إليها. ربما التشابه الوحيد بينها وبلزأك هو انتماؤها إلى الطبقة المتوسطة.

أخذت سارة نفساً عميقاً، وراحت تنتظر ما ستخطُّ يد السماء على صفحات الأيام.

في الحجرة المجاورة للحجرة التي كانت فيها سارة، اجتمعت النساء يهنّئن، يتحدّثن، ويتغامزن كأنهنّ ما خلِقن إلاّ لذلك. لا أئفه من نساء في عرس .

عندما تتحدث النساء، فإنهن يتحدّثن ولا يتحدّثن؛ كأن لا يكون الكلام كلاماً، ولا يكون الصوت صوتاً. المرأة لا تقول شيئاً في الوقت الذي لا تتوقف فيه عن الثرثرة.

همست إحدى النساء لسيدة تجلس جوارها وقالت:

- لا بد أن سارة فعلت الكثير من أجل هذا الزواج.

فردت السيدة وقالت بنبرة حاسدة:

- لا أستطيع أن أتصوّر أنها ستتزوج ابن الحاكم. كثرت العجائب في

دولة السراب. أيعقل أن سارة ابنة الرجل البسيط تتزوج ابن الحاكم. لا

بدّ أنني أحلم. فُتِحَتْ لها أبواب الجنة.

وقالت امرأة ثالثة، وصلها حديث السيدتين:

- هذا ليس زواجاً، بل إنه الجنون نفسه.. أوقعت سارة نفسها في الهاوية

بقبولها هذا الزواج.

تساءلت السيدة الأولى بتعجب:

- وهل سيأتي الحاكم وابنه إلى هذا المنزل البسيط؟ أيعقل هذا؟ لا يُعقل شيء في دولة السراب...

قاطعتها السيدة الثانية:

- بل لا يُعقل شيء في هذا العالم.

لاذت المرأة بالصمت قليلاً، ثم أردفت تقول ضاحكة:

- أنا جئت إلى هنا لكي أرى الحاكم وابنه.. ستغدو سارة من الطبقة الحاكمة، وستترفع عن الحديث والاختلاط بنا بعد اليوم. سنصبح حثالة البشر في نظرها...

قاطعتها السيدة الثالثة:

- وقد تواجه مشاكل لم تخطر يوماً ببالها.

تلج والده سارة الحجرة الكبيرة والوجوم يرتسم على وجهها، وفي رأسها تتكاثر الأفكار والأسئلة: "ما أسوأ النساء عندما يجتمعن! ماذا تقول هذه النسوة؟ أشعر أنهن يتغامزن عليّ. أرى في وجوههن الحسد والسخرية.. يحسّدنني ويحسّدن ابنتي على مصيبة هذا الزواج.. يحسّبني سعيدة، ولا يدركن ما أشعر به من همّ وحزن. نظرات السخرية في عيونهن تمزقني. يسخرن ويشمتن لأنهن يرين المصائب في هذا الزواج. أصبحنا هزأة للآخرين. إن فضول النساء أمر يثير التقزز، وإن في حديثهن لسعات الأفاعي، ومكر الثعالب، وتفاهات البلهاء. ما أصعب أن يقف الفرد

أمام فضول امرأة! ماذا كان بالإمكان أن نفعل؟ مَنْ منا يقوى على معارضة الحاكم وابنه؟"

شعرت والدة سارة بأصابع تلكز كتفها، فالتفتت لتجد امرأة تقول بابتسامة تنم عن حسد وضغينة:

- أهنتكِ على زواج ابنتك من.. ابن الحاكم.

أدارت والدة سارة ظهرها، وراحت تحدث نفسها: "تبارك لي على هذا البلاء. إنها لم تُبلِّ بما بُليتُ."

توجهت الأم، شاردة الذهن إلى حجرة ابنتها. كانت الفتاة رائعة الجمال في ثوبها الأبيض، والسعادة تتراقص على وجهها الصغير. ركضت الفتاة نحو أمها، وعانقتها بحرارة. وهمت قائلة:

- لا تبكي يا أمي.. أكره هذه الدموع في عينيك. حببتي يا أمي.

ربما أكثر الدموع ألماً هي تلك التي تنهمر على فراق أعز الناس.

باغتتها أصوات النساء في الحجرة المجاورة، وهي تعلو تدريجياً قائلة:

- جاء موكب الحاكم وابنه.. جاء موكب الحاكم وابنه..

غاض صوتاهما، وانخرطتا في البكاء. وما أن خرجتا من الحجرة حتى أطلت كاسحة الأحلام والآمال.. صاعقة السعادة.. قبلة خيبة الأمل التي انفجرت في الأعماق..

إنه لأمر يفوق حد التصوّر. أهذه هي السعادة التي رسمتها لها الأيام قبل دقائق؟

هي الأيام هكذا.. ترشق المفاجآت الصادمة رشقاً نحو ذلك الملتقي، وهو الإنسان. إن من الغباء أن يتوقع الإنسان فرحة نقية. إن من البلاهة أن ينتظر بهجة لا تطعنها سكين الألم.

غريبة هي الأيام غرابة إيماننا بحسن نواياها.. تُخطف السعادة بعدما كانت على بعد قُبلة من شفيتها. كم كانت السعادة قريبة منها! كم أصبحت بعيدة!

القريب والبعيد.. المسافة بينهما تُقَطع في ثوانٍ، وهي التي كانت تستغرق ساعات أو أياماً.

ما هذه الدنيا التي جعلت المسافات بين الأضداد شبه موجودة؟ جاءت كاسحة الأحلام لتجعل المسافة بين سارة ومالك بعيدة بُعد الأرض عن الشمس.

بعينين متسعيتين من الصدمة، نظرت الفتاة إلى رجال بزيم العسكري، وهم يوجهون بنادقهم نحوها، ونحو المدعوين. اجتياح مفاجئ للآمال.. غزو وحشي للسعادة.. تحرّش مباغت بأغنية الحب التي عزفت لحنها الأيام. إن في الحياة قسوة تجعل الفرد يتبرأ منها أحياناً. ألغام المفاجأة

مزروعة في صمت الأعماق، ولا يقوى أحد على تفكيكها. ماذا يُقال في مواقف موت الكلام، ونُطق الصمت؟

اقتيدت الفتاة وعائلتها بهدوء القبور إلى أوكار القهر، إلى طوفان اليأس الجارف. أهذه هي هدية الأيام لمن أحسن الظن بها؟

ربما الأيام، كما الناس، تقتضي الحكمة أن لا يُحسّن الظن بها.

قاد قاتلو الأحلام الفتاة إلى سيارة عسكرية، وأما عائلتها فكانت في سيارة عسكرية أخرى. وداعاً أيتها السعادة الحزينة.. سعادة بمحاذاة الحزن.

هكذا هي السعادة.. حانية رأسها حد ملامسة الأرض. أن يكون الفرد

في خِصَمِّ الأحزان، فهذا لا يزعج، ولا يحرك ألم أحد. أما أن يكون في

أوج أفراده، فهذا يزعج ويثير حفيظة الكثيرين. لماذا؟ أيوجد خلل في

جينات وتكوين الإنسان؟ ماذا أنت فاعل أيها العلم "العاجز" في إنسان

كلما تعمّقت في تحليلاته النفسية والجسمية، كلما ازداد أمرها غموضاً؟

* * *

في بيته البسيط، ارتدى مالك بدلة رمادية اللون، ووضع ربطة عنق

تناسبت تماماً مع بدلته. ربطة العنق، ربما كحبل المشنقة، تلتف حول

العنق، وتضيق. ولا يُفهم لماذا يحبها بعض الرجال، وهي نوع من أنواع

القيود. أتزيد الرجال أناقة، أم تزيدهم قيداً؟

تعطّر الشاب بأجود أنواع العطر الرجالي. بدا وسيماً، جذاباً، طاعناً في الإغراء، مغلفاً بجمال أخاذ. وبينما كان يتأمل وجهه المشرق سعادة في المرأة، لاحت صورة والده، واجتاحه التردد لدقائق. أذهب إلى القصر، كي يقنع والده بقبول الزواج؟ أينسى الحاكم كل ما حدث بينهما، ويوافق على الزواج؟ أيتخلّى عن هوس وجنون النفوذ والحكم لساعات؟ أذهب إلى القصر، أم ينسى الأمر؟

بعد حيرة استمرت دقائق، قرر مالك أن لا يذهب إلى القصر لسببين: الأول، أن الحاكم معروف بجنونه بالحكم والنفوذ، ولن يتراجع عن قرار اتخذه. وأما السبب الثاني، فكانت سعادته التي لم يرغب في أن تفسدها انتقادات الحاكم اللاذعة.

خرج مالك من بيته مسوقاً برغبة متصاعدة، ولهفة قوية للقاء الحب في ليلة ملغومة بالشهوة، ستنطق بأجمل الكلمات العشقية. حجز في وقت سابق في أفخم فنادق مدينة الوهم.

قاد مالك سيارته، وهو يستمتع إلى مقطوعة موسيقية للموسيقى النمساوي جوزيف هايدن. ما أجمل هايدن وهو يخترق بروائعته أجمل لحظات الحب، كي يزيد لها دفئاً! يا لسحر الموسيقى الكلاسيكية بجمالها الفائق!

لا عجب في سحر موسيقى هايدن، وهو مَنْ وضع قوانين السيمفونية الكلاسيكية.

ما أن وصل مالك منزل سارة، حتى صعقه صمت المكان. ها هي الأيام تسوّي أحلامه بالأرض. زلزال عنيف ضرب جبال الحب ضربة عنيفة.

كيف يقيس جهاز ريختر قوة زلزال ضرب الحب والآمال؟

شعور غريب انتابه. كأنَّ بعضه مات في بعضه. شيء ما مات في داخله..

منطقة أشباح هذه أم ماذا؟ ما الذي حدث لبيت أودع فيه حباً عميقاً؟ أسرق المنزل، أم قُتل الحب؟ صمت يشي بفجيعة..

شعر الشاب بضيق في صدره، وبصعوبة في التنفس، كأن الحزن يتعثر بأنفاسه. ذلك الشعور المؤلم الذي يحتاج الإنسان عندما يشعر بدنو كارثة ما.

التفت مالك حوله بعدما تأمل صمت المكان بذهول، فرأى شاباً كأنَّ الأقدار أرسلته إلى ذلك المكان المغلق بصمته، كي يفتح باب ذلك اللغز المفاجئ.

اقترب مالك من الشاب، وسأل بصوت متهدج، وبقلق بالغ:

- هل أنت من سكان هذا الحي؟

أجاب الشاب دون أن يعرف مع مَنْ كان يتحدث، لأن ابن الحاكم كان دائماً بعيداً عن الأضواء، ولم يعرفه عدد كبير من الناس:

- أجل. أنا أسكن بالقرب من هذا المنزل الذي دهمه عدد كبير من الجنود، واقتادوا العروس وعائلتها إلى سيارتين عسكريتين، ولا يُعرَف أين توجهتا.

حزام الصدمة الناسف يَلْف الأعماق. ما أن سمع مالك كلام الشاب، حتى كاد يخرّ راکعاً أمام مفاجآت الأقدار. هناك دائماً ما هو أسوأ من التصورات، وأبشع من التخیلات التي يرسمها العقل في الأوقات الصعبة. هكذا تسير الأمور في بلد كل شيء فيه على أحسن حال.

شعر مالك بقواه تخور، وفي رأسه تشعبت الأسئلة. لماذا حدث ذلك؟ ولماذا الآن؟ كيف يستردّ ما كان؟ أفعلها الحاكم؟

سأل مالك، كأن أعماقه ترفض أن تصدق ما سمع:

- أهذا ما حدث؟

أجاب الشاب:

- أجل.

سأل مالك مرة أخرى:

- ولكن متى؟

أجاب الشاب:

- قبل ساعة أو ساعتين.. لا أذكر بالتحديد.

كان ذلك عندما ذهب مالك لشراء شريطين لياني وجوزيف هايدن.

ذلك الفندق الذي حجز فيه، كان ينتظر إقامة حفل كبير، ولكنه أصبح ينتظر إقامة مأتم الحب. تموت الأحلام الجميلة بسرعة في دولة السراب. ما أسهل أن يحلّ الحزن والقهر محل السعادة في دولة جُبِلَتْ بالقهر! يتيمة فرحته. ماتت أحلامه قبل أن تولد. فليشيع الفندق حياً ولد كبيراً، ومات يافعاً مغدوراً.

وَلْيُقِمِ الْمَأْتَمَ.. هكذا هي الآمال في دولة السراب. تُقام مأتمها قبل أن تموت، ويُشيع جثمانها وهي على قيد الحياة. طائر الحب مهيض الجناحين غدا.. سقط، فمات، ووري ثرى القهر والظلم، المنطقي واللامنطقي.

لعن مالك الأيام في أعماقه، وسب الحياة. قاد مالك سيارته بسرعة جنونية، وموسيقى هايدن في مسجل السيارة تصارع جنون اللحظة، وجنون الصدمة، لعلها تبث شيئاً من الهدوء في النفس. ركن سيارته في شارع البلاء وهو الشارع الذي يوجد فيه القصر؛ قصر كبير بالمصائب والفجائع التي انطلقت منه كالقذائف نحو شعب دولة السراب.

ولج مالك القصر لاهثاً، مصفر الوجه غضباً. لم يكن حراس القصر على علم بعلاقة مالك السيئة بوالده، لذلك أحنوا رؤوسهم تحية له، في الوقت الذي لم ينتبه مالك إلى وجودهم.

ما أن دخل مالك القصر، حتى وجد المستشارين العسكريين في اجتماع مع الحاكم، كأسماك القرش، فالحاكم دائماً بين حربين؛ حرب انتهت وحرب سيُعلن عنها قريباً.

الحروب مداولاته، والأسلحة اهتماماته، والقتل والتعذيب اشتهاؤه. في دولة السراب، يُشتهي القتل والتعذيب كالوجبات اللذيذة، أو كالمرأة الجميلة.

مظلماً وجهه من الغضب كان.. وهائجة أعماقه كانت. تسمر مالك في مكانه، وقال في سره، وهو ينظر إلى الحاكم والمستشارين العسكريين: "خُثالة دولة السراب، ورأس الفساد فيها". أمر الحاكم المستشارين العسكريين بمغادرة المكان عندما رأى ابنه يقف مستعداً للمواجهة، فغادروا.

نظر مالك إلى الحاكم بنظرات عابرة للقارات؛ قارة الشر في عيني الحاكم، وقارة القسوة في قلبه، وقارة القتل في يديه.

على الطاولة المستديرة، حيث كان الحاكم يجتمع مع مستشاريه، كان يوجد خريطة دولة السراب، وخريطة الدول المجاورة، وخريطة العالم، التي بلغت مساحتها ما يقل عن نصف متر مربع. العالم كله يجلس على طاولة مستديرة، أمام الحاكم ومستشاريه. تصغر أمام أعينهم جرائمهم، كما يصغر العالم كله في خريطة.

على الخرائط تُشطب دول، وتُرسَم دول أخرى. تُقتل دول، وتُحيا دول أخرى. وبرؤوس أقلام السياسيين والعسكريين يتم تغيير تضاريس دول، وتغيير مجرى تاريخ دول أخرى بهدوء. تُسحق شعوب، وتُوطَّن شعوب أخرى. تُهان أمة، وتُعزَّز أمة أخرى. إنها فنون طهي الدول في طناجر من الورق، على نار الظلم والقوة.

تقدم مالك، وقلب الطاولة المستديرة، ف وقعت خريطة دولة السراب، وخريطة الدول المجاورة، وخريطة العالم كله على الأرض. وقع العالم على الأرض، كأنه وقع على نفسه. كيف تقع الأشياء على نفسها؟ قال مالك غاضباً:

- أنت الذي فعلتها إذاً.. ألم يكفك ما فعلت بالسجناء والناس؟ والآن فإنك تلاحقني وتدمر حياتي. ألم يكفك أنني تركت لك القصر والنفوذ؟ كم أكره نفسي في هذه اللحظة، لأنني سبب كل ذلك الأذى الذي ألحقته بها.. أكره نفسي، وأكرهك.. أين سارة وعائلتها؟ أصلح الحاكم من جلسته، وقد غلّف الهدوء، وراحة البال وجهه، ثم قال بشماعة مواربة:

- عن مَنْ تتحدث؟

اشتد غضب مالك بسبب عدم مبالاة الحاكم بما يعتلج في صدره من حزن وغضب. تقدّم متباطئ الخطى، ثم قال:

- أنت تعرف عن مَنْ أتحدث.

قال الحاكم:

اجلس، ودَعنا نناقش الأمر بهدوء. لا يستحق الأمر كل هذا الغضب..
لماذا تفترض أن الفتاة قد اعتقلت؟ لماذا لم تفترض أنها ماتت كما يموت
الآخرون؟

صرخ الابن قائلاً:

- لم أجد أظلم منك إلا أنت.. إن أصابها مكروه، فلا تتوقع خيراً أبداً.
أتركني وشأني.

غضب الحاكم من كلام مالك وقال:

- يجب أن تعلم أن عظام وصغائر الأمور لا تغيب عن الحاكم الأقوى،
حاكم دولة السراب. أبداً لن يتمّ زواج يهدد مصالح الدولة وأمنها.
أستهيّن بهييتي وقوتي إلى هذا الحد؟ لقد آن للفوضى التي تعيش فيها أن
تنتهي.. أن لنزوتك الطائشة وشهوتك المجنونة أن تنتهيا. لا خروج على
قوانين دولة السراب. أبداً لا تتوقع سعادة تخرج على القانون والانضباط
والالتزام...

قاطعه مالك متهكماً:

- في دولة حق وعدالة وحرية وحقوق إنسان.

قال الحاكم بنبرة غاضبة:

- لن تعي حقيقة ما أقول إلا عندما أصدر أوامري باعتقالك وسجنك يا غبي.. السجن فقط سيعلمك فنون الانضباط والالتزام والسيطرة على نزوة تحط من قيمتك وقدرك. أي انحطاط هذا الذي وضعت نفسك فيه؟

أجاب مالك:

- ليس غريباً على السفّاحين أن يسموا الحب والمشاعر الإنسانية انحطاطاً في الوقت الذي يسمون فيه القتل وتشويه البشر وقمع الحريات قوة. هذا منطق دولة السراب، ولم يكن، ولن يكون يوماً منطقي. ساقطة هي دولة السراب.

خرج مالك في القصر غاضباً، بينما كان الحاكم يقف متسائلاً عن سبب تغيير مالك: "أيعقل أن يكون كل هذا الغضب من أجل فتاة عادية؟ أيعقل أن يترك حياة البذخ والرخاء ويتشبث بحياة الكدح." لم يعد الحاكم يدري ماذا يفعل. لم يعد يتصور كيف أن ابنه نسي حياة الترف التي عاشها في طفولته. أنسي كل الحنان الذي منحه والده إياه في طفولته؟ أبيضعه في السجن، أم يتركه وشأنه؟

جلس الحاكم على كرسيه الفاخر، وقال محادثاً نفسه: "أأنا ظالم كما يقول؟ لم يقلها أحد، وقالها ابني، فجاءت صرخة مدوية نخرت أعماقي. ألا يدرك أن حكم الشعوب لا يأتي باللين؟ ألا يدرك أن فوضى الألوان التي

يغرق فيها لا تُمَثَّل واقعاً أبداً؟ أيعقل أن يكون شغفه بالفن قد فعل به كل هذا؟ ليتني أستطيع أن اخترق أعماقه، لعلني أجد تفسيراً لرفضه الجنوني للحكم والجاه، ولتشبهه الأحمق ببساطة العيش. ليتني أنفض أعماقه من غبار بساطة العيش. كم كان على حق الفيلسوف الذي قال: "إننا نقضي القسم الأول من حياتنا أشقياء بسبب آبائنا ونقضي القسم الثاني من حياتنا أشقياء بسبب أبنائنا". ابني أصبح مشكلة مستعصية.. كرة من الصوف لا أستطيع أن أمسك برأس الخيط فيها.. لغماً موقوتاً لا أستطيع تفكيكه قبل أن ينفجر، ويفجّر كل من حوله. ويبقى ذلك السؤال الذي لا يزحف إليه جواب، ماذا أفعل؟ أنا الذي مرّت الحروب عليّ كألعاب الأطفال، أجد نفسي عاجزاً أمام إنسان ضعيف، وهو ابني.

إنّ تجتاحك سعادة عميقة، فاعلم أن حزناً مؤلماً يتربّص بك خلف الأبواب الموصدة.

سؤال لا يستطيع الزحف إلى جبهة الجواب. جبهات التفاصيل الغامضة، والتفاصيل المؤلمة، والتفاصيل التي لا تفاصيل لها. هل سيشفى مالك من شعوره بالذنب بسبب ما لحق بالفتاة من أذى؟ الشعور بالذنب لا يشعر به إلاّ عدد قليل من الناس لأنه لا يصعق إلاّ هؤلاء الذين تجرحهم الشعرة، لفراط حساسيتهم. إذاً لا عجب أن يصعق، أو يسحق الشعور بالذنب الشعراء والرسامين، لأنهم مفراطو الحساسية.

الشعور بالذنب ليس، كما يعتقد البعض، ضعفاً أو اضطراباً عاطفياً. إنه محاسبة النفس بحيادية، على أخطاء صغيرة أو كبيرة، في وقت لا نجد أحداً يحاسب نفسه على أفظع الجرائم، وأكثر الحروب شراسة، فهناك من ينصب لك الألغام مبتسماً، وهناك من يطعنك أثناء عناق حار.

مرت الساعات بطيئة، قاتلة بأحزانها. قاد مالك سيارته باتجاه بيت سارة، كأنه لا يريد أن يصدق ما حدث، أو لا يستطيع أن يصدق ما حدث. بيت غارق في الصمت، وهو الذي كان غارقاً في السعادة قبل ساعات. وأما سارة التي كانت في أبهى صورة تنتظر الحبيب والزوج، فقد قتلت فرحتها البكر، وغدت كمن بُترت كل أعضائه.

وقف الشاب حائراً، وقد راوده السؤال الذي يراود الكثيرين عندما يقفون عند ملتقى طرق: أي طريق يسلك؟ أبحث عن الفتاة وهو يدرك تماماً عبث البحث عنها في دولة تبتلع البشر كالرمال المتحرك؟ أعود إلى القصر؟ أيسقي عقله عن مبادئ الحرية والعدالة؟ أأستقيل فرشة الرسم عن إنطاق الصمت وتقويم الاوجاج؟ أينسى كل هذا ويعود إلى عبودية فكرية وصمت تطابق مع الموت الفكري؟ أقبل اللامنطق في دولة اللامنطق؟ أينسى تعاسة السجناء وقهرهم؟

كم شعر مالك بصغره أمام عظمة عمر، الذي قضى ما يزيد على عشرين عاماً في السجن، دون أن يهتز ثباته على مبادئه والقيم التي يؤمن بها، فهذه

الفترة الطويلة في عتمة السجن عجزت عن نفس صموده وثباته وإرادته. ما أصغرنا عندما نُهزم أمام مبادئنا وقيمنا! ما أحقرنا عندما نفكر بثمان المبادئ والقيم السامية أكثر من التفكير في المبادئ نفسها! ما أتفهنّا عندما نسير في طريق المؤلف كالخراف! المؤلف، قد لا يقبل به إلاّ العقل العادي البسيط، ولا يتجنبه إلاّ العقل المتميز. لذلك كان المفكرون، والفلاسفة، والمخترعون، والمبدعون في الأدب والفن والموسيقى. هؤلاء الذين وجّهوا أسلحتهم الفكرية والإبداعية والأدبية والفلسفية نحو قيد المؤلف، الذي كان للعقل قاتل.

إنه يختار طريق الثبات على مبادئه وقيمه.. طريق عمر وبؤس السجناء.. طريق سارة.. سارة التي التهمها المجهول.

عاد مالك حزيناً إلى بيته. تأمل فرشاة الرسم. لم تعد الفرشاة كما كانت دائماً. إنها جافة قاحلة كأراض عجاف. والألوان لا ألوان لها.. لا حياة في دمجها.. يغلفها سكون الموت.

لم يشعر برغبة في الرسم. وقف يتأمل لوحاته. إنه يقاخص صمتها بلغة العقل، وبلغة الجنون، وبلغة الوهم، وبلغة الصمت.. رغبة جامحة في الحديث مع تلك اللوحات الصامتة الصارخة.

تمدد على سريريه محاولاً النوم. كيف ينام وكل أعضاء جسمه تنادي ذلك الجزء المبتور؟ حبيبته. سارة التي اختفت في يوم خصص لفرحتها.

اختفت، كأن الأيام تسخر من سعادتها، بل إن الأيام تسخر وتزدرى
سعادة كل إنسان بما ترشقه من أحزان مباغته. اختفت الفتاة، ووضعت
نقطة النهاية في البداية. لم يستطع النوم. جلس في سريرته، وراح يتأمل
فرشاة الرسم مرة أخرى، لعله يرى فيها أملاً في الرسم يحيا. لكنها..
خاوية على أحزانها وآلامها كانت. بدت ميتة حزناً، وهي التي كانت
تهجم على اللوحة البيضاء بتلقائية، وشراسة لا حد لها. تتغلغل في كل
جزء منها بعشق مجنون، بتزاج عجيب، فتدبّ فيها الحياة.

شعر برغبة قوية في الكتابة، فالكتابة لا ينجبها إلاّ الحزن العميق.. الحزن
القاهر.. الحزن الشاهق. للقلم لغته، ولفرشاة الرسم لغتها، واللغتان
تنفضان غبار الأعماق.

كتب مالك في مذكرته كلاماً يدل على حزن عميق، وحالة نفسية سيئة:
"عندما أحببتك، لم أجد متسعاً من الوقت للتفكير في القوانين
والبروتوكولات، والمسموح والممنوع، وهذه القائمة من الكلمات
الفارغة. قادتني قدمي نحوك بجاذبية عجيبة، لم تكن كتلك التي
اكتشفها نيوتن. فسر نيوتن الجاذبية الأرضية، ووضع قوانينها، أما أنا فلم
أستطع تفسير جاذبيتك.

أي أحمق أنت أيها العلم؟ لم تجد حتى هذه اللحظة تفسيراً لجاذبية عشيقي
نحو بعضها. ما الذي جذبني نحوك عندئذ؟ تساءلتُ.. وتساءلتُ:

أكانت الدعوة الصامته على شفتيك؟ أكانت جرأتك البريئة؟ أكان صمتك الناطق؟ أكان جنونك، أم ثورة جسدك؟ أكانت صعقة يديك، أم الإثارة في صوت أنفاسك؟ أكان الجسد أم الروح؟ لا أدري.. لا أدري.. ليتني أهتدي إلى قوانين جاذبيتك، كما اكتشف نيوتن الجاذبية الأرضية. أي محظوظ أنت يا نيوتن، وأي حائر أنا.. لا أستطيع أن أجِد تفسيراً للجاذبية الجسدية.

قيود.. قوانين.. أيدي مكبلّة.. عقول موثوقة، مربوطة بحبال القوانين. آه من العقول الموثوقة. سحقنا القوانين، بعدما رشقت أعماقنا بغبار الدمار وأتربة التلف. ملعونة هي القوانين..

ألم تكن المدينة الفاضلة، أو (يوتوبيا) لثوماس مور بلا قوانين، ولا حروب؟

أفضلُ القوانين هي تلك التي خلعت ثوب قيودها.. أروع وأقوى الحروب هي التي لم تحدث، ولن تحدث. وأكثر السجون عدالة، هي تلك التي نسفتها يد الإنسانية، وأغلق أبوابها منطق الحق.. لماذا أنا؟

لماذا أنت؟

ابتلعت الرمال المتحركة فرحتك..

لماذا ترصدنا عيون الفضول كما يرصد الفلكيون النجوم، ويدققون في
تفاصيلها، ويسعون إلى هتك أسرارها؟ هل أصبح عشقنا موضوعاً
للدراسة، يبحث الآخرون في أدق تفاصيله؟

العشق.. خطيئة؟

القتل.. قوة؟

والسجون.. انضباط؟

وتشويه البشر.. فنون؟

وقمع الحريات.. هدوء؟

وقتل عشقٍ عذري،

أصبح أمن دولة.. ومصير أمة..

أنت.. ما زلت أنتِ. يا ملهمتي، يا صرخة مدوية خرجت من صمتي.

اشتيتك.. واشتيتك.. واشتيتك.

كم مرّغت شفتيّ بشفتيك

عشقُ الوطن بين ذراعيك..

عشقت جنون الوصول إليك..

بعدما أصبحت فنون العشق مهنتي.. اختفيت.

في عينيك تفاصيل قصتي..

ها أنا أنهار وأتمزق في وحدتي.."

بهذه الكلمات أنهى مالك مذكرته تلك الليلة. كان لا يزال يرتدي بدلته الرمادية. لم يتناول عشاءه، على الرغم من جوعه الشديد، كأنه يعذب جسده، كما تعذبت روحه.

وضع القلم على الطاولة، وارتقى على سريره، وقد بدا الإعياء واضحاً عليه، والقلق يتدفق في أعماقه كنهج جار. أغمض عينيه وراح يقول في أعماقه: "إنّ للأيام سخرية عجيبة، ازدراء غريباً للبشر، وإنّ عبثيتها تفوق قدرة العقل على التصور. كيف أقتل الظلم في داخلك يا حاكم دولة السراب؟ كيف أقتل جنون الحكم فيك؟ كيف طاوعك قلبك أن تشقيني هكذا؟ لماذا جعلتني أتأرجح بين حزن ويأس؟ إنه الحزن العميق على فراقها، واليأس من لقيانها. أفسخ من المشاعر الإنسانية إلى هذا الحد؟ سخرت من مشاعرك واحتقرتها، فلم ترتبط بامرأة بعد موت أمي. أهذا أنت؟ أكلّ هذا الجبروت فيك؟ قتلت فيّ الأمل والسعادة، ولم أستطع أن أقتل فيك شيئاً واحداً.. شيئاً واحداً فقط، وهو الظلم.. ظلم الناس وقهرهم. أنا الذي أردت أن أنصرك ظالماً أو مظلوماً. اقتلعتني من جذوري، وانجرفت تربتي، وتناثرت أوراق الجافة الصفراء، وذهبت إلى لا مكان.. إلى حيث لا أدري. ما هي جيلتك أيها الإنسان؟"

ما أصعب أن توقظك صرخات الألم، ولدغة الأحزان. أيقظته الأحزان من نوم استمر ساعة تقريباً. هو الذي كان على وشك منزلة عشق عنيد

متحد، ينازل الآلام.. هو الذي كان على وشك قطف ثمرة اللذة، تنقّص عليها الأحران لتبتلعه دفعة واحدة.

عجيب أمرُك أيها الإنسان.. لفرط آلامك لم تعد تشعر، أو تدرك غيرها. أصبحت الآلام أمراً عادياً، والسعادة ضرباً من الشذوذ، أو الجنون، أو الأوهام!

السعادة..

لفرط تفكيره فيها نسيها الإنسان. نسي مصطلحاتها، وكلماتها، وحروفها. لم يعد قادراً على استرجاع كلماتها، التي يبدو أنها سقطت من صندوق ذاكرته. أليس الإصرار على الاسترجاع يعطل الاسترجاع، كما يقول أطباء علم النفس؟

نسيها، وضلّ طريقها.. عجيب عقل الإنسان؛ ينسى عندما يرغب في التذكّر، ويتذكر عندما يرغب في النسيان!

نهض مالك من سريره، وما زالت بدلته الرمادية تلفّ جسده المتعب، تقدم نحو المرأة متباطئ الخطى. استوقفه لون بدلته.. اللون الرمادي. لون السكون والموت. الرماد.. تتركه الحرائق وراءها، بعدما تأخذ حاجتها مما ابتلعت، ولا تأتي عليه، لأنه لا يصلح أن يكون طعاماً لها. رأى نفسه كأنه مدفون في كومة من رماد الموت، ورماد السكون. واعتقد مالك أن هذا اللون مقدمة للأحران.

أليس لكل شيء مقدمات؟

لممارسة الحب مقدمات.. للحرب مقدمات.. للسلام مقدمات.. للدرس في غرفة الصف مقدمات.. للمرض مقدمات.. للموت مقدمات، وللمقدمات مقدمات.

حَقْد مالك على لون بدلته، كأنه عدوه، وكأنه قاده إلى إعصار شديد دَمَّر كل شيء.

في تلك اللحظة انتابه شعور بأن ذلك اللون يوحي بالشؤم، مثله مثل العديد من الأشياء التي يتشاءم منها الإنسان. أراد تفسيراً لما حصل معه، حتى لو لجأ إلى الخرافات. أيعقل أن يلجأ إلى الخرافات وهو الإنسان المتعلم والمثقف؟

هناك من يتشاءم من بعض الحيوانات، وهناك من يتشاءم من بعض الألوان.

للألوان، كما الكلمات، معانٍ ودلائل أيضاً، فاستخدم مالك اللون الرمادي في رسم البيوت القديمة، الآيلة إلى السقوط. لماذا ربط بين اللون الرمادي والسقوط على اللوحة؟ أكان يصوّر الواقع؟

واستخدم اللون نفسه في رسم جبال تعرّت عن أشجارها، وفي رسم الصخور. قد يكون اللون الرمادي لون الموت.. لون لا حياة فيه.. لون لا لون له.

في اليوم التالي، شعر مالك برغبة في زيارة عمر، ذلك الرجل الذي يُمطر توجيهاً، وإرشاداته، ومواعظه بغزارة. مالك الذي رأى الحكمة في ذلك السجين، أكثر مما كان يراها في نفسه.

ارتدى قميصاً أسود، وبنطلوناً أسود، وانتعل حذاءً أسود. اللون الأسود لون ينظر إلى الحياة بعين نصف مفتوحة، وبقلب نصف مغلق. لون يعالج الأحزان بالأحزان.

حمل معه علبة سجائر وشرطتين لياني وهائيدن، ومسجلاً صغيراً يعمل بالبطاريات.

سجن "السعادة والبهجة". سجن ذو ذراع تحاصر القهر والاستبداد، والموت البطيء، والموت السري.

أشعل مالك سيجارة، وهو يجلس جوار عمر الذي قال متعجباً:
- أصبحت تدخن.

أخذ مالك نفساً عميقاً من سيجارته، ثم أخرج الدخان بسرعة. استوقفه لون جدران الزنزانة. إنه اللون الرمادي.

جدران رمادية اللون، ملطخة ببقع سوداء. جدران قاسية، باردة، ظلمة، قاتلة. جدران حقيرة، متسخة.

أما آن لها أن تتخلص من قذارتها، وهذا السجين العظيم يسند ظهره إليها؟

أما آن لها أن تخرج من صمتها وتقول إن الزنانات ليست للعظماء وطالبي الحرية؟

واصل عمر يقول:

- تبدو مضطرباً ومرتبكاً.. إنك لا تحدثني كعادتك يا سيدي.

أجاب مالك، وهو يناول عمر الشريطين والمسجل الصغير:

- يمكنك أن تستمع إلى روائع ياني وهайдن متى شئت.

أمسك عمر المسجل والشريطين مذهولاً.

نظر إلى مالك وقال:

- ماذا أقول ومعروفك يخرسني يا سيدي العظيم؟

لم ينتظر. وضع عمر شريط ياني في المسجل وشغله، فابتسم مالك

ابتسامة حزينة وقال:

- أهى إهانة لروائع ياني أن يُستَمع إليها في سجن متخصص في القهر

والظلم والاستبداد؟

أجاب عمر:

- هي تلك.. يا سيدي...

قاطعه مالك بهدوء مجاور للحزن:

- لا تقل سيدي. لو كنت سيدك لأخرجتك من هذا المكان الحقير. أنت والسجناء الأسياد، لأنكم لم تستسلموا. عشم حياة لا تحملها البهائم ولم تستسلموا. ولكن قل لي، إلى متى ستبقى هنا؟
أجاب عمر:

- لو كان الإنسان يعلم الغيب لأخذ الاحتياطات اللازمة. اعتقدت أنك تعلم أكثر مني. نحن هنا دون محاكمة، ودون تهم واضحة ضدنا. أنت تعلم أن دولة السراب تخلو من المحاكم.
لاذ عمر بالصمت هنيهة، ثم واصل ساخراً:
- تماماً مثل (يوتوبيا) أو المدينة الفاضلة لثوماس مور...

قاطعهُ مالك بعدما أطفأ سيجارته:
- الفرق شاسع بين هذه وتلك، فالمدينة الفاضلة خلت من المحاكم والقوانين، لأن مور تخيلها مدينة تسود العدالة والمساواة فيها. أما دولة السراب فهي تخلو من المحاكم لغياب العدالة والمساواة فيها. أتدرك شساعة الفرق؟

هز عمر رأسه موافقاً، ثم قال مبتسماً:
- ربما يجب أن أهنئك على الزواج مرة أخرى.
أشعل مالك سيجارة أخرى. لم تكن لديه الرغبة في الحديث عن زواجه الذي لم يتم حتى في خياله لسبيين: صعب عليه أن يكشف ضعفه. مالك

الذي ينادي بحرية الفكر، وحرية القرار، يجد نفسه عاجزاً عن اتخاذ قرارٍ حاسمٍ في حياته. كيف يخبر عمر أنه لم يستطع أن يحمي الفتاة التي أحبته؟ وأما السبب الثاني، فكان الرغبة في نسيان ما حدث. إن الخوض في تفاصيل ما حدث، سيزيد ألمه وحزنه، فقرر مالك أن لا يخبر عمر بما حدث، رغم أن معظم الناس في دولة السراب عرف تفاصيل ما حدث. أجاب مالك باقتضاب:

- شكراً.

قال عمر متعجباً:

- تدخن يا سيدي، كأنك تفعل ذلك منذ سنين وليس منذ يوم أو يومين. أجاب مالك:

- التدخين يحرق الغبار في أعماقنا.. قد يكون من الغباء قول ذلك، ولكن هذا ما أشعر به. اللوعة في أن تضع سيجارة بين أصابعك، دون أن تشعلها، كلوعة الوقوف أمام امرأة جميلة، دون أن تجرؤ على لمسها.. نجد أنفسنا مسوقين، بقوى عجيبة، نحو أشياء لا سيطرة لنا عليها. فقال عمر:

- وهذا جزء من ضعفنا، ولكن ألا تجد أنه من الغريب أن يكون أمس هو يوم زواجك، وتأتي اليوم إلى السجن بشريطين لياني وهأيدن ومسجل صغير وطعام للسجناء؟ لا أفهم هذا، ولا أجد تفسيراً له...

قاطعہ مالک:

- وهل موضوع زواجي هو الشيء الوحيد الذي لا تفسير له في دولة السراب؟ هنالك أشياء كثيرة لا تفسير لها.. فمثلاً، أعطني تفسيراً لوجود الإنسان بشره وظلمه، وضعفه. أعطني تفسيراً لوجودي مثلاً.

اتسعت عينا عمر من الدهشة وقال:

- عفواً يا سيدي.. كلامك لا ترابط فيه. إنك تُخفي شيئاً يؤلمك، ويسبب اضطرابك. عندما تجد نفسك غارقاً في الحزن والألم، فلا بد لك أن تلجأ إلى حب الله. الأمل لا يموت فينا تماماً.. قد يحتضر الأمل في أعماقنا في وقت من الأوقات، ولكنه يعود ويحيا بقوة الإرادة. إن حتمية الموت تقضي على عبثية الحياة. قد تُضحِكُنَا الأيام لتحاييل على حقيقة الحزن في أعماقنا، ولكنها لا يمكنها أن تتحاييل على حقيقة زوال الكائنات الحية والأشياء مما يُفقدُها قيمتها. إننا آيلون إلى العدم، لذلك ليس هناك ما يستحق...

قاطعہ مالک مبتسماً:

- أنت عظيم يا عمر.. يقول عالم الاجتماع ديل كارنيجي: "النقد الظالم اعتراف ضمنى بقيمتك وقدرتك، وعلى قدر النقد الظالم الموجه إليك تكون قيمتك وقدرتك."

قال عمر:

- إذا بلغت أحزانك القمة، فيجب أن تشعر بالارتياح، لأن بعد وصولها القمة، ستأخذ بالهبوط، أو السقوط دفعة واحدة.

رد مالك بنبرة إعجاب:

- كلامك يُبهرني.. سأرسمك يوماً يا عمر. لم أفكر يوماً أن أرسم وجهاً لإنسان، ولكن سأرسمك أنت. فرشاتي تميل إلى رسم البحار الهائجة، والأشجار العارية، والبيوت القديمة، والأراضي القاحلة، أو أيد لا تطال مطلوبها. ربما أميل إلى رسم هذه الأشياء لأنها تعبّر عن الدمار الدفين في أعماقنا، أو البساطة.

قال عمر:

- يقضي الإنسان عمره كله بأيّد مرفوعة، لا تطال مطلوبها، وهذا جزء من ضعفه أيضاً. لو كان لي الحق أن أسألك يا سيدي...

قاطعهُ مالك:

- اسأل. اسأل ما شئت.

قال عمر:

- لو كنتَ حاكماً، هل كنتَ ستصّرّف كما يتصرّف حاكم دولة السراب؟
أجاب مالك باندفاع:

- بالطبع لا.

فقال عمر:

- تخالف بذلك نظرية عالم الاجتماع زيمبارد الذي قال: "إن السلوك يتغير بتغير الموقف." تلك النظرية التي أثبتتها تجربته الشهيرة، التي أجراها على مجموعة من الطلبة المتطوعين. قسّم زيمبارد الطلبة الجامعيين إلى قسمين، سجنّين وسجنّاء، وبعدما تقمّص السجنّون دور السجنّين، وتقمّص السجنّاء دور السجنّاء، كانت النتيجة أن تصرّف السجنّون بقسوة وعنف مع السجنّاء، الذين أصبح قسم منهم يعاني من الاكتئاب المزمن، والاضطراب النفسي، والخوف الشديد، وكأن الأمر كله لم يكن مجرد تجربة. هل يمكن القول إن الإنسان إذا ما تقمّص شخصية ما، يفقد، لا شعورياً، حقيقة نفسه؟ وإن كان الأمر كذلك، فإن العقل البشري يمكنه أن يأخذ أشكالاً مختلفة بتعدد الأدوار التي يتقمّصها الفرد؛ فيمكن لشخص هادئ أن يكون مجرماً سفاحاً، إذا تقمّص دور المجرم. ويمكن لشخص مفكّر ومبدع أن يكون تافهاً ساذجاً إذا تقمّص دور الأبله. أهذا ما وجده زيمبارد؟ إن كان الأمر كذلك، فإن العقل البشري، كالعجينة، يأخذ أشكالاً عديدة.

قال مالك مذهولاً:

- سأرسمك يا عمر. سأرسم وجهك الذي يضيء حكمة.. أعتقد أن الكاتب لا يمكنه أن يكتب رواية أو قصة دون أن يقع في الحب. في الحب قوة دافعة عجيبة.

أجاب عمر:

- هذا أكيد. الحب والحزن معاً يُنجبان رواية أو شعراً أو قصة. الحب وحده لا ينجب رواية، والحزن وحده لا يمكنه ذلك. تزواج عجيب بين الاثنين معاً يؤدي إلى الإبداع الفكري في الكتابة. الكتابة والرسم. هذا الحبر الذي يتدفق على الورقة البيضاء يغسل أعماق الفرد، كما يغسل المطر أوراق الشجر، فتبدو أكثر نضارة وأكثر قدرة على الاستمرار، وأكثر جمالاً. وما أن تتدفق الألوان على اللوحة، حتى تُخرج الرسام من صمته، وتجعل لوحاته تحدث شعوباً، على اختلاف لغاتهم. وقد يكون هذا الفرق بين الكتابة والرسم؛ فالكتابة قد تنحصر في لغة معينة، وقد لا تصل إلى الآخرين إلاّ عن طريق الترجمة. أما لغة الرسم، فلا تحتاج إلى الترجمة.. اللوحات تحمل ترجمة فورية ما أن ينظر الفرد إليها. إنها لغة تخترق العقول كافة. لهذا يشعر الشخص بالمتعة وهو يتأمل لوحة "عباد الشمس" لفان غوخ، وهو لا يتحدث أو يفهم الهولندية أو الفرنسية. وقد يجد المتعة نفسها، وهو يتأمل لوحة "أوداليسك" للرسام الفرنسي إنجريس، والشيء نفسه في لوحة "فابيو لا" للرسام الفرنسي هنر. وجه "فابيو لا" أروع ما أنتجت ريشة هنر، وهو رسام متخصص في رسم الوجوه. الرسم، كما الموسيقى، لغة تفهمها الشعوب كافة. تُرى ما الذي

يجعلك تحب الاستماع إلى مقطوعات بيتهوفن وفيفالدي الموسيقية، إن
أنت لا تتحدث الألمانية أو الإيطالية؟

فغر مالك من الدهشة فاه. كل هذه المعلومات يعرفها سجين قضى أكثر
من عشرين عاماً في السجن؟ إنه مدرسة فلسفية وثقافية. وراح مالك
يراهن في داخله على أن هذا السجين لو كان حاكماً، لتحققت رؤيته في
"المدينة الفاضلة".

نظر إلى عمر، وفي نفسه رغبة شديدة في إخراجه من السجن مهما كلف
الأمر، ولكنه ظلّ يتساءل عن كيفية إخراجه من السجن. أذهب إلى
والده، ويطلب منه أن يعفو عن عمر ويُطلق سراحه؟ أم يساعده على
الهروب؟ ولكنه سرعان ما أدرك عبث الأمرين، فحاكم دولة السراب لا
يتراجع عن قراراته نهائياً، ومساعدته على الهرب في دولة مكبلة بقيود
الحاكم بدا أمراً عبثياً.

لا تغيب عن الحاكم صغيرة ولا كبيرة، كأن دولة السراب كرة صغيرة في
يده. وخشية مالك من أن يكون مصير عمر كمصير سارة، جعلته ينسى
الأمر. فما أسهل أن يذهب الفرد في دولة السراب دون عودة! ما أكثر
فنون الاختفاء في دولة السراب! ما أكثر فنون إهمال العقول، وتقليص
مداركها!

سأل مالك:

- تحضرني الآن نظرية الاستعمال والإهمال لداروين. أعتقد أن الإهمال في استخدام بعض أعضاء الجسم يقلص حجمها كما قال داروين؟
ابتسم عمر وقال:

- ربما.. بعض نظرياته يبدو عجباً وغريباً، وقد لا يقبله العقل، وكتابه "أصل الأنواع" تعرّض لهجوم شديد.
فقال مالك:

- أصبح القهر سائداً في دولة السراب لدرجة أن الناس يقبلون ويرضون به.
أجاب عمر:

- هذا ليس صحيحاً يا سيدي. لو كان الأمر كذلك، لما رأيتَ سجيناً واحداً هنا. قد يقبل البعض القهرَ ويرضى به فيصبح القهر بالنسبة إليه أمراً عادياً مقبولاً، كما ورد في قول جوستاف لوبون، "توشك المخالفة التي يعم ارتكابها، أن تصبح رأياً سائغاً."

كان السجان عند باب الزنازة يسترق السمع تارة، ويسترق النظر تارة أخرى. ذُهل عندما سمع مقطوعة ياني الموسيقى، وراح يسأل نفسه: "موسيقى؟ موسيقى في السجن؟ إنه لأمر غريب عجيب. ما الذي يجعل ابن الحاكم يجري نقاشاً طويلاً مع هذا السجين؟ ما الذي يجعله يشتري الطعام والملابس للسجناء؟ ما نوع العلاقة التي تربط هذين الرجلين؟

ولماذا لا يريد أن يعلم أحد بمجيئه إلى السجن؟ إنها أمور تسبب الدوار، وربما الهذيان. "أفاق السجّان من دھوله وتساؤلاته، فغض بصره عنها. نظر إلى الأرض، فهي لا يجرّجها، ولا يربكها طول النظر إليها. وقف مالك فجأة، ثم قال:

- أشعر برغبة شديدة في الرسم. استمتع بمقطوعات ياني وهأيدن الموسيقية.. وداعاً يا عمر.

أجاب عمر مبتسماً:

- وداعاً يا سيدي.

لا يزال عمر لا يصدّق. تساءل في سره: "أيعقل أن يكون أمس هو يوم زواجه، ويأتي إلى السجن يُجري حواراً طويلاً معي هذا اليوم؟ الأمر غامض، لا أفهمه. بدا حزيناً عندما دخل الزنانة، ثم انقشع ضباب حزنه، أو هكذا شعرتُ."

وبينما كان مالك يخرج من الزنانة حدّج السجّان بنظرة أذهلته، ثم قال كلاماً، لم يدرك السجّان معناه بالتحديد:

- إذا أردتَ أن تنفّذ الأوامر بدقة، فتأكد أولاً أنها تصدر من المكان الصحيح، أو بالأحرى من الشخص الذي يحق له أن يُصدر الأوامر.

الترم السجان الصمت، وراح يتساءل في أعماقه إن كان كلام مالك إشارة ضمنية إلى عدم تنفيذ أوامر الحاكم. فقال السجّان في داخله: "يطلب ابن

الحاكم مني أن أدقق في مصادر الأوامر، كأنه يعيش في عالم آخر. ألا يدرك أننا لا نملك الحق في قول لا أو نعم؟ ألا يدرك أن عقولنا لا عقل فيها. ابن الحاكم هذا يثير جنوني."

نظر السجّان إلى عمر الذي كان يتناول طعامه، وموسيقى ياني تقتل صمت المكان بسحرها.

وبينما كان عمر يتناول طعامه، راح يتساءل مرة أخرى في سرّه: "ثرى ما سبب قلق مالك وارتباكك؟ ما سبب تدخينه المفاجئ؟ كلامه بدا غير مترابط أحياناً. ليتني أعرف لماذا أتى إلى هنا، وقد كان يوم أمس يوم زواجه. أكان مجبراً على هذا الزواج فأتى إلى هنا هارباً؟ أم جاء إلى السجن لأسباب إنسانية محضّة؟ لا أدري.. لا أدري. أكره أن أرى الحزن في عينيه، وهو الذي منحني عطفاً ورعاية ما كنت أحلم بهما. لا أشعر بأنه يقول لي كل شيء، رغم إعجابه الشديد بي كما يقول. لا بدّ للإنسان أن يخفي شيئاً أو أشياء، حتى عن أقرب الناس إليه. وهل أنا أقرب الناس إليه؟ لا يُعقل هذا.. يبدو أنني نسيت مَنْ أكون. أن يكون معجباً بمعتقداتي لا يعني أنني أقرب الناس إليه. هنالك أشياء لا يقوها الإنسان إلّا لنفسه، لأنها لا يمكن أن تُقال إلّا لها. وهنالك أشياء لا يقوها الإنسان إلّا لصديق ما، لأنها لا يمكن أن تُقال إلّا له. وهنالك أشياء لا يقوها

الشخص لا لنفسه، ولا لأحد على الإطلاق، لأنها جزء يُدْفَن في الأعماق.. جزء يملؤه إما بحزن أو بسعادة."

* * *

تواصل الأيام عبثتها..

بصمت يتعثر بظله، قاد مالك سيارته متوجهاً إلى ذلك الشاطئ، حيث كان يلتقي سارة، لعل ذكريات المكان تعطيه شيئاً منها.

ما سرّ الأماكن التي ترتبط بشخص نحبّه؟ لماذا تترك فينا أثراً عميقاً؟ أهو الحبيب، أم المكان، أم الارتباط بين الاثنين يترك فينا ذلك الأثر العميق؟ لماذا يوشك المكان الذي يرتبط بالحبيب أن يصبح جزءاً منه؟ ما سر هذه العلاقة العجيبة، التي قد تنشأ بين الإنسان والمكان؟ منذ الأزل ارتبط الإنسان بالأماكن فتغنى بها الشعراء، وبسببها اندلعت ثورة وجنون السياسيين.

ألم يكن مطلع مُعلّقة امرئ القيس نوعاً من ارتباط الإنسان بالمكان، وعشقه؟

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل

بِسَقْطِ اللَّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلْ

الأماكن..

لأجلها اندلعت حروب طويلة أو قصيرة الأمد، وجذب جماها ريشة
رسام، وقلم شاعر.

أسرّ هذه العلاقة أن الإنسان يميل إلى العودة إلى الوراء، وهذا ما يسمى
"نوستالجيا" أو الحنين إلى الماضي؟ قد يكون المكان باعث سعادة، أو
باعث حزن، حسب الذكرى التي ترتبط به.

نزل مالك من سيارته، وتوجه نحو الشاطئ حائراً. صورة سارة كانت
تخلّق في ذهنه. تلك الفتاة التي لم يعد يعرف عنها شيئاً. فقد شهيته
للطعام، كما فقد جسده شهوته لأجساد النساء.. إن لم تكن هي فلا
سواها.

ولكن.. ولكن.. أين هي؟

أين طلعتها المشرقة الآسرة؟ أين كل ما كان بينهما؟

أين كل الذي لم يحدث بينهما؟ أين ذلك الجنون العشقي؟

أسئلة تتعثر بعلامات السؤال.

هل يمكن أن تختفي الفتاة على عجل، ودون مقدمات؟

أليس لكل شيء مقدمات؟ أم هي حالة استثنائية؟ لا مقدمات لظهورها،

ولا مقدمات لاختفائها.

هذا المكان، الذي شهد أجمل لحظات عشقية جنونية، تغلفه الكآبة.

تدوس أقدام المتنزهين كل الذي كان من عشق جنوني. تحو أقدامهم كل

الذي حدث بينهما في ذلك المكان؛ فبعضهم يحضّر الطعام، ويحرك السفايفد الحمر على النار في الكانون، وبعضهم يحدّق في اللحم المشوي. لم يعد لهؤلاء همّ سوى الأكل.. وأي همّ؟ إنه أكبر همّ مثل هؤلاء. لو كان لديهم همّ غيره، لكانوا في الزنانة، كالتي يقبع فيها عمر.

رأى مالك رجلاً ثملاً، يترنح، فتساءل في سرّه: "بماذا يفكر هذا الرجل الثمل؟ وهل من أسباب دفعت هذا الرجل إلى السُّكر؟ هل زجاجة الخمر التي بيده هي وسيلة التعبير عما يحول في داخله، كقلم الكاتب، وفرشاة الرسام، وموسيقى الملحن؟"

رجال ونساء بأردية البحر يتعانقون، ويتبادلون القُبْل المحمومة، وامرأة جميلة يُقبّلها رجل بافتتان وشغف.

أطال مالك النظر إلى المرأة، التي كانت ترتدي رداء البحر. كانت شفتاها تلاحق شفتيّ الرجل بنهم شديد.

أدار مالك ظهره، ومشى على الشاطئ حزينا، مُحْبَطاً. حضره في تلك اللحظة قول جوستاف لوبون: "نقاد الأمم باستثارة شهواتها، أسهل مما تُقاد بالاهتمام بمرافقتها." ربا، هذا ما يَسُرّ حاكم دولة السراب حقاً؛ أن يغرق هؤلاء في شهواتهم، معناه أن لا يجدوا وقتاً للتفكير في القهر الذي يغرقون فيه، كأن الحاكم يقول لهم: "لكم التوافه، ولي الأمور الجليلة." نظر المتنزهون إلى ابن الحاكم فذهلوا لوجوده في ذلك المكان.

لم يستوقفه وجود الناس على الشاطئ من قبل، فلماذا يقف الآن مراقباً،
ومحلاً لسعادتهم، وطعامهم، وعشقهم؟ أيشعر بحسد في سرّه من غبطة
هؤلاء؟ أم يشعر بتفاهة هؤلاء الناس حقاً؟ تساءل مالك في أعماقه:
"تراني ماذا كنت سأفعل لو كنت مكانهم؟ هل سيتغيّر سلوكي بتغير
موقعي كما قال عمر؟ كم أنت عظيم يا عمر. قضيتَ ما يزيد على عشرين
عاماً في السجن دون شهوة، ولم يصلك من الطعام إلا القليل، وصمدتَ
أنت وباقي السجناء في وجه رياح الظلم، دون أن تصعد من أعماقك
صرخة ألم واحدة. ما أعظمك! وما أتفه هؤلاء! لم تقتلِكَ الرياح على
الرغم من قوتها، ولم تغرقك الأعاصير على الرغم من شدتها. معجب أنا
بقوتك وثباتك، وأندب قوتي التي قتلها ظلم دولة السراب. هؤلاء
يبتلعون اللذة، أما أنا فتبتلعني الأحزان واليأس. إني أستيقظ على مولد ألم
جديد.. سارة التي قضيتُ عليها بعشقي المجنون. أنا السبب لما حلّ بها.
شعور يمزقني. ما أصعب أن يكون الإنسان سبباً لتعاسة الآخرين
وبؤسهم! ولكن أين هي؟ إني لا أرى شيئاً في المستقبل. كيف أنظر إلى
المستقبل بعينين أصابهما عمى خيبة الأمل؟ لقد اختفى البصر."
زاده المكان بؤساً. داست أقدام هؤلاء المتنزهين ذاكرة المكان، ولكنها لم
تمحُها، فذاكرة الحب العميق لا تمحى.

فاحت رائحة شهوتهم وثمالتهم في ذلك المكان، فقضت على طهره.

حائراً عقله كان، وحزبتين عيناه كانتا..

عاد مالك إلى سيارته، ولم يعد دارياً إلى أين يذهب، ولا مع مَنْ يتحدث.
فراغ داخلي يتعمّق تدريجياً، فهل من مخرج من دائرة الفراغ الداخلي تلك؟
فراغ عاطفي جعله يشعر أنه يلتحف عاصفة هو جاء..

عاد إلى بيته بسفود وحدة ملتهب ينغرس في جسده. دخل الحمام، وخلع
ملابسه، وراح يستحم..

الماء الساخن يغسل بعضاً من أحزانه..

ورغوة الصابون على جسده تغلف آلامه، وتعصرها.
أَتَعْصُرُ الآلام؟ هي آلام الحب العميق التي تعصر الجسد وتمزّقه، وتلفّ
العقل بفوضى من الأفكار تقود إلى الضياع..
أيها الحب..

لماذا خُلِقْتَ فينا وحرّمت علينا؟

ما معنى أن يُهدى الإنسان شيئاً دون أن يملك الحق في استعماله؟ أي
بؤس هذا؟

تأمل جسده النحيل، وهو يلفه بروب الحمام، وحضره في تلك اللحظة
بيت من الشعر قاله قيس ابن الملوّح:

وقالوا به داء عياء أصابه وقد علّمت نفسي مكان دوائيا

ارتقى على الأريكة، ونظر إلى فرشاة الرسم، وخشبة الألوان. وجد في فرشاة الرسم شهوة عنيفة للرسم تفوق رغبة جسد لم يمارس الحب منذ زمن.. شهوة قوية تخرج من دائرة الاحتقان، تتوق إلى التفرغ، وإلى تهدئة الأعماق..

وقف مالك، وتوجه نحو اللوحة البيضاء، ورسم سِرْباً من الغربان، ورسم مجموعة من الأقزام، تنظر إلى الغربان، التي كانت تخلق في الهواء. تُرى من يَصْغُرُ في عين مَنْ؟ الغربان أم الأقزام؟ ثم رسم بئراً فارغة، وبالقرب منها يقف رجل، وهو يرفع دلوّاً فارغاً إلى فمه مبتسماً.. إنه يشرب الفراغ، حتى هؤلاء الذين يملؤهم الفراغ يشعرون بالسعادة.

الفراغ..

أحياناً يشعر الشخص برغبة شديدة في البحث عنه، والتحديد فيه.. التحديق في الفراغ. يبدو كلاماً غريباً. الرغبة في التحديق في لا شيء يُسمّيها البعض الخوف المرضي.. وما أكثر الخوف المرضي في دولة السراب!

مرّت بضعة شهور، مرّت بطيئةً بأحزانها، مُحِبَّة. خطر ببال مالك زوجة قائد الجيش الذي أُعِدِم مع الضباط الثلاثة. تُرى ما الذي ذكره بها بعد

مرور سنتين تقريباً على إعدامه؟ تُراه أدرك معنى أن يفقد الإنسان شخصاً عزيزاً، بعدما فقد سارة؟ تُراه شعر بالفراغ العاطفي الذي يتركه فراق إنسان عزيز؟ أم إنه شعر لحظتها أن عائلة قائد الجيش تحتاج إلى مساعدته ومساندته؟ إنه يدرك تماماً أن قائد الجيش والضباط الثلاثة تلقوا عقاباً قاسياً لا يستحقونه، فهو يرفض القتل، ولا يجد مبرراً له، مهما كانت الأسباب.

عَلِمَ في وقت سابق، أن اثنتين من زوجات الضباط الثلاثة قد تزوجتا، وأما الثالثة فتركت دولة السراب، واستقرت مع أولادها في دولة أخرى. في ذلك الصباح، وبينما كان يشرب قهوته الصباحية، نظر مالك إلى إحدى لوحاته.. لوحة البئر الفارغة، فقال في سره: "لو كان الفراغ في أعماقنا محصوراً، كالفرغ في هذه البئر، لبدا أمره منطقياً. لكن الفراغ في أعماقنا لا متناهٍ.. لا حدود له.. لا سيطرة لنا عليه، ولا منطق فيه. أحياناً يجد الإنسان نفسه فارغاً من قيم كانت تملأ أعماقه.. فارغاً من عاطفة متطرفة جامحة كانت تدره بسعادة عميقة.. فارغاً من كلام كان يقتل صمته."

بعد تأمله لوحة البئر الفارغة، التي رسمها قبل بضعة أشهر، وضع مالك فنجان القهوة الفارغ على طاولة مستديرة، وتوجه نحو بيت قائد الجيش الذي أعدهم مع الضباط الثلاثة.

قاد مالك سيارته في شارع "السؤال"، حيث يقع منزل قائد الجيش، وهو شارع فرعي.

غريبة، عجيبة هي الأسماء في دولة السراب. قيل إن مَنْ يسكن في منزل في هذا الشارع، لا يتوقف عن طرح أسئلة، دون أن يجد أجوبة عليها، لذلك سمّي شارع "السؤال".

أسئلة كثيرة مثل: لماذا بُلّيت دولة السراب بحاكمها الظالم؟ لماذا يغرق الناس في دولة السراب في الاستبداد؟

في طريقه نحو المنزل، تساءل مالك في سرّه عن رد فعل أرملة قائد الجيش عندما تراه، خصوصاً أنها تعرف مَنْ يكون. إنه ابن ذلك المستبد الذي قلب حياتها رأساً على عقب، وأغرقها في الجحيم. وفي داخله، كان مالك يجد لها كل الأعذار والمبررات لغضبها، وسخطها، ونقمتها على حاكم دولة السراب، وكل مَنْ له علاقة به.

دولة السراب..

نهبت منها الكثير، وأهدتها حزناً وقهراً عميقين. لها كل الأعذار إن قفزت عن صمتها، وأمطر لسانها عبارات الشتم، فهو في نظرها جزء من ذلك النظام المستبد، الذي أغرق البلد والناس في الويلات والأحزان. نقطة المركز في تلك الدائرة السوداء، الآخذة في الاتساع.

لا بُدَّ للفرد أن يقدّم ثمن كل شيء كي يحصل عليه، إلّا الحزن والقهر،
فهما يُقدّمان إليه مجاناً. هكذا تُهدي الأيام الحزن والقهر للناس.. بسرعة
البرق، وبسخاء حاتم الطائي..

ما أصرّك، وما أكرمك في أحزانك أيتها الأيام!

توجه مالك نحو الباب الخارجي للمنزل، وفي أعماقه بعض التهيب.
كيف يدرك الآخرون أنه غير والده؟ كيف يدركون أنه بعيد كل البعد عن
الاستبداد والظلم؟ فالفرع لا يحمل دائماً صفات الأصل.. لهم العذر فيما
جهلوا.

ضغط على زر جرس الباب وهو يتساءل: "هل ستكون المرأة بتلك الحالة
السيئة، التي رأيتهما فيها عندما أتت تودع زوجها، دون أن تودعه؟ هل ما
زالت تلبس ذلك الحزن، وذلك القهر؟ أم أنستها هموم دولة السراب ما
كان؟ فما أكثر المفاجآت المحزنة في دولة السراب! كيف عاشت؟ كيف
دبّرت شؤون بيتها وأولادها، وقد شربت كأس الظلم دفعة واحدة؟ هل
تُشفي الأيام من صدمته بفجعة تلو الأخرى؟ كيف أواجه إنساناً أشعر
أنني سبب مصائبه؟ وهل أبلغ في الشعور بالذنب؟ ربما.. فأنا عارضتُ
إعدام قائد الجيش والضباط الثلاثة. رفضتُ وما زلتُ أرفض الظلم
الذي يتعرض له الناس. ولكن.. لماذا أشعر أنني مذنب؟"

سَكَنَتْ أمواج التساؤلات في رأسه عندما رأى امرأة تفتح الباب. اتسعت عيناها السوداء وان دهشة. كانت امرأة ثلاثينية، جميلة الوجه، على الرغم من الحزن الذي بدا عليه.

ابتسم مالك ابتسامة مزوجة بالتهيب وقال:

- التقينا قبل هذا، أليس كذلك؟

شعرت المرأة بالدهشة، ثم بالخوف، وهي تنظر إلى ابن الحاكم، وراحت تتساءل في أعماقها: "ماذا يريد منا؟ ألم يكفهم ما فعلوا؟ ألم يكفهم الحال التي وصلنا إليها؟ إنكم تركضون خلف ضحاياكم، ليس حباً، وإنما إشباعاً لساديتكم، واحتفالاً بانتصاراتكم على الضعفاء، وموثوقي الأيدي والأرجل. ليتني أملك القوة والشجاعة كي أصفعه، وأبعدُ قذارته وقذارة والده عنا. ابن الحاكم؛ ابن ذلك المستبد الظالم الذي أوقعنا في الجحيم. أحييت شامتاً أم شاعراً بالذنب؟ وهل يعرف المستبدون الشعور بالذنب؟ إن ما يسمونها بالأعجاد لا تقوم إلا على دم مسفوك، وأشلاء مبعثرة، وخراب شامل."

تنهدت المرأة حزناً وقالت:

- أنا مُرغممة على أن أرحب بك في بيتي يا سيدي.. تفضل.

أحزنه كلامها، ولكنه ابتسم محاولاً تهدئتها، وقال:

- لا أحد يُرغمك على أن ترحبي بي في بيتك.. أدرك تماماً ما يحول في ذهنك.

لاذ مالك بالصمت..

هي ذاتها.. ذات المرأة التي رآها قبل ما يزيد على عامين. ما يزال وجهها مظلماً بالهموم.. يغلفه الحزن. جمال يدرثره الحزن والألم. إن الذين قالوا إن الوقت يمحو كل شيء أخطأوا. هناك أحزان لا يهزمها الوقت.. لا يتلعبها كما تتلعب النار الحطب. أحزاننا نكتبها في أعماقنا.. تتراكم فوق بعضها كتلة، فتثقل الصدور. هكذا عودتك الأيام أيها الإنسان.. أن لا تبخل عليك بأحزانها وبؤسها.

تنهدت المرأة مرة أخرى، وقد جمعت شتات أفكارها، ثم قالت:

- عفوك يا سيدي.. هل ستبقى واقفاً عند الباب؟

- لا أريد أن تشعرني بأنك مُرغمة على استقبالي.. وإن كان هذا شعورك، فسأغادر المكان فوراً.

قفزت ابتسامة على شفتي المرأة وقالت:

- نحن نريد أن نعيش بهدوء.. كفانا ما حلّ بنا. نريد أن نعيش بهدوء وأمان.

قال مالك مطمئناً:

- لك ما أردت.. ستعيشين بهدوء. لن يؤذيك أحد، لا أنت ولا أولادك.

وما أن طمأن المرأة، ووعدتها بالحياة الهادئة، البعيدة عن كل أذى، حتى سخر من نفسه، ومن كلامه.

ألم يقل الكلام نفسه لسارة، التي كانت تخشى بعض الأحيان من عواقب موافقتها على الزواج؟ ماذا فعل لها؟ أو بالأحرى، ماذا استطاع أن يفعل من أجلها؟ والآن يَعُدُّ هذه المرأة بحياة هادئة، لا يستطيع توفيرها لها. كم شعر لحظتها بأنه غير مسؤول عن كلامه، وأن كلامه كجبات الرمل. ما أن تهب رياح خفيفة أو قوية، حتى تتطاير هنا وهناك. كلامه كجبات الرمل، يتطاير هنا وهناك، لأنه لا قوة ولا ثقل فيه يجذبانهُ نحو الأسفل. رذاذ من الكلمات، يبقى معظمه معلقاً في الهواء.

لكن ما أشعره بالارتياح لحظتها، تقديمه المساعدة ولو بالكلام..

قالت المرأة:

- تفضل يا سيدي. لا يمكن أن تبقى واقفاً هنا.. تفضل.

ترحيب مدفوع بالخوف. دعوة تخرج من عباءة الضعف. لذلك قرر مالك أن لا يدخل. ليس في نيته أن يجبرها على استقباله. مَدَّ يده إلى جيبه، فأخرج مبلغاً من المال وبطاقة صغيرة، ثم قال:

- هذا مبلغ من المال لك وللأطفال، وهذه بطاقة عليها رقم هاتفي. أرجو أن لا تنفوتي عني سعادة أشعر بها كلما ساعدت طفلاً يتيمًا.

لم تصدق المرأة ما سمعت، ولولا أنها كانت تشعر بدقات قلبها تزداد سرعة من الدهشة لظنّت أنها تحلم. أيعقل أن يكون هذا ابن الحاكم؟ أهو جادّ فيما يقول، أم يستدرجها لشيء ما؟ لم يكن سهلاً أن تصدق ما قال، فقررت أن لا تقبل المال، وهي بحاجة ماسة إليه.

قالت المرأة كاذبة:

- لدينا ما يفوق حاجتنا من المال. شكراً لك يا سيدي.

غرقت في الصمت قليلاً، ثم واصلت:

- في دولة السراب يجب أن نعطي دائماً، ولم نعتد على أن نأخذ. فكيف بك تُلغي ما اعتدنا عليه منذ سنين طويلة في لحظات؟

على عكس ما كانت تتوقع وتخشى، أضاء وجه مالك إعجاباً بجوابها، لأنه شعر أنها قالت الحقيقة.

ابتسم الشاب وقال:

- سأعود يوماً ما.

غادر مالك المكان، وأوصدت المرأة الباب، وقد شعرت بخنجر الدهشة والاستغراب يطعنهما.

الفصل السابع

ريشة السماء تهجم بعقريه على لوحة الأرض، التي لوئتها يد الإنسان. إنها ترسم رسوماتها بجرأة متناهية، فتغدو الأرض لوحة أخاذه، أنتجتها ريشة الطبيعة.

ريشة السماء، ترسم باللون الأبيض. البياض الناصع. إنها بالثلج ترسم. لا يمكن لهذا الثلج، الذي يتساقط رضاباً أن يطفئ نار المعركة المشتعلة على الحدود الشرقية بين دولة السراب ودولة الضباب. برد قارس، وقتال عنيف فوق أراضٍ مفخخة بالموت، أو ببتير الأطراف.

الحرب.. تبدأ بكلمة عجل، وتنتهي بكلمة كسلى.
تبدأ برصاصة كلمة، وتنتهي بدمار الأرض والإنسان.
إنها تملأ الإنسان بالدمار، وتجعله يتكى على خراب.

جنديان يصارعان القذائف المعادية، بعدما فقدوا زملاءهما الذين قتلوا في وقت سابق، وبقيت الجثث على الأرض البيضاء.

تقدم أحد الجنديين، واسمه "مقاتل"، بعدما أطلق ثلاث قذائف متتالية باتجاه دولة الضباب، وقال متسائلاً:

- على ماذا نقاتل؟

أجاب الجندي الثاني واسمه "محارب":

- لا شيء.. ومنذ متى كنا نقاتل من أجل شيء ذي قيمة؟

ضحك مقاتل، وقال متسائلاً وهو ينظر إلى محارب، الذي أعدّ القذيفة للإطلاق:

- أين تسقط هذه القذائف يا تُرى؟

أجاب محارب:

- مكان سقوطها ليس مهماً.. المهم أن تسقط. المهم أن يُنفذ الأمر العسكري. ليس مهماً إن سقطت هذه القذائف على كهل يحتضر، أو امرأة تلد، أو على طفل مريض.. المهم أن تسقط كي نكون في حلٍّ من مخالفة الأوامر العسكرية.

أُطْلِقَت القذيفة الرابعة، ثم قال محارب:

- يبدو أن نيران مدفعية دولة الضباب قد خمدت.. لا يصلنا منها شيء.

قال مقاتل ساخراً، وهو ينظر إلى الجثث الملقاة على الأرض البيضاء:

- ربما لأنه لا يقوى على مقاومتنا أحد.. ولكن ما مصير هذه الجثث يا تُرى؟

أجاب محارب في هزء:

- جثث مدفونة في الثلج. لن تتعفن لأنها في ثلاجة وهبّتها السماء لها..
ثلاجة من صنع الطبيعة. ألا ترى أن عقولنا، نحن الأحياء، أشد عفونة
من تلك الجثث الملقاة على الأرض.

سأل مقاتل:

- ولماذا؟

أجاب محارب:

- لأننا نقاتل. لم أعد أذكر سبب هذه الحرب. أتذكر أنت؟

أجاب مقاتل:

- وكيف سأذكر إذا كانت الحروب في دولة السراب تندلع قبل معرفة
أسبابها. الحرب تبدأ بخراب الأعماق، وتنتهي بتلف الجسد.

سأل محارب والثلج يتساقط على وجهه:

- لم أعد أذكر في أي قرن نحن. أتذكر أنت؟

أجاب مقاتل وهو ينظر إلى قفازيه:

- جنوني يقول إننا في بداية القرن الواحد والعشرين.

ضحك محارب وتساءل:

- وكيف أصدق ذلك، إذا كان جنونك هو الذي يقول، وليس عقلك؟
أجاب مقاتل:

- وكيف تصدّق معتقدات نيتشه، الذي قضى عشرين عاماً في الجنون بسبب مرض الزهري الذي كان يعاني منه؟ حتى يُقال إن كثيراً من أقواله يوحى بالهوس، أو الجنون...

قاطع محارب:

- لفرط غرابة معتقدات وأفكار الفلاسفة، فإنهم يُتَّهمون عادة بالجنون. ولا أعتقد هذا، بل الجنون الحقيقي هو ما نحن فيه الآن. نقاتل ونُطلق قذائف مجنونة دون أن نعرف سبباً لهذا القتال المريع.

سأل مقاتل:

- أعتقد ذلك؟

أجاب محارب مستاءً:

- تسأل بغباء. نحن في وضع لا يُسمَح لنا فيه أن نعتقد شيئاً. تصلنا المعتقدات في القذائف التي بين أيدينا الآن، وبعد ساعات تسقط على رؤوس أشخاص لا نعرف عنهم شيئاً، حتى الاسم. هادئة هي القذائف بين أيدينا.. ومزلزلة، مدمّرة في رؤوس الآخرين.

تساءل مقاتل:

- ولكن يحيرني شيء، ونحن في دفء هذا الثلج الذي يكسو الأرض.

ضحك محارب وقال:

- دفء الثلج؟! كلامك عجيب كعجب هذه الحرب. ولكن ما الذي

يحيرك؟ سأحاول بما بقي من عقل جنوني أن أفكّك لغم حيرتك.

أجاب مقاتل:

- هل يشعر حاكم دولة السراب بالبرد القارس الذي ينخر أجسادنا يا

تُرى؟

توقف تساقط الثلج.

ضحك محارب، ثم أجاب وهو ينظر إلى السماء:

- إنه يشعر بدفء كدفء رجل في أحضان عشيقته. يحترق من القُبل

المحمومة.

ضحك الجنديان معاً، ثم سأل مقاتل:

- لماذا لم يتزوج الحاكم بعد موت زوجته يا تُرى؟

أجاب محارب ساخراً:

- يبدو أن فحولته قد ماتت بموت زوجته...

قاطع محارب:

- أكان يجبها إلى هذا الحد؟ أتموت رجولته بعدها؟

قال محارب:

- أعتقد أن الحاكم يجب أحداً؟ إنه كجدار من الإسمنت المسلح، لا تخترقه رصاصات الحب والعشق المحموم. ما أجمل الحب في جو كهذا؟ ضحك مقاتل، وقال ساخراً:

- الحب بمحاذاة المدفعية، ووسط إطلاق القذائف. أتجد أجمل من هذا المكان للحديث عن الحب؟ قال محارب:

- الحديث عن العشق بين القذائف كممارسة الحب في مقبرة. ضحك الجنديان معاً بصوت عالٍ. سأل مقاتل:

- أعشقت يوماً يا محارب؟ ابتسم محارب وأجاب:

- لم يتعثر بي الحب بعد. قيل لي أثناء التجنيد إن العشق الحقيقي والوحيد هو عشق دولة السراب. دولة السراب.. هي الوطن الذي لا وطن فيه، والدفء الذي لا دفء فيه، والأرض المغمومة بالمنافي. أصبح عشقي دولة السراب والحروب. لذلك سمّوني محارباً أثناء التجنيد، بدل اسمي الحقيقي، سامي. قيل لي إن اسم سامي لا يناسب شراسة الحروب. وأنا أقول إن القتال والسموّ لا يلتقيان أبداً، فالحروب لا سموّ فيها، لذلك قبلتُ الاسم الذي منحوني إياه. في التجنيد يغيرون معتقداتك،

وأفكارك، واسمك، وحتى جلدك إن أرادوا. لهم القدرة على مسح إنسان هادئ إلى وحش مفترس. عشقي أصبح دولة السراب...
قاطعته مقاتل:

- وحاجتك الجسمية والنفسية. الحب ضروري...
قاطعته محارب:

- أية حاجة هذه؟ إذا كان الحاكم لا يكثرث لحاجته الجسمية، فكيف سيكثرث لحاجتي للعشق؟ أنظر حولك إلى هذه الجثث الملقاة على الأرض. مَنْ يكثرث لها؟ لا أحد يكثرث لها سوى ذلك الثلج الذي تساقط عليها رحمة كي لا تعفن. أظن أن هذه الجثث محظوظة لأن الثلج غلّفها في الوقت المناسب.
قال مقاتل:

- أنت رهيب.

رد محارب:

- حاكم دولة السراب يكرّس كل طاقاته للمعارك والحروب.. الحُكم والنفوذ أهم أولوياته.
قال مقاتل:

- لم نعد نرى ابنه الوحيد. اعتقدتُ أنّ ابنه سَيَعَيُّ قائداً للجيش بعد إعدام قائد الجيش السابق والضباط الثلاثة. يُقال إنه كان يريد أن يتزوج

فتاة من عامة الناس، فاختفت الفتاة وعائلتها قبل أن يتم الزواج، وشاع هذا الخبر بين الناس. ويقال إن ابنه أصبح منطوياً على نفسه. فردّ محارب:

- ماذا نتوقع نحن من حاكم يد بطشه طالت حتى فلذة كبده؟ حاكم غارق في جنون القوة والحكم.

باغتتهما قذيفتان متتاليتان من جهة دولة الضباب، سقطتا على الجثث الملقاة على الأرض، فتبعثرت أشلاء الجثث. كأنه الموت بعد الموت. نظر الجنديان متعجبين إلى القذيفتين، وقال مقاتل:

- كِدْنَا نكون مثل هذه الجثث لولا رحمة السماء. قلتَ إن نيران مدافعهم قد خدت.. تقديرًا لك خاطئة.

سخر محارب وقال:

- أتجد هدفاً أدقّ من هذا؟ قذائف تفرس الأموات لا الأحياء. قذائف يبدو أنها قادمة من "منظمة إنسانية" تحترم حياة الإنسان أيما احترام. ولولا احترامها لحياتنا لَقَتَلْتُنَا.

ضحك مقاتل وقال:

- كلامك الساخر يثير الضحك والبكاء في آن واحد... ولكن، ألا يُجْزِئك منظر هذه الجثث؟ ألا يشدّ بؤسها نظر ناظر؟

أجاب محارب متهمكاً:

- ومن هو الذي تشدُّ نظره الجثث وجرحى الحروب؟ لو كان دمار الحروب يثير إنسانية أحد، لما شهد العالم حرباً واحدة.
سأل مقاتل:

- أترانا على حق في قتالنا المير هذا؟

فأجاب محارب بنبرة ساخرة، وهو يربُّ على كتف زميله:

- كأنك تسأل لماذا نقاتل؟ ليس المهم أن تكون على حق. المهم أن تقاتل، أن تستميت من أجل القتل. أعتقد أن الحروب المشتعلة في هذا العالم لها ما يبررها؟ حروب تندلع بهدف القتل والدمار.. أتجد أسمى من هذا هدفاً؟ دعنا الآن نطلق قذيفة أخرى، لعلها تنسف دولة الضباب، كي نبعد ونتخلَّص من هذا البرد القارس، وترتاح هذه الجثث التي أصبحت كالرمي، هدفاً لكرة القذائف المعادية.

سأل مقاتل مازحاً:

- أترانا كَمَن يلعب كرة القدم؟

أجاب محارب ساخراً:

- أعتقد أن الفرق الوحيد الذي أراه، هو أنه في ساحة كرة القدم يتم نقل الجرحى بسرعة البرق. أما في ساحة المعركة فتبقى ملقاة على الأرض، لأنها في آخر سلم الأولويات بالنسبة إلى صانعي الحروب. تُرى لو كان هؤلاء القتلى لاعبي كرة القدم، أكان لهم شأن آخر؟

أطلق محارب قذيفة.

فقال مقاتل:

- أكاد أجنّ من تشبيهاك...

قاطع محارب:

- لا تتحدث عن الجنون.. سمعت أن الحاكم وضع حجر الأساس لمستشفى جديد للأمراض العقلية في مدينة الوهم، أطلق عليه اسم "الاتزان العقلي". أيعقل أن يكون هذا الاسم اسماً لمستشفى أمراض عقلية؟ وهذا المستشفى الرابع الخاص بالأمراض العقلية في مدينة الوهم وحدها.

سخر مقاتل وقال:

- يفوق عدد المجانين عدد العقلاء إذاً.. الأمور على أحسن حال في دولة السراب.

فرد محارب متسائلاً في هزء:

- تُرى ما الذي يدفع الناس إلى الجنون، إذا كانت الأمور على أحسن حال في دولة السراب؟ ألا ترى أن الخلل في عقولهم، وليس في دولة السراب؟

فرّت صرخات الضحك من فمّهما، بعدما أطلقا القذائف باتجاه دولة الضباب. ثم لاذ محارب بالصمت.

سأل مقاتل:

- ما بك؟ أراك شارد الذهن.

أجاب محارب:

- للأساء دلالات معينة، ولكنها لا تمثل دائماً صفة حاملها. كان اسمي

عبد الحق قبل التجنيد، والآن فإن اسمي محارب. تحوّلتُ من عبد للحق

إلى عبد للحرب والقتل والدمار. لماذا لم يرقهم اسمي؟ لأنّ الحرب لا

حقّ فيها؟ نسينا أسماءنا، وسكّتنا بشاعة الحروب.

ابتسم مقاتل ابتسامة حزينة وقال:

- في التجنيد يصنعوننا كيفما أرادوا.

انقشع الضباب، وتمكنت المروحيات من الوصول إلى ساحة القتال. ما أن

رأى الجنديان الطائرة تحلق فوق رأسيهما حتى شعرا بالارتياح، لأنهما

اعتقدا أن الطائرة قادمة لنقل الجثث المدفونة في الثلج، أو ربما لتزويدهما

بالطعام. فقد كانا يشعران بجوع شديد.

قال مقاتل:

- ها هي الأيدي الرحيمة قادمة لنقل الجثث.

فأجاب محارب:

- ولتزوّدنا بالطعام. أشعر بجوع شديد. وأنت؟

أجاب مقاتل ساخراً، وهو ينظر إلى الطائرة، التي حطّت على الأرض:

- أشعر بجوع شديد لإطلاق القذائف. ألا تروك بسالة القتال؟ فما القتل إلا ذلك الجزء الحيواني منّا. دع ذلك الجزء الحيواني ينطلق.

فتساءل محارب:

- والطعام؟

قال مقاتل ساخراً:

- أي طعام هذا الذي تتحدث عنه؟ أعتقد أن جوعك وشبعك يهّمان أحداً؟

وما أن نزل الحاكم وقائد الجيش وعدد من الضباط، حتى غرق الجنديان في الذهول.

تساءل الجنديان في سرّهما عن سبب زيارة الحاكم المفاجئة لساحة القتال التي يكسوها الثلج والجثث المجمّدة. ماذا سيقولان للحاكم عندما يسأل عن وضع القتال؟ كيف سيقنعانه ببسالة القتال وكل هذه الجثث مدفونة في الثلج؟ ولكن سرعان ما أفنعا نفسيهما أن الحاكم لا يكثر لعدد القتلى والجرحى قدر اهتمامه باستمرار القتال، فخبرتهما في اهتمامات الحاكم قادتهما إلى ذلك التفكير.

أن تكون عسكرياً معناه أن توصل بإحكام أبواب النقاش والتساؤل والتحليل، خوفاً من الوقوع في فخ عدم صلاحيتك للقتال.

اقترب الحاكم من الجنديين بمعطفه الأسود، وقبعته المستديرة. كان يقول لقائد الجيش كلاماً لم يصل الجنديين شيء منه. وقف الجنديان بالقرب من المدفعية، لإيهام الحاكم ببسالة القتال وضراوته.

راح محارب يتذكر حكاية طوتها الأيام. كان أحد الجنود في ساحة القتال، فقام الحاكم بزيارة مفاجئة له وللجنود الآخرين الذين كانوا معه. لم يرق الحاكم الأداء القتالي لذلك الجندي، فاقتيد الجندي كالبهائم إلى مكان مجهول. وفي الأماكن المجهولة، يرى الإنسان أشياء تفوق حد الخيال. يموت الإنسان ألف مرة قبل أن يموت فعلاً. وعلم محارب أن الجندي تعرّض لتعذيب شديد، فكسرت أطرافه، و... و... و... قبل أن ينقذه الموت، كأنّ الموت أنقذه من الموت. عذّب الجندي ومات بتهمة عدم تطبيق القوانين العسكرية.

لا أسهل من قتل إنسان في دولة يمتّهن قادتها القتل.

وقف الحاكم قبالة الجنديين، ونظر إليهما بعينين كعيني الصقر، منتظراً الانقضاض على فريسة. أيهما الفريسة يا ترى؟ محارب أم مقاتل؟ الجنديان يرتعشان خوفاً منتظرين انفجار قبلة السؤال. أدى الجنديان التحية للحاكم ومن معه.

قال الحاكم:

- أرى أن القتال ليس كما يجب.

أجاب مقاتل وهو ينظر إلى الجثث على الأرض:

- انتصاراتنا لا تتوقف يا مولاي، وقدائفنا تتساقط كالأمطار على أراضي العدو. السيطرة لنا، وستبقى لنا يا مولاي.. أوقفنا زحفهم البري نحو أراضيها.

نظر الحاكم إلى الجثث بعينين فاحصتين، ثم قال:

- وكل هذه الجثث؟

أجاب محارب:

- مائة قتيل فقط.

تساءل الحاكم مستاءً:

- فقط؟

أجاب مقاتل:

- سقط هؤلاء وهم يوقفون الزحف البري لجنود العدو.

قال الحاكم وهو ينظر إلى قائد الجيش:

- أرى أننا نفق على عتبة الهزيمة. يجب تغيير إستراتيجية القتال. يجب

إعادة ترتيب صفوف الجنود.

ثم نظر الحاكم إلى محارب وواصل يقول:

- يجب أن تقاتل حتى آخر رمق في حياتك. لم نخض حرباً كهذه.

قال محارب:

- سقطت قذائفنا بغزارة على أراضي العدو، فأجبر جنودهم على التقهقر.
وقال مقاتل:

- سقطت قذيفتان للتو...

قاطعها الحاكم مخاطباً قائد الجيش:

- يجب إرسال الإمدادات العسكرية إلى هذه الجبهة فوراً. يجب حماية
حدودنا الشرقية بأكملها. نحن بحاجة إلى المزيد من الجنود.
فسأل محارب:

- والجثث يا مولاي؟

أجاب الحاكم:

- ستُنقل عندما يأتي دورها.. ستُنقل غداً.

قال قائد الجيش:

- أمرك يا مولاي. سنأتي بالإمدادات العسكرية فوراً.. وأعتقد أن توقف
تساقط الثلج سيسهل مهمتنا.

سقطت قذيفة أخرى من الجهة المعادية. ركض الحاكم وقائد الجيش
والضباط، ثم ولجوا الطائرة العسكرية. بعينين لاح فيهما التعجب
والتساؤل، نظر محارب إلى الطائرة التي ارتفعت، وراحت تحلق في الهواء.
نظر محارب إلى القذيفة الثالث، التي سقطت على إحدى الجثث وقال
متعجباً:

- قذائف تستهدف الأموات. ألا يثير هذا الدهشة والتعجب؟

قال مقاتل ساخراً:

- قذائف انتقائية. أصابت الجثث، ولم تُصب الحاكم ومن معه. محظوظ هو حاكم دولة السراب.. مغلف بعناية عجيبة.

قال محارب:

- هربوا إلى الطائرة، وتركونا نعاني القذائف المعادية بصدور عارية.

قال مقاتل:

- سيرسلون الإمدادات العسكرية قبل نُقل الجثث ودفنها. لم يعر الحاكم أهمية لهذه الجثث.

أجاب محارب بسخرية حزينة:

- ربما لأنه لا نفع منها. مَنْ في هذا العالم يكثرث لشيء لا نفع منه؟ أخبرني أنت. ما هي المنفعة التي تأتي من ميت؟ ألا ترى سبباً منطقياً لعدم اكترائه لهذه الجثث؟

قال مقاتل:

- هناك في بلاد لم أعد أذكر اسمها، يكافحون الإرهاب.

سأل محارب متغايياً:

- يكافحون ماذا؟

أجاب مقاتل:

- الإرهاء!!!!!!

قال محارب:

- لا أدري لماذا يحضرني نابليون بونابرت في هذه اللحظة. لماذا كان نابليون مولعاً بالقتال والحروب؟ هل صنع أمجاد فرنسا؟
قال مقاتل ساخرًا:

- كما صنع حاكمنا أمجاد دولة السراب.

ضحك الجنديان بصوت عالٍ، ثم لاذ مقاتل بالصمت دقائق. انتابه شعور غريب؛ شعور بحزن مفاجئ. شعر أن حياته وموته في نظر الحاكم كحياة أو موت حشرة.

ما معنى أن يكون الإنسان حشرة في ساحة المعركة؟

اقترب مقاتل من المدفعية، وبكى بصوت منخفض، ساندًا ظهره على المدفعية. شعر كأنه يسند ظهره إلى دمار أعماقه.

في ساحة القتال، كما في الحياة العادية، يجد الإنسان نفسه يفعل أشياء دون أن يعي. مثل ماذا؟ كتلك القذائف التي أطلقها الجنديان دون أن يعيا ماذا فعلت، وأين سقطت كتلك القذائف التي انطلقت من الجهة المعادية لتستهدف موتَ مَنْ مات. أكان يدرك مطلقوها أنها تستهدف حياة مَنْ لا حياة فيه؟

ارتفع صوت بكاء مقاتل، وقال بصوت عالٍ متهدج:

- أَقَدَرْنَا أَنْ نَعِيشَ كَالْكِلَابِ فِي بَرْدِ الثَّلْجِ؟ لِمَاذَا نَحْنُ نَقَاتِلُ؟ أَخْبِرْنِي
أَيُّهَا السَّمَاءُ.. لَمْ يَخْبَرُونَا، فَأَخْبِرْنِي أَنْتِ.. لِمَاذَا نَحْنُ نَقَاتِلُ؟ مَنْ مَسَخَنَا
مِنْ بَشَرٍ إِلَى ذُنَابٍ تَبْتَلَعُ حَيَوَاتِ الْآخَرِينَ؟ أَخْبِرْنِي أَيُّهَا السَّمَاءُ..
أَخْبِرْنِي. أَقَدَرْنَا أَنْ نَمْتَهِنَ الْقَتْلَ وَالتَّدْمِيرَ؟

غَرِقَ مِقَاتِلٌ فِي بَكَاءٍ هَسْتِيرِي، فَرَكُضَ مُحَارِبٌ نَحْوَهُ، وَعَانَقَهُ مَهْدِئاً إِيَّاهُ،
وَقَالَ:

- مَا الْأَمْرُ يَا مِقَاتِلُ؟ أَعْلَمُ أَنَّنَا فِي وَضْعٍ لَا تَحْتَمِلُهُ الْحَيَوَانَاتُ، وَلَكِنْ مَا
الْعَمَلُ؟ الْعَدُوُّ أَمَامُنَا، وَالسَّجُونَ السَّرِيَّةُ وَرَاءُنَا.. مَا الْعَمَلُ؟ كُلُّ مَنْ
يَرْفُضُ الْأَوَامِرَ الْعَسْكَرِيَّةَ، تَحْتَطِفُهُ السَّجُونَ السَّرِيَّةُ.. هُنَاكَ تَقَعُ كَارِثَةُ
الْكَوَارِثِ. هُنَاكَ يَكُونُ الْمَوْتُ مَلْغُوماً بِالْمَوْتِ. أَتَدْرِي كَيْفَ يَكُونُ الْمَوْتُ
مَلْغُوماً بِالْمَوْتِ؟

* * *

أَشْغَلَ بِالْمَالِكِ أَمْرُ أُرْمَلَةِ قَائِدِ الْجَيْشِ وَأَوْلَادِهَا، وَقَدْ أَثَارَ لِقَاؤُهُ مَعَهَا
فَضُولَهُ، وَإِعْجَابَهُ بِجَرَائِئِهَا الْمَلْفُوفَةِ بِالْحَذَرِ. مَا الَّذِي جَعَلَهُ يَذْهَبُ إِلَى تِلْكَ
الْمَرْأَةِ، وَيَعْرِضُ عَلَيْهَا مَبْلَغاً مِنَ الْمَالِ؟ أَكَانَ شَعُورُهُ بِالشَّفَقَةِ عَلَيْهَا، وَعَلَى
أَطْفَالِهَا الَّذِينَ ذَاقُوا مَرَارَةَ الْيَتَمِ؟ أَمْ شَعُورُهُ بِالمَسْئُولِيَّةِ بِشَكْلِ أَوْ بِآخِرِ تَجَاهِ
تِلْكَ الْأُسْرَةِ، الَّتِي سَحَقَهَا ظَلَمُ حَاكِمِ دَوْلَةِ السَّرَابِ؟

مرت الأيام والشهور، وقد أدرك مالك عبث البحث عن الفتاة.
واختفاؤها زاده حزناً واشتھاءً لها، وليس نسياناً.

وفي عصر ذلك اليوم من أيام الصيف، وهو يقف أمام اللوحة البيضاء، محاولاً رسم وجه عمر، تساءل مالك مرة أخرى عن السبب الذي دفع أرملة قائد الجيش إلى رفض المال الذي عرضه عليها. ألم تكن في حاجة إليه حقاً؟ أم رفضت المال بسبب مصدره؟ لماذا رأى في عينيها نظرات اللوم والعتاب تارة، ونظرات الكراهية تارة أخرى؟ ألم تكن تُدرك أن لا علاقة له بما يحدث في دولة السراب من قتل؟ وكيف تدرك ذلك؟ ربما لم يخبرها زوجها قبل إعدامه أن ابن الحاكم بعيد كل البعد عما يجري في دولة السراب من استبداد. أسئلة اجتاحت رأسه في السابق، والآن فإنه يسأل نفسه ذات الأسئلة، كأنه يدور في دائرة السؤال.

قرر أن يقوم بزيارة أخرى إلى منزل قائد الجيش، لعل أجوبة قاطعة تقتل علامات أسئلته.

وضع فرشاة الرسم على خشبة الألوان، دون أن يكمل وجه عمر. وجهه منقوص.. شبه وجه.. نصف وجه.. وجه بلا ملامح واضحة. هكذا تكون وجوه السجناء، بلا ملامح واضحة. ملامح مححوة..

نظر مالك إلى وجه عمر على اللوحة. سيكمله في وقت لاحق. هكذا قرّر.

وضع مالك مبلغاً من المال في جيبه، خُصَّص للأطفال الأيتام. شعور
بالسعادة ممزوجة بالحزن انتابه لحظتها، فالسعادة لأنه يساعد أيتاماً،
والحزن لكونهم أيتاماً.

مَنْ فَقَدَ أَبَاهُ فَقَدَ شعوره بالأمان..

وَمَنْ فَقَدَ أمه فَقَدَ شعوره بدفء الحنان..

وفاقد الاثنين، فهو فاقد لهذا وذاك..

فأي حياة تلك التي لا أمان ولا حنان فيها؟

استقبلته أرملة قائد الجيش، ربما خوفاً منه، وربما اطمئناناً له..

لم يكن في البيت ما يوحي أن لدى المرأة ما يفوق حاجتها وحاجة أولادها
من المال. البيت بسيط، ففي غرفة الجلوس يوجد بعض الأرائك
القديمة، وطاولة محاطة بكراس لا تتناسب مع الطاولة، من ناحية نوع
الخشب ولونه. وما أن رأى مالك ذلك، حتى قطع الشك باليقين؛
رفضت المرأة المال خوفاً وكراهية.

كانت المرأة في المطبخ تعدّ القهوة، بينما كان الأطفال يلعبون في حجرتهم.
تساءلت وهي تُعدّ القهوة: "ماذا يريد ابن الحاكم منا؟ سؤال لا يغادر
رأسي. أيعقل أن وضعنا قد أثار شففته علينا؟ ألا يعلم أنني أكره الشفقة
علينا؟ إنه شعور مهين. شفقة الآخرين علينا تثير شعورنا بالنقص. ماذا
أقول له؟ أقول له كل ما يجول في داخلي، أم أكون حذرة في الحديث

معه؟ لا بدّ أنه رأى بعينه وضعنا المادي المتدهور، وربما علم أنني بعث الأثاث الفاخر بأبخس الأثمان، وكيفما اتَّفَقَ."

تقدّمت المرأة، وهي تحمل صينية وعليها فنجانان من القهوة التركية، وكأس ماء. تأمل مالك حركتها الرشيقة في فستانها الأسود. كانت جميلة، أو هكذا بدتْ في عينيه. شعرها البني الطويل يتدلّى على كتفيها الصغيرتين كالشال.

غارقة في صمت عميق كانت.. أهكذا يُستقبل الضيوف؟ كيف يبدأ الحديث معها؟ تساءل مالك. أراد أن يدبّر حازج الخوف الذي يفصل بين تلك المرأة وبينه. تكوّنت الجملة الأولى في رأسه، وقفزت كلماتها على شفّتيه ولسانه، فقال مبتسماً تلك الابتسامة الوضاءة:

- يؤلمني ما حلّ بكم.. أنا هنا من أجل المساعدة.

- شكراً.

جوابها يدحض افتراضه من أنها تطمئن له. جواب قصير، من كلمة واحدة. جواب يشير إلى عدم رغبتها في الخوض في التفاصيل. كيف يُنطق صمتها؟ تساءل.

عينها تتقدان ذكاءً.. لحظتها شعر أنه ليس من السهل إقناعها بشيء تقريباً. وبإذا أراد أن يقنعها؟ بأنه لا علاقة له بما حدث لزوجها. ولكن.. ما الفائدة؟ انتهى كل شيء. أعدم قائد الجيش، ورحل إلى مكان مجهول.

لم تعد الكلمات تحمل قيمة ولا نفعاً. الكلام، كما النجدة، إن لم يكن في الوقت المناسب، فلا نفع فيه.

شرب مالك قهوته، بصمت، وهو يتساءل في سره: "كيف يخترق صمت هذه المرأة؟ كيف يبدأ بالحديث مع امرأة لا يعرف عنها شيئاً تقريباً." حضره في تلك اللحظة قول عمر عن القُبلة، وقدرتها على قتل صمت المرأة. أيقبلها كي يقتل صمتها؟ وكيف يقبل امرأة لا يشعر اتجاهها بأي شعور عشقي؟ يجب أن يعشق أولاً، كي يقوى على التقبيل..

ابتسم مالك وهو يتذكر كلام عمر. ابتسم كَمَن لا يرغب في الابتسام، فسرعان ما اختفت ابتسامته عن شفثيه اللتين تشعان إغراء وإثارة. وضع فنجان القهوة الفارغ على طاولة صغيرة أمامه. أراد أن يبدأ حديثه بسؤال. ربما لأن الأسئلة تثير النقاش أحياناً.. تثير الكلام المختبئ في صندوق الصمت.

سأل مالك:

- أتعلمين؟

أصلحت من جلستها، كَمَن يستعدّ للدخول في نقاش طويل، وأجابت بسؤال يبرق بالتعجب:

- ماذا تعتقد؟

الكلمة أصبحت كلمتين، فكّر مالك مرة أخرى. إنها في الطريق لتفجير قنبلة الصمت بالضغط على زر الكلام. أجابت سؤاله بسؤال آخر. شعر كأنه معلق على حبال الأسئلة. ذكاء سحق علامة السؤال بعلامة سؤال أخرى. تعجبه المرأة الذكية. لم يدر لماذا كانت تتحدث معه بهذا الغموض، وقد تحدثت معه بوضوح في المرة السابقة. ألا تزال تخشاه؟ أتتوقع منه الأذى؟ شعر مالك بأنه في لعبة شطرنج، قبالة امرأة شبه غامضة.

سأل مالك مرة أخرى:

- أقصد هل تعملين عملاً تكسبين منه؟

لاذت المرأة بالصمت برهة، وقد شعرت أنه يوقظ أحزانها من سباتها، ثم تسلقت نظراتها وجهه وسألت:

- ماذا ستعمل امرأة مثلي؟

تساءل مالك متعجباً:

- امرأة مثلك؟ وما بك؟

"انطلق الكلام من قاعدة الصمت"، قال مالك في سرّه.

أجابت المرأة:

- بسبب ما حدث لزوجي. لم أستطع أن أعمل، أو بالأحرى رُفِضَ طلبي للعمل.

سأل مالك:

- ولماذا؟

تعجّبت المرأة من سؤاله. يسأل كأنه ليس من الطبقة الحاكمة.

أجابت:

- رُفِضَ طلب عملي بأمر حاكم دولة السراب. لا أحد يجرؤ على قبول

طلب العمل. لا عمل لي، وأنا حاصلة على شهادة جامعية في الاقتصاد.

هز مالك رأسه، متأثراً بكلامها، ثم أردفت تقول:

- لا نعيش بمنطق الشهادات والدرجات العلمية. نعيش بمنطق "مَنْ

أَنْتَ؟" فقط.

أحنى مالك رأسه موافقاً، وسأل:

- ولكن كيف تعيشين؟

أجابت المرأة بصوت حزين النبرات:

- نفذ المال الذي كان لدينا، والآن نعيش على ما يصلنا من الصدقات.

كما افترض، رفضت أن تأخذ المال خوفاً.

سأل مالك سؤالاً عرف جوابه:

- عندما قدّمتُ إليك المال، لماذا رفضتِه؟ ولماذا قلت إن لديك من المال ما

يفوق حاجتك؟

أجابت المرأة بعد صمت:

- وماذا أردتني أن أقول؟ كان لا بد لي أن أرفض مالا تقدمه إليّ، وأنت، عفوك، ابن الحاكم.

سألها:

- وماذا في ذلك؟ إن كنت ابن الحاكم، أو كنت إنساناً عادياً، فلا فرق برأيي. كل ما يهمني أن أقدم المساعدة. أسبابي إنسانية محض. وجدت المرأة في حديثه ما يريحها، ويشجعها على مواصلة الحديث بشيء من الجرأة والحرية فقالت:

- كنت أخشى من المقابل، يا سيدي.

تساءل:

- المقابل؟

أجابت:

- أجل. لم نعتد في دولة السراب أن نأخذ شيئاً دون مقابل، حتى غدا هذا الأمر سلوكاً شائعاً سائغاً بين البشر، فالمقبول والشائع أن يتوقع الفرد مقابلاً لكل شيء، وأما العجيب أن لا يتوقع مقابلاً لشيء ما، مهما قل شأنه. لا شيء دون مقابل، وغدوتُ أحسبها بهذه الطريقة. أعتقد .. هكذا يجب أن تكون حساباتنا، غاية في الدقة.

استمع مالك إليها وقد غلفته الدهشة، وأعجبه احتقارها للمبادئ السائدة في دولة السراب.

ما هو جيد أصبح سيئاً، وما هو سيء أصبح مقبولاً وشائعاً. قُلِبَت المعايير
والموازين بطريقة عجيبة.

قال وهو يناولها مبلغاً من المال:

- أرغب أن أساعد أطفالك الأيتام. أتمنى أن تأخذني هذا المبلغ.

نظرت المرأة إلى الشاب، وراحت تقول في سرها: "لماذا أقبل هذا المبلغ
منه؟ أيعقل أن يفعل ذلك دون مقابل، في دولة تضع لكل شيء ثمناً؟ تُراه
ماذا يريد مني؟ هل أقبل هذا المبلغ المالي، أم أطلب منه أن يغادر المنزل
على الفور؟ لا أدري ماذا أفعل."

أردف مالك يقول، محاولاً طمأنتها:

- لا تخافي. لا مقابل لهذا المبلغ.

مدت يدها بتردد، وأخذت الأوراق النقدية، والشك يرتسم على وجهها.
ابتسمت ابتسامة غامضة. ابتسامة يختلط فيها الشك بالامتنان. كيف
يختلط الشك بالامتنان؟

إنها فوضى من المشاعر تحتاج الإنسان أحياناً. تشكّ في نواياه، وتشكره في
آن واحد. تخاف منه، وتشعر بالارتياح معه في الوقت نفسه.

قالت متعجبة:

- أشياء غريبة تحدث في دولة السراب.

أدرك معنى كلامها. كأنها تصدّق ولا تصدّق.

أجابها:

- أنا صادق في قلبي، وسَتَرْتَن. هذا المال للأطفال. احسبها هكذا.
حساباتك دقيقة، أليس كذلك؟

تنهدت المرأة، ثم غرقت في الصمت، وتساءلت في أعماقها: "ما سرّ ملاك الخلاص هذا؟ أهو صادق كما يقول؟ هل يستدرجني لشيء ما؟ ماذا لو كان يستدرجني لشيء ما، لا أعرفه.. أجهله؟ أهو ملاك؟ أم شبح؟ رأسي ينفجر. ليتني أصدقه.. ليتني أخترق أعماق نواياه. لماذا يفعل معي هكذا؟ رأيته يبكي عندما أُعِدّ زوجي، كالمرأة النائحة، ولم أكثرث لبكائه. أكان رافضاً حقاً ما جرى لزوجي وللضباط الثلاثة؟ أهو خارج هذه الدائرة السوداء، التي عاثت بدولة السراب فساداً؟ لا أدري ماذا أفعل. شيء ما في أعماقي يقول لي إنه صادق. أعلم أنه درس العلوم العسكرية. أيّمكن أن تنجب العلوم العسكرية ملاكاً كهذا؟ إنها لا تنجب إلاّ القتلة. يا دولة السراب.. يا دولة المتناقضات. هذا الملاك الذي يجلس قبالي ابن ذلك المستبد، ذلك السفاح. الأشياء الغريبة والعجيبة في دولة السراب تتدفق كماء النهر. شيء ما يدفعني إلى أن أصدقه."

وضعت المرأة المال على طاولة صغيرة، كانت موضوعة قبالتها، ثم قالت:
- معروفك يخرسني. لا أدري كيف أشكر. اختفت كل كلمات الشكر.
لا أعتقد أنني سأبقى في دولة السراب دون عمل. سأسافر إلى السويد...

قاطعها:

- السويد؟

أجابته:

- والداي وإخوتي يعيشون في ستوكهولم. أنا أتحدث السويدية بطلاقة. لا يوجد ما يجبرني على البقاء هنا، في هذا الوضع المادي السيئ. ما أصعب أن لا يشعر الإنسان بدفع الوطن! ما أصعب أن يموت الإنسان من شدة البرد في أفران الوطن! إنها غربة الذات عن الذات. قد أجد في ثلوج السويد دفئاً، بدلاً من هذا البرد القارس في مدافئ دولة السراب.

لمعت الدموع في عينيها الجميلتين، لكنها لم تبك. لم تنهمر الدموع على خديها المتوردين. في ضعفها كبرياء عنيده. في صمت بكائها كبرياء متصاعده. وفي حزن وحرارة دموعها أبواب موصدة على الأحزان، وأبواب مواربة على الحرمان، وأبواب مفتوحة على يُتَم الأوطان. لم يرَ في سفرها إلى السويد ضعفاً.. إنه قوة الهروب، وتصالح مع الذات. لا يمكن أن يتصالح الإنسان مع ذاته بين أمواج الاضطهاد والقهر المتلاطمة.

وبينما كان يتأمل الحزن على وجه المرأة، عادت به الذاكرة إلى قول لسارتر، زعيم الانفرادية، الذي قال: "أنت موجود، وأنت وُجِدْتَ، لكنك تتناول وجودك هذا بعقلك ويدك، فتصوغ نفسك، وتستخرج أو تستخلص

جوهرك." هذه الدعوة الصارخة لاستخدام العقل، والتركيز على التفكير، الذي يؤدي إلى العمل. أينطبق قول سارتر على هذه المرأة؟ هل تصوغ نفسها بقوة عقلها، وتستخرج جوهرها، بعيداً عن وطن ماتت أمومتها وأبوتها؟

خرج الأطفال من حجرتهم، يضحكون، ثم ركضوا باتجاه أمهم. الطفل الأول في العاشرة، والثاني في الثامنة. وأما الطفلة فكانت في الخامسة. نظرات الاستغراب والدهشة تنطلق من عيونهم نحو مالك، الذي مديده نحو الطفلة متبسماً. فعانقت الطفلة أمها خوفاً. كم أحرزته ذلك الحزن الدفين في وجوه الأطفال. لا شيء يُحزنه ويؤلمه كطفل حُرِم من والديه أو من أحدهما. إنه ألم الحرمان، ووجع الفقد. هؤلاء الأطفال يحملون "ذنب" والدهم عبئاً ثقيلاً كصخرة على أكتافهم. مَنْ يقوم بإعادة إعمار أعماقهم التي دمرها الحرمان وفقد الأمان؟ أعماق مدمّره، وخراب داخلي شامل..

وبينما كان مالك ينظر إلى الأطفال، عادت به الذاكرة إلى طفولته، حين اعتقد لفترة من الزمن أن مربيته هي أمه. لم يعرف الحقيقة إلا عندما بلغ العقد الأول. كم أحرزته أن لا يكون كغيره من الأطفال الذين يخرجون من ظلمة الرحم إلى النور المنبعث من عينيّ الأم.. إلى دفء ينطلق من صدرها كي يُسكِت صرخاتهم الأولى.. إلى ترحيب منطلق من قبلاتها.

أما مالك، فقفز من ظلمة الرحم إلى عتمة الحياة، ومن استرخاء في
الدفع إلى رعشة في البرد، ومن وحدة في الرحم إلى وحدة في الحياة
عميقة، مؤلمة، قاتلة.

غربة طاعنة في طفولته..

صرخات شبه مخنوقة..

برد لا يموت..

قُبَلات الحياة تعثرت ببرد الجسد..

رُصَّت الأحزان كما تُرَصَّ الصفوف..

كاد يبكي، لكنه تمالك نفسه، فعادت صرخات البكاء إلى الأعماق كَمَنْ
يبلع السم. كم كان في حاجة إلى البكاء في تلك اللحظة.. بكاء حد
الصراخ.. بكاء حد الهوس.

بعض الأحيان، يكون الرجال أحوج إلى البكاء من حاجة النساء إليه.

كم هو مؤلم بكاء الرجل! عندما ترى رجلاً يبكي، تدرك من النظرة
الأولى أن حزناً عميقاً، مؤلماً، قاتلاً قد تسلل إلى أعماقه.

أما المرأة، فلبكائها أسباب عديدة. قد تكون الأسباب تافهة، وقد تكون
مؤلمة.

لا يُسأل الرجل عن سبب بكائه، لأن الجواب يقفز من ألم دموعه. أما

المرأة، فلا تنفك تسألها: "لماذا تبكين؟"

الدموع تغلّف العيون بغشاوة حمراء، وتغلّف القلوب بالصفاء والنقاء..
وجوه هؤلاء الأطفال، مرآة يُتمه وأحزانه..
وقف مالك، هارباً من ذاكرته، ومضى.

وفي طريق عودته إلى منزله، تستوقفه مقبرة "الحياة" العسكرية. ما هذا
الاسم؟ أين هي الحياة في مقبرة؟

ركن مالك سيارته، وخرج منها، ثم راح يتأمل شساعة مساحة المقبرة
وقال في سره: "كم من الجثث ابتلعت أيها التراب. كم من الأسرار
احتضنت. كم من الأصوات كتمت. تبدو منتفخاً بأسرار وحكايات مَنْ
فيك أيها التراب. ما سرّك أيها الموت؟ ما تفسير وجودك؟ فمنذ الأزل
والإنسان يحاول عبثاً فض بكارة أسرارك. أليس الموت الطبيعي نوعاً من
أنواع القتل؟ قتل الحياة. ولماذا سُميت هذه المقبرة بهذا الاسم يا ثرى؟
أيقصد بهذا الاسم الحياة الأخرى؟ أم موت الحياة؟ هل حذف مَنْ وضع
هذا الاسم على باب المقبرة كلمة "موت" ووضع كلمة الحياة لحاجة في
نفسه؟ أي منطق في اسم كهذا على بيت الموت؟ أليست المقابر منفضة
الآلام؟ أليست المقابر مطفأة الأحزان؟

أيها الموت..

لا تخشانا.. ونخشاك.

تقهرنا.. ولا نقهرك.

تسحقنا.. ولا نسحقك.

وتسخر منا، ومن أفراحنا، وأحزاننا.

وتأتي بغتة، مرتدياً ثوب الحق!

لا أدري لماذا أرى الحياة كصورة يحيط بها إطار، يتدحرج عليه الإنسان
ببؤسه وحزنه وسعاده. فلا هو في الصورة، ولا هو في الفراغ المجاور
للإطار..

أي شحّ في الوجود هذا؟"

فاحصتين عيناه كانتا..

متسائلاً عقله كان..

عاد مالك إلى سيارته، وتوجه نحو منزله.

ما تزال السجون في دولة السراب تغرق في العتمة والصمت. تنطلق منها
صرخات الاحتجاج مخنوقة، لا يسمعها أحد. مَنْ يَسْمَعُ ما يُقال سراً؟
مَنْ يسمع صرخات انفجرت في الأعماق؟ وَمَنْ يفهم كلاماً لم يُحك؟
هكذا هي السجون.. لا تُسمع صرخات الألم والاحتجاج فيها.

ولكن.. ولكن تشاء الأقدار أن تتعثر منظمة إنسانية بصمت سجون دولة
السراب. تشاء الأقدار أن تسمع هذه المنظمة ما لا يُسمع ولا يُقال في
السجون.

أي مصادفة هذه؟ تأتي هذه المنظمة إلى دولة السراب بعدما انتهت حروبها السابقة. تأتي في زمن الصمت..

لم تكن زيارة كهذه في حسابات ولا توقعات الحاكم. ففي أحد الأيام، صُعبَ الحاكم بطلب تلك المنظمة لزيارة السجناء بهدف الاطلاع على أحوالهم في السجون.

كان الحاكم يجلس مع أحد مستشاريه يناقش موضوع المنظمة الإنسانية. قال المستشار:

- منظمة إنسانية دولية تُطلق على نفسها "النور للسجناء" تطلب أن تلتقي مع السجناء في السجون. لماذا في دولة السراب؟ لا أستطيع أن أحدّد.

تساءل الحاكم متعجباً:

- ما الذي دفع هذه المنظمة كي تطلب زيارة السجناء في هذا الوقت بالتحديد يا تُرى؟

أجاب المستشار:

- لا أدري بالتحديد. لكن يُقال إن تلك المنظمة تصلها بعض المعلومات عن خرق القوانين الخاصة بحقوق الإنسان، وانتحار بعض السجناء، وممارسة تعذيب وحشي في السجون...

قاطعهُ الحاكم كمن لا يريد أن يستمع، وقال كلاماً غريباً:

- هذه المنظمات ليست عادلة.

لم يتمالك المستشار أن نكس ذقنه قليلاً، كي يداري ضحكة كادت تفرّ من فمه، عندما تحدث الحاكم عن العدالة. خنق ضحكته، وماتت في أعماقه، ثم نظر إلى الحاكم الذي أردف يقول:

- إنها تتحدث وتطالب بحقوق الإنسان، وتتغاضى عن واجباته. خليق بهذه المنظمات أن تؤسس منظمات أخرى تطالب بواجبات الإنسان، كي تتعادل كفة الميزان.

قال المستشار:

- تقول هذه المنظمة: "إن واجبات الإنسان نحو الدولة، تحققها السياط، لا المنظمات. لذلك لا يوجد أحد تقريباً يجرؤ على التهرّب من أداء واجبه نحو الدولة. نحن في المنظمات الإنسانية نركز على الحقوق التي تقتلها السياط، وليس الواجبات التي تُحصّل بقوة السياط..."

قال الحاكم غاضباً:

- سأصدر أمراً رسمياً يقضي بمنع منظمة "زعزعة الاستقرار" هذه من مقابلة السجناء. ألا تدرك هذه المنظمة أن سجناءنا يعيشون حياة رائعة، كأنهم يقيمون في فنادق فخمة؟

ضحكة مخنوقة أخرى يلتهمها صمت الأعماق، وكلمات يلتهمها الخوف. "سجناء دولة السراب في فنادق فخمة؟" تساءل المستشار.

راح المستشار يتذكر حادثة حدثت في سجن "العطف والحنان" قبل سنوات، أخبره بها أحد أصدقائه، الذي كان مديراً للسجن آنذاك. إنها حكاية سجين سياسي قضى شهوراً تحت سياط التعذيب. ففي الشتاء كان سجّانوه يصبّون الماء الذي يحتوي على مكعبات ثلج على جسده العاري. وفي الصيف، كانوا يصبون على جسده الماء المغلي، فتفرّ صرخات الألم التي لم يسمعها أحد، فتموت في صمت الجدران، فالسجّانون، كمن لا آذان، ولا عيون لهم، كانوا يواصلون جلسات التعذيب باستخدام السوط، وأدوات أخرى. فما أكثر أدوات التعذيب! ضُرب السجين على أماكن حساسة في جسمه، وتقرّحت الطبقة الخارجية من جلده، كما يتقرّش دهان الحائط. ومع مرور الوقت، أصبح ذلك السجين يعاني من اضطرابات نفسية، فتم نقله إلى مستشفى للأمراض العقلية، ولا يزال يقيم فيه، كأنه انتقل من فندق إلى آخر حسب مفاهيم الحاكم.

هذه هي الفنادق في دولة السراب..

هناك نوعان من الفنادق الفخمة في دولة السراب.

فالسجون هي النوع الأول، ومستشفيات الأمراض العقلية هي النوع الثاني.

أخذ المستشار نفساً عميقاً بعدما أفاق من شroud ذهنه، ثم وقف كالمسار، مستعداً لمطرقة الحاكم الكلامية.

قال المستشار:

- كما تريد يا مولاي.

رد الحاكم قائلاً:

- ستتسلم المنظمة رفضنا الرسمي في غضون أيام.

أحنى المستشار رأسه وقال:

- أمرك يا مولاي.

نظر إلى الحاكم، ثم مضى..

دخل الحاكم في عباءة التفكير. تساءل مرة أخرى عن سبب ظهور المنظمة الإنسانية: "هل وصلتها أسرار سجون دولة السراب؟ وإن كان الأمر كذلك، فستغرق الدولة في بحر الفضائح. ولكن كيف تم ذلك؟ هل استدعي مالكا، واستوضح الأمر منه؟ ولماذا يُقلقني أمر هذه المنظمة الإنسانية؟ لم تُقلقني الجيوش، فكيف تثير قلقي منظمة كهذه؟ إن مَنْ يستصغر قوة الجيوش، لا يجد في منظمة إنسانية أمراً عظيماً. إن هذه المنظمة، التي تطالب بحقوق الإنسان لا تفهم في الطبيعة البشرية شيئاً. ومبادئ الحرية التي تنادي بها، تحوّل الإنسان إلى حيوان لا يَنْضبط. لا تدرك أن ضبط الشعوب لا يتمّ إلاّ بقمعها، وقهرها، بل وطحنها."

في تلك اللحظة، اتخذ الحاكم قراراً يتعجّب منه العجب. لكن لا شيء عجيب في دولة العجائب، ودولة المتناقضات، ودولة تغرق في الأسئلة.

قرر الحاكم فجأة أن يتم تحديد فترات أحكام السجناء؛ ففي السابق، كان السجناء يسجنون دون تحديد فترة أحكامهم، ومن هذا القرار، الذي قد تكون مطالب المنظمة الإنسانية سبباً في اتخاذه، يستفيد العديد من السجناء، ومن بين هؤلاء السجناء عمر، الذي قضى ثلاثاً وعشرين سنة، يقضي القرار بأن يُطلق سراح مَنْ قضى أربعاً وعشرين سنة أو أكثر في السجن. بهذا القرار يبقى من فترة حُكم عمر سنة واحدة.. هكذا تأتي الأمور، مصادفة في دولة السراب..

أيمكن لمنظمة إنسانية أن تحقق أمراً، لم تحققه الحروب والجيوش؟ بينما كان الحاكم غارقاً في التفكير، ولج مالك القصر بهيئة غريبة، وبمنظر يثير التساؤل؛ فقد أطلق لحيته وشاربه، وملابسه نقصها الترتيب. نحل جسده، مال وجهه إلى الاصفرار.

بعينين تصغران من الذهول، وبحزن صادم ينخر أعماقه، نظر الحاكم إلى ابنه الذي وصل إلى هذه الحالة الغريبة. انتابه شعور مفاجئ بأنه على استعداد لتلبية مطالب ابنه، كي يعود مالك كما كان.. شاباً مشرقاً ذا وجه وضاء، كي تعود ابتسامته الأسرة، وطلعته البهية الأخاذة.

أيمكن أن يكون للجبابرة لحظة ضعف؟

كادت الدموع تترنح في عيني الحاكم، لولا جبروته الذي كان يقف لها بالمرصاد، فتراجعت، وتقهقرت بسرعة، كسرعة انتشار الخبر السيئ.

خدت نيرانها.. استقرت، واستقرت برمادها في الأعماق. قد تدب الحياة في نار يكفنها الرماد أحياناً، لهيبها المحرق ينطلق من كومة الرماد الداخلي.

قال الحاكم بعدما تحشبت الكلمات على شفثيه:

- تقدم... اجلس هنا يا مالك.

تقدم مالك والأفكار تتراكم في رأسه بشكل فوضوي. جلس على أحد المقاعد الفخمة، وتساءل مالك في سره وهو ينظر إلى الحاكم، الذي ضربت الصدمة كلماته، كما يضرب زلزال الأرض: "ما هي آخر مفاجأتك لي يا ثرى؟ أتمنى أن تكون حالي قد أشبعت شماتك.. أحزنتني..

غرست سفود قسوتك الملتهب في أعماقي..

بعثرتني.. ولكن..

سأجمع أشلائي، ولن أستسلم..

هيا أطربني يا حاكم دولة السراب. أطربني بأغانيك التي عزفت الحانها على وتر أحزاني وآلامي، وآلام الناس."

سأل الحاكم:

- ما هذه الحال التي وصلت إليها؟

أجاب مالك بنبرة حزن ممزوجة بالحسم:

- أنت السبب..

فسأل الحاكم:

- هل كل ما أنت فيه بسبب تلك الفتاة؟

صرخ الابن غاضباً:

- أين هي؟

سأل الحاكم بتغابٍ:

- مَنْ؟ أتقصد تلك الفتاة؟

- تسأل، كأنك لا تعرف أين هي؟

أجاب الحاكم كاذباً:

- لا أدري.

فقال مالك غير مصدق البتة:

- ها قد عُدتَ إلى المراوغة.. أنت الذي لا تغيب عنك صغيرة ولا كبيرة

في دولة السراب، لا تدري أين اختفت الفتاة!

قال الحاكم ممسداً كلامه بالنصح:

- هذه الفتاة لا تناسبك. انتهى هذا الأمر. قلتُ لك هذا، وها أنا أقوله

لك مرة أخرى، لعلك تعود إلى رشدك.. لا تكن ضعيفاً، فالضعفاء

يداسون كالحشرات.. كديدان لا يهتم أمرها أحداً. القوة.. القوة أساس

الوجود. مَنْ لا قوة فيه، لا وجود له. متى ستدرك هذا؟

هذا هو حاكم دولة السراب، الذي كان قبل قليل، وفي لحظة ضعف، مستعداً لأن يلبي مطالب ابنه، مستعداً لأن يرتدي عباءة اللين ولو للحظات. لا تناسبه عباءة اللين ولا ثياب الرحمة. إنها ليست على قياسه. كبيرة هي.. واسعة، فضفاضة. وصغير هو في داخلها.. لا يُرى. فكيف يرتدي ثياب الرحمة دون أناقة؟

إنه يظهر بعباءته التي لم يخلعها قط في حياته.. عباءة الجبروت والقوة. عباءة مَنْ لا ظُلْم فيه، لا وجود له. كلامه مُسيح بالقوة..

أنفاسه يُحييها الاستبداد..

وصوته ملغوم بالقهر..

أجاب مالك:

- ليس غريباً أن ترتبط القيم والمبادئ السامية بالضعف في دولة السراب. قاطعه الحاكم بنبرة حاسمة لم تخلُ من الغضب:

- عُدْ إلى رشدك، واترك ذلك البيت الوضيع، الذي تعيش فيه ككاهن معتزل. ألا تستطيع حياة البذخ في القصر؟ إذا كنت ترغب في الزواج، فسأزوجك على الفور. سأزوجك فتاة من أسرة عريقة، تناسب الأسرة الحاكمة التي تنتمي أنت إليها.. الأمور بسيطة إذا أردت أن تراها كذلك. حياتك تضيع سدى. أخبرني، ماذا حققت في حياتك؟ هذه اللوحات

التي لا تعتبر فناً؟ أنت الآن في الثامنة والعشرين من عمرك، ولم تحقق شيئاً ذا قيمة في حياتك. اقتلعت المفاهيم العسكرية، كما تُقتلَع الأظافر. ابتسم مالك ابتسامة ساخرة وقال:

- لا أدري لماذا لا تقوم القوة إلاّ على الفساد.. يحضنها الفساد.. يلحقها، فتكاثر، وتكبر، حتى يُحِيلُ إليّ أن الفساد هو البيئة الطبيعية "المناسبة" للقوة والجبروت. أليست الصحراء هي البيئة الطبيعية للجمال والأفاعي؟ أليس الماء هو البيئة الطبيعية للأسماك والحيوانات البحرية؟ أليست الحانات والبيوت المشبوهة هي البيئة الطبيعية لبنات الهوى؟ قاطعه الحاكم:

- أهذا الذي توصّلت إليه؟ إنك تعيش خارج الزمن.

أشاح مالك وجهه عن الحاكم وقال متسائلاً:

- مَنْ منا لا يجد نفسه خارج الزمن في وقت من الأوقات؟

ثم نظر إلى الحاكم، وأردف يقول:

- أنا لم أحقق شيئاً، وهذا بسببك أنت. أما أنت فحققتَ قوة تقوم على آلام الناس. خير لي أن أبقى في ضعفي واستكانتي على أن أكون قوياً على الضعفاء. ما القوة التي تفخر بها إلاّ أبطولة من الأباطيل الكثيرة في حياتك.

استاء الحاكم وقاطعه:

- لا تُعُدْ إلى هذيانك.. أريدك أن تعود إلى القصر، وتتسلم قيادة الجيش.
أريدك قوياً.. نحن على وشك إعلان حرب جديدة هذه الأيام.
سأل الشاب ساخراً:

- وما سبب الحرب هذه المرة؟ وضد مَنْ يا تُرى؟
أجاب الحاكم:

- ضد دولة السهل الأسود...
قاطعه مالك:

- دولة السهل الأسود؟ إنها دولة مسالمة.. ما سبب الحرب؟
أجاب الحاكم:

- أحد جنودها على الحدود الجنوبية قتل غزلاً بالقرب من الشريط
الحدودي الفاصل.
ابتسم مالك ساخراً وقال:

- أتعلم حرباً من أجل غزال؟ أتلقني بآلاف الجنود في ساحة الموت من
أجل غزال؟ غزال.. غزال.. غزال؟ إنه سبب للحرب أقوى من سبب
الحرب العالمية الأولى التي اندلعت بسبب اغتيال ولي عهد النمسا
فرديناند وزوجته على يد طالب سلافي من البوسنة. حربك الآن ضد
دولة السهل الأسود تندلع بسبب اغتيال غزال. أسبابك للحرب أقوى
من أسباب الحرب العالمية الأولى والثانية والحروب التي تلتها. كم هي

مقدسة وقيمة حياة الإنسان عندك يا حاكم دولة السراب. أتريدني أن أعود إلى القصر حتى أكون جزءاً من هذا الجنون الحربي؟ لو علمتُ الغزلان ما يجري في دولة السراب من أجل غزال، لتدافعت بقوة نحوها، لأن دولة السراب تقدّر وتقّدر حياة الغزلان أيما تقدير وتقدير... قاطعه الحاكم:

- الغزلان حيوانات هادئة، ليست كالسجناء ومثيري الفوضى السياسية، الذين تتخذهم أولياء.. دعني أفترض أنك ستوافق على العودة إلى القصر، فأى الأوقات أفضل لإعلان الحرب، الصيف أم الشتاء؟ ابتسامة ساخرة انتشرت على وجه مالك، ثم سأل، كأنه لا يدحض افتراض الحاكم:

- أتريد رأيي حقاً؟

- ولماذا أسأل إذاً؟

أجاب مالك ساخراً:

- حسب معرفتي بالعلوم العسكرية الحقيمة، التي أُجبرتُ على دراستها، فإن القتال الذي يكون على مدار السنة هو أفضل القتال. ما الذي يمنعك أن تعلن حرباً في الشتاء، وحرباً في الصيف، وحرباً في الخريف، وحرباً في الربيع؟ يجب أن لا تتوقف الحروب، سواء كانت من أجل غزال، أو من أجل حشرة، أو من أجل قرد لم يولد بعد.. يجب أن لا تتوقف الحروب.

فالقتال قوة، والقوة قمة، والقمة مجد، والمجد خلود، والخلود لا يطاله
إلاّ العظماء. أرايتَ.. أنتَ في منزلة العظماء. ابن جبلاً من الجثث واصعد
إلى القمة، فأنتَ مكانك على قمة، تعطي جبل الجثث.

غضب الحاكم من سخرية ابنه وقال:

- تتحدث كالثمل.. أعتقد أنك تشرب الكحول، أليس كذلك؟ كلامك
تفوح منه رائحة السكر.

أجاب مالك:

- ما يحدث في دولة السراب أقوى مشروب كحولي، للدخول في عالم
اللاوعي.

قاطع الحاكم:

- غدوتَ غريب الأطوار، ولا أستطيع أن أدخل معك في أي نقاش.. لا
نفع منك.

قال مالك بنبرة ساخرة:

- أنتَ مخطئ. ألم تسمع بذلك القول الذي يقول: "لا يوجد إنسان لا
نفع منه، حتى أسوأ الناس ننتفع منه في ضرب المثل السيئ"؟

قال الحاكم:

- أهذا أنتَ؟

- هذا أنا. إنسان لا نفع منه.

- كُفَّ عن قول التفاهات.

قال مالك:

- وما الذي يجعلك تستشير تافهاً مثلي. لديك مستشارون مختصون في شؤون القتل وفنون الخطف والاختفاء، أو ما تسميها الشؤون العسكرية. اسألهم متى يكون أفضل الأوقات لإعلان الحرب من أجل غزال، فحياة الغزالان ثمينة، تحميها قوانين دولة السراب، وربما القوانين الدولية أيضاً. أي زمن هذا الذي تكون فيه حياة الحيوان مسيجة بالقوانين الحامية، في الوقت الذي تكون فيه حياة الإنسان مسيجة بالقوانين الساحقة؟

حدّج الحاكم ابنه بنظرة فاحصة، ثم سأل:

- هناك منظمة إنسانية تطلب أن تلنقي بالسجناء. أنت وراء ذلك؟
أجاب الشاب:

- لا علم لي، ولو فعلت ذلك، فلدي الشجاعة أن أقول إني فعلت. السجناء يعيشون في وضع سيء، وأنت لا تكثرث. إذا كنت تخشى من الفضائح السياسية في دولة السراب التي غدت سيئة الصيت، فلماذا لا تتوقف عن إعلان حروب تندلع لأسباب تافهة جداً، أو حتى دون أسباب؟

سخر الحاكم من كلام مالك وقال:

- بدأت تتحدث عن إدارة شؤون الدولة، وأراك لا تستطيع أن تدير شؤون نفسك. ألم تنظر إلى نفسك في المرآة؟ تبدو كالمثسول، كالمشرّد في الشوارع والأزقة.. ولا أدري. أكلّ هذا من أجل تلك الفتاة؟ أم من أجل السجناء؟ أم بسبب تلك اللوحات؟ لا أدري بالتحديد. أصبحت مجموعة من العُقد، لا أستطيع تفكيكها.

وقف مالك وقال بحزن عميق:

- وداعاً يا منقذ الغزلان.

أي علاقة عجيبة هذه بين الأب وابنه. إنها كجبلين لا يلتقيان، ولا تُقام بينهما جسور الالتقاء، فالحاكم يقف على جبل جنون الحروب، ومالك يقف على جبل هدوء السلام. كيف يُقام جسر بين حرب مشتعلة وسلام هادئ؟

غادر مالك القصر حائراً، مكلوم الفؤاد. لم يستطع أن يعرف شيئاً عن الفتاة التي ابتلعها المجهول.

أما الحاكم فقد أظلمت وجهه سحابة حزن بسبب الحال التي وصل إليها مالك. درّت أضلعه حناناً يتعثر بالصلابة والعناد. تساءل الحاكم في أعماقه: "أأدعن لمطالبه؟ ولكنها تبدو تعجيزية، لا أقوى على تحقيقها.. الزواج من تلك الفتاة، والتخلي عن سياستي الصارمة التي لا تنضبط الشعوب إلّا بها، وإطلاق سراح السجناء السياسيين، وإغلاق السجون

السرية، ووجود محاكم عسكرية، وإلغاء عقوبة الإعدام. أيمكنني أن أحقق كل هذه المطالب؟ لا.. لا.. مالك لا يعني ما يقول وما يفعل. إن استجبت لمطالبه ستكون نهاية نفوذي في دولة السراب. إنه مجنون، وسيقودني إلى الجنون بمطالبه هذه. السجناء الذين يدافع عنهم، ويتعاطف معهم، يحاولون الإطاحة بي. كيف أطلق سراحهم جميعاً؟ لن أقترف خطأ غيباً كهذا. سأحدد فترات أحكامهم، وهذا يكفي."

استدعى الحاكم مستشاره الاقتصادي، وأمر بتحويل مبلغ كبير من المال لحساب مالك في البنك.

لماذا فعل الحاكم هذا؟ هل فعل ذلك شفقة على مالك، أم شعوراً بالذنب، أم استرضاء لابنه، أم إسكاتاً له؟ هل فعل ذلك من أجل استمالة مالك كي يعود إلى القصر؟

obeikandi.com

الفصل الثامن

وتتعمق عزلة وانطواء مالك على نفسه مع مرور الأيام والشهور. غربة داخلية تجتاحه، وفراغ واسع يُسيّج جسده وروحه. عالم يصغر تدريجياً، يحيط به، يكاد يُمحى.

في أحد الأيام، توجه مالك إلى البنك، كي يسحب مبلغاً من المال، ابتسم ابتسامة صعدت من أعماق حزينته، متألّمة، عندما رأى أرملة قائد الجيش تعمل هناك.
سألها:

- هنا أفضل من ثلوج السويد، أليس كذلك؟
ضحكت المرأة وقالت:

- لن أنساك طيلة حياتي، لأن العظماء لا يُنسون. أنت عظيم بكل ما تحمله الكلمة من معنى. أشكرك من الأعماق لأنك أمرت مدير البنك لقبول طلب عملي.

صعدت تلك الابتسامة من أعماقه الحزينة مرة أخرى.. صعدت.. بطيئة، جارحة.. صعدت.. مؤلمة، هادئة..

كم هي مؤلمة الابتسامة التي تنطلق من أعماق مجروحة! عندما سحب المبلغ المطلوب، أخبره موظف البنك أن الحاكم أمر بإضافة مبلغ كبير من المال إلى حسابه. غادر مالك البنك متسائلاً: "ما سبب هذا يا تُرى؟ أيفعل ذلك كي أعود إلى القصر؟ أيعتقد أن أمواله تعيدني إلى دائرته السوداء؟ أيطن أنني نسيت ما فعل؟ أيشفق عليّ، أم أنه أدرك سوء أفعاله؟ ربما.. ربما.. لا أدري."

صعد مالك في سيارته، وهو يفكر في الضعفاء، ويتذكر بعض ما قاله والده عنهم: "الحروب تصنع القوة، والضعفاء يُداسون كالديدان.. يداسون حتى تُقطع أجسادهم إرباً إرباً. أيها الضعيف.. ما الذنب الذي اقترفته كي تداس كالديدان؟ ذنبك الذي لا يُغفر أبداً أنك ضعيف.. تُداس كدودة.. تُهمل كالقمامة.. تُهجر كبئس مسكون بالأشباح.. لا تُسمَع كصوت مكتوم.. صغير أنت أيها الضعيف، لا تُرى بالعين المجردة..

آه.. آه.. إني معلق على رافعة صدئة.. أخشى الارتفاع، وأخشى السقوط.
يستهويني الصراخ، وأنا معلق في الهواء. ولكن.. ولكن.. لا أقوى على
صرخة واحدة.. صرخة واحدة تفرّغ كل ما في أعماقي. ليتني أقوى على
صرخة واحدة تنفضني.. تزلزلني.. تثير براكيني كي تهدأ أعماقي. إنني
أبج الصوت، لا أقوى حتى لا صرخة "مبتورة".

عمر، رجل المعرفة والفلسفة، رجل الحكمة ورصانة العقل، ترك أثراً
عميقاً في مالك. فحاجة الأخير إلى الحديث معه تفوق حاجة الأول إليه.
إضافة إلى الرسم، كان حديث مالك مع عمر وسيلة لغسل الأعماق مما
تراكم فيها من رواسب.. لترتيب فوضى الأفكار والمشاعر.. لإزالة ذلك
النسيج العنكبوتي، الذي يغلف العقل والقلب، تاركاً صراعاً قوياً بينهما.
ذلك الصراع الأزلي الأبدي. الصراع العنيف.. والقاتل أحياناً.

بينما كان مالك يقود سيارته، متوجهاً إلى السجن كي يزور عمر، شعر بآلم
خفيف في معدته. ركن سيارته بالقرب من إحدى الصيدليات، كي
يشترى مسكناً للآلام. لم يجد في ألم معدته الخفيف حاجة تستدعي زيارة
الطبيب.

كما الحب، تأتي الآلام مفاجئة..

في الحب آلام أيضاً.. وفي العشق العميق أكبر الحماقات..

آلام الفراق.. آلام رغبة مشتعلة مكبوتة..

آلام كلمات عشق تذوب في الأعماق قبل أن تنطلق..

آلام أسلاك العقل والمنطق الشائكة التي تحيط بحب يصّر على الانطلاق.

عندما دخل مالك الصيدلية، وجد فتاة شعشاء الشعر، متسخة الثياب.

اشترى مالك الدواء، ثم حدّج الفتاة بنظرة فاحصة، وفرك عينيه، لعل

الصورة تتضح. ما أن نظرت الفتاة إليه، حتى ثارت براكينه، وزحفت

حمم الصدمة الملتهبة.. حارقة، قاتلة.

مفاجآت الأقدار..

لعبة الأيام..

سخرية الحياة..

ومصادفة المصادفات..

هي؟ كأنها ليست هي..

كأن العالم ليس العالم.. كأن الحياة ليست الحياة..

هي.. هي إذا.

أَيُعَقَل هذا؟ هي التي بحث عنها في كل مكان..

هي التي وجّه إليها نداءات الحب الملحاحة..

هي التي كانت تضيء إشراقاً، تفوح منها رائحة الأنثى المستهواة.

أين إشراقها؟ أين بهجتها؟ أين دفء جسدها؟ أين رعشة الحب في

يديها؟ أين عَبَقَ شفثيها؟ أين الشهوة التي كانت تشتعل في جسدها؟

أين كلّ الذي حدث بينهما؟

أين كلّ الذي لم يحدث بينهما؟

فكلّ الذي حدث بينهما كان الحب..

وكل الذي لم يحدث بينهما كان العشق..

أين كل هذا؟

تدور الأفكار في رأسه في دوائر، تتسع تارة، وتضيق تارة أخرى. شعر

مالك بدوران يمحو الصورة والذاكرة، ثم فقد توازن وقفته. سقط ذلك

الطائر، مرتطماً في الأرض. لم يعد يقوى على الحركة أو الكلام. عنكبوت

الصدمة يلفّ رأسه بذلك النسيج، مكوناً غشاوة بينه وبين مَنْ حوله.

صرخت الفتاة، وهي جاثية إلى جواره:

- ما.. لك.

ركض الصيدلاني نحو مالك، وأجرى له فحصاً سريعاً، ثم عاجله. فتح

مالك جفنيه ببطء، ثم أغمضها. وبعد ثوانٍ فتح عينيه. عاد إلى عالم

الوعي.. عالم المفاجآت الصارخة بالصددمات..

هكذا هي المفاجآت..

أحياناً، تأتي مسرعة كومضة برق..

نادراً، قصيرة كمتعة..

غالباً، بطيئة كوقت الانتظار..

مفاجآت سارة ملفوفة بالحذر ، ومفاجآت مخزنة ملفوفة بألم عميق،
وبوقت ممتد. استعاد مالك توازن وقفته، جلس على أحد الكراسي بعدما
وقف لعدة دقائق.

سأل الصيدلاني الفتاة:

- أتعرفينه؟

أجابت الفتاة محاولة إظهار معرفة بالشاب لا تتعدى معرفة الناس به
كابن لحاكم دولة السراب:

- إنه ابن الحاكم. مَنْ لا يعرفه؟ ولكن لماذا وقع على الأرض؟

أجاب الصيدلاني:

- ارتفاع حاد في ضغط الدم.. لا بد أن شيئاً ما يحزنه.

وقف مالك، ثم نظر إلى الفتاة بعينين أعياهما الحزن والتعب. قال وهو
ينظر إلى الصيدلاني:

- أشكرك على المساعدة.. أعطِ الفتاة ما تريد على حسابي.

حاولت سارة الاعتراض، ولكن مالكا حذّجها بنظرة أسكتتها.
قالت:

- أريد مرهماً للحروق.

أخذت الفتاة الدواء، ودفع مالك النقود. نظر الصيدلاني بعينين
متسائلتين إلى الشاب والفتاة اللذين كانا يتحدثان بالقرب من السيارة،

فقال الصيدلاني في سره: "ما الذي يجعل ابن الحاكم يرافق فتاة تبدو كالمسولة؟ أكاد لا أصدق ما أرى.. أتكون هذه هي الفتاة التي أراد أن يتزوجها ثم اختفت قبل أن يتم الزواج؟ هذا احتمال".

قال مالك:

- اصعدي إلى السيارة.

أجابته:

- ألا يكفي ما حدث؟ وعدتني أن تحميني.. أنظر ماذا جرى لي. لا أستطيع أن أذهب معك إلى أي مكان.

شعر بالحزن يضرب جسده، ثم قال:

- صدقيني لم أكن على علم بما حدث لك ولعائلتك. عندما وعدتك بالحماية، قصدتُ ما قلت، ولكن الأمور خرجت عن السيطرة.

قالت الفتاة:

- لكنك لم تظهر في ذلك اليوم الذي اعتُقلت فيه. ما تفسير ذلك؟ كأنك كنت متواطئاً معهم.

أجابها:

- كيف يقودك سوء الظن بي إلى الاعتقاد، ولو للحظات، بأنني كنت متواطئاً معهم؟ تأخرت، لأنني زرت سجيناً في ذلك اليوم...

قاطعته متعجبة:

- زرت سجيناً؟

- أجل. سأوضح لك الأمر فيما بعد. الآن اصعدي في السيارة. لا يمكننا الوقوف هكذا في الشارع. اصعدي.

هزت الفتاة رأسها دلالة الرفض وقالت:

- لا أستطيع. ما حدث لي يفوق خيال راو. أريد أن أنسى كل ما حدث. سأذهب الآن.

أمسك بذراعها، وسحبها قليلاً، ثم قال بصوت هادئ:

- اصعدي وستحدث عن كل شيء. سنذهب إلى مكان آمن. اطمئني... قاطعته:

- الطمأنينة.. ليتني أجدها. ألا تعتقد أن الأمور قد تخرج عن السيطرة مرة أخرى؟ فقد أذهب دون عودة.

قال مالك وهو يسحبها باتجاه السيارة. حاولت التملص، ثم استسلمت عندما سمعته يقول:

- لن أهدأ حتى أعرف ما حدث لك. سأخذك إلى بيتي. هناك أأمن. هيا اصعدي. عيون الناس تلاحقنا هنا.

ترددت الفتاة دقائق، ثم صعدت إلى السيارة. ما الذي جعلها تذهب معه؟ هل صدّقه؟ هل أرادت أن تجرب به ما حدث لها؟ قاد سيارته دون أن يتبادلا الحديث.

أوقف مالك سيارته بالقرب من محل لبيع الملابس النسائية، واشترى بعض الملابس للفتاة، ثم اشترى بعض مستحضرات التجميل من مكان آخر. عاد إلى السيارة محملاً بالأكياس التي وضعها في المقعد الخلفي. كانت الفتاة شاردة الذهن. لم تنبس بكلمة. تساءلت في أعماقها وهو يقود السيارة في شوارع مدينة الوهم: "لماذا اشترى الملابس؟ الملابس الجديدة لا تستطيع أن تقضي على الدمار الداخلي. ملابس جديدة تغطي جسداً يملؤه الفراغ، كأنها تغلف الفراغ."

إن الملابس التي تغطي جسداً يملؤه الفراغ، فإنها تعري روحاً.. ركن مالك سيارته قرب منزله، وحمل أكياس الملابس ومستحضرات التجميل.

شعرت الفتاة أن قدميها تقودانها نحو المنزل بطريقة آلية. لم تعد تدري ماذا تفعل، ولم تعد تدري إلى أين تذهب. هذه الآلات في قدميها تقودها لا شعورياً نحو العبثية.. نحو الفراغ.. نحو العدم. هل هناك جهاز يقيس قدرة الجسد والعقل على التحمل؟ قدرتهما على تحمّل الآلام، والتناقضات، والحروف المتناثرة في الأعماق، والكلمات التي يتلعبها صمت الجسد، والرغبة القوية في اللاشيء.. إنها فوضى تزلزل الجسد.

تقدم الشاب والفتاة نحو صمت المنزل برشاقة..

هذا هو المنزل الذي كان سيستقبلها ببهجتها، وإشراقها، ورائحة الأنثى التي تنتشر في المكان الذي تكون هي فيه.. والآن.. فإن هذا البيت يغمره الذهول من بؤسها، وثورة صمتها، وذبول جسدها.

وضع مالك الأكياس على الأريكة، وطلب من الفتاة أن تذهب إلى الحمام، كي تغتسل، وتصلح من هياتها. ناولها كيس الملابس، ونظر إلى عينيها اللتين يسكنهما الحزن والتردد. ما أحوجها إلى الماء الساخن، كي يزيل آلامها، ويمحو ما خطه الماضي المؤلم من آلام رُسمت على الجسد، كي يمحو ما اختزنته الذاكرة من أحزان..

لكن.. لكن التردد اجتاحتها، لأنها في بيت رجل، كان من المقرر أن يكون زوجها، وهو الآن ليس كذلك.

قدماها تتحركان بطريقة آلية، توجهت إلى الحمام بعد تردد، وراحت تغتسل، وألم الحروق في جسدها يعيدها إلى أحزان وأوجاع الماضي.

كان مالك مستلقياً على ظهره على الأريكة، يفكر في الفتاة، وفي الحال التي وصلت إليها. شعور بالذنب يسري في جسده، لأن الفتاة لم تكن لتصل إلى ما وصلت إليه لو لم يظهر في حياتها. سأل نفسه: "ماذا حدث لها؟ كيف قضت أيامها بعد اعتقالها؟ وما سر هذه الحروق على ذراعيها؟"

تساءل مالك وهو يُضمر نقمة شديدة على حاكم دولة السراب، الذي قاد الفتاة إلى هذا الشقاء.

أُتعود الأيام كما كانت؟

أُيعود الزمن بهما إلى حيث كانا؟

أُتوقف الزمن قليلاً كي يتأمل أحزان ضحاياها؟ أم إنه ماضٍ بلا توقف،
مكتسحاً كل من يقف أمامه؟

إنه الزمن ..

يمشي على عجل، يركض. يجب أن نركض معه، أو ربما نسبقه. ولكن..
لماذا؟

كي لا نعيش خارج الزمن، لأن مَنْ يعيش خارج الزمن يموت...
سارة، وعمر، والسجناء، ومالك. تعثرت بهم الأحزان فأوقعتهم، أو
تعثروا بأحزانهم فوقعوا، وركض الزمن وتركهم خلفه، فأصبحوا كمن
يعيش ولا يعيش.

لا وقت لديك أيها الزمن...

لا وقت لديك لمواساة حزين، أو للابتسامة في وجه إنسان بائس، أو
للإمساك بأيدي متباطئ الخطى. إنك تركض.. تركض، فاركض معه أيها
الإنسان، حتى تتعثر بقبرك، أو تتعثر بسكون جسدك. حينئذ تخرج عن
الزمن.

أهو الزمن مَنْ علّمنا أن لا نعطي وقتاً لمواساة حزين، أو للابتسامة في
وجه إنسان بائس، أو للإمساك بأيدي متثاقلي الخطى؟

أهو الزمن الذي محاً بممحاة سرعته الجنونية كلمة "ترِيث"، وكلمة "قف متأملاً" من عقولنا؟

جلس مالك على الأريكة، فإذا بالفتاة تخرج من الحمام، وهي ترتدي فستاناً بُنيّاً جميلاً. شعرها يتدلى على كتفيها. اجتاحه شعور بالارتياح. ابتسم ابتسامة يلفها العطف والشفقة، كتلك الابتسامة، التي تنطلق كي تُسعد طفلاً حزيناً.

أعدت طفلة يشفق عليها؟ أم عادت كما كانت الحبيبة؟ الملابس جميلة عليها، على قياسها. فتفاصيل جسدها منقوشة في عقله وقلبه. قال مالك:

- سأحضر كوباً من الحليب، وأعدّ فنجاناً من القهوة.

ذهب مالك إلى المطبخ، وراحت الفتاة تتأمل المنزل.

كانها في عالم لم يعد عالمها..

كل شيء غدا غريباً، وغير مألوف، حتى ابتسامة مالك التي يلفها الدفء والترحيب، غدت غريبة.

غربة داخلية وخارجية تكتسح الجسد والذاكرة. شعرت كأنها تركض في حجرة موصدة الأبواب.. تلاحقها الظلال..

إنها ترتطم في الأفكار، كمن يرتطم في الموت.

أيرتطم الإنسان في أفكاره بعض الأحيان؟

قد يرتطم فيها عندما لا يجد مخرج من دوائر التفكير، ودوائر الأسئلة..
يرتطم فيها عندما تغدو الأفكار والأسئلة صُخوراً..

اقتربت من الطاولة المستديرة، فرأت مجموعة من الأوراق البيضاء،
وبالقرب منها دفتر صغير. قلبت صفحاته بآناة، فرأت ما كتب مالك في
مذكرته. استوقفتها جملة كتبها يقول فيها: "واختفيت بعدما أصبحت
فنون العشق مهنتي." ردّدت الجملة في سرها عدة مرات، ثم عادت
وقرأت على عجل ما كتبه في تلك الصفحة. والآن اقتنعت بأن عدم
ظهوره يوم اعتقالها لم يكن متعمداً. صدّقتها، وآمنت بأن صدقه فاق حد
الصدق، وبأن حبه فاق حد العشق. هو، كما عرفته دائماً، يشرق بعاطفة
جارفة، ويضيء بقيم سامية. ولكن، لا تدري. شيء ما أصبح يقف بينهما
كناطحة سحاب. لا تدري ما هو بالتحديد..

أهو ما حدث لها؟ أهو منطق العقل؟ أهي الغربة الداخلية، والفراغ الذي
يغلفها ويسكنها؟

لم تعد تقوى على التحديد..

حضرها قول قرأته ذات مرة باللغة الإنجليزية: "لا تكن أول من يخالف
عادات العائلة."

دفعت الثمن غالياً، وغدت عبرة لكل مَنْ يفكر في الاقتراب من مخالب
الطبقة الحاكمة..

عاد مالك يحمل صينية عليها كوب الحليب، وفنجان القهوة. استدارت الفتاة عندما سمعت وقع قدميه، وجلست على الأريكة. ناولها كوب الحليب بعدما جلس جوارها، ثم قال:

- اشربي الحليب. الحليب لك، والقهوة لي.

أمسكت بكوب الحليب، وقالت بصوت هادئ:

- أراك تركت القصر، وتعيش في هذا البيت وحيداً...

قاطعها:

- كقول الكاتب الشهير، جبران خليل جبران: "أحسن الناس أبعدهم عن الناس." لا أدري لماذا أرى أن هذا القول أروع ما قال جبران.

خيّم الصمت برهة، شرب قهوته في الوقت الذي كانت فيه الفتاة تشرب الحليب.

واصل مالك يقول:

- اشتقت إليك.

كلام يقفز على وتر الأحزان. لم تعد هذه الكلمات تخترق القلب. فكّرت سارة، ليس لأنها لا تصدقه، فهو أصدق من الصدق، بل لأنه انتابها شعور غريب؛ شعور بفراغ الكلمات، وفراغ الأماكن، وفراغ الجسد.. شعور لا تستطيع الكلمات أن تعبّر عنه.

قالت الفتاة بعدما شربت نصف كوب الحليب:

- ألا تشعر أن الكلمات يسكنها الفراغ؟ كلمات تمتلئ بفجوات عميقة.

نظر مالك إليها بعينين متسائلتين. إنها ترتدي الآلام والأحزان بأناقة.

قال وهو يتيه في طرقات كلامها:

- لا أفهم كلامك.. أشعر بالحزن الذي يحتاجك، ولكن لا أفهم كلامك.

أخبريني. ماذا حدث لك؟

شعرت بضيق في صدرها، وقالت بعد صمت استمر دقائق:

- ماذا تعتقد أنه حدث لفتاة اختطفتها وحوش "بشرية"؟ كيف تلتمس

الدفء من جسد كان قبل وقت قصير مطفأةً لأعقاب السجائر؟ لا

أعرف شيئاً عن أهلي. يقول البعض إنهم نفوا إلى دولة "السيول الجارفة".

أرجوك يا مالك. ابتعد عني. أنا أعمل في دار للمسنين، وأبيت هناك.

أشعر بأنني منتفخة بالأحزان والآلام، ولم أعد أحتمل.

وقفت الفتاة، ثم أردفت تقول:

- سأذهب، يجب أن أذهب..

تلاطمت أمواج الحزن في داخله. في تلك اللحظة شعر أن السعادة التي

رسمها عندما وجد الفتاة انحسرت من صفحات الأيام. شففته عليها جعلته

يستجيب لطلبها.

قال بصوت متهدج وبحزن عميق:

- سأأخذك بسيارتي...

قاططته:

- لا.. لا أستطيع. سأذهب بسيارة أجرة. لا أريد أن يراني أحد معك.
ستلاحقني الوحوش إن رأوني معك. ماذا يرجو الإنسان من أيام قَسَتْ
عليه؟ ماذا يرجو منها بعد ما طَحَّتْه؟

ذهبت الفتاة ملفوفة بأحزانها وآلامها، واجتاحت الشاب نوبة بكاء
شديدة.

بكى مالك..

بكاءً سريعاً.. كطفل متألم..

بكاءً مدوياً.. كبكاء ثكلى..

بكاءً مؤلماً.. كبكاء الرجال..

وقف الشاب وصرخ قائلاً:

- يا ليتني.. مِتُّ قبل هذا.

نظر إلى لوحاته، فكانت "محدقة".. صامتة..

قلب اللوحات على الأرض، ودويّ بكائه يزلزل أعماقه. قلب الطاولة
المستديرة، وتناثرت الأوراق على الأرض، ثم قلب الكراسي.

صرخ كَمَنْ أصابته نوبة جنون:

- مَنْ.. مَنْ يقوى على جبروت الحكومات؟

أيها السرابيون.. اللعنة عليكم.

مَنْ يُعيد لي حياتي؟

مَنْ يُعيد لي أشيائي التي نُهبْتُ؟

كيف استرد . ذاتي؟

يا دولة السراب .. يا حاضنة الغزلان .. يا قاهرة الإنسان . أسيتدفق دمي ،

ويسيل دم العذراوات من أجل الغزلان ..

فلا أؤمن ولا أغلى من دم الغزلان

إلا دم الغزلان ..

مَنْ أباح قَتْلَ كلمتي؟

وقتل عذريّة لوحاتي؟

إني في هاوية سحيقة ..

في هاوية عميقة ..

يا فراغ الكلمات ..

يا فراغ الأعماق ..

يا فراغ الجسد ..

مِنْ سباتها الهذيان

ستنطلق الكلمات

بثورتها ستنطلق .. بجنونها ستتقدم

ساحقة قهر مقهور ..

جارفة ظلم مظلوم.

ارتمى على الأريكة باكياً.

كوب الحليب، نصف فارغ، موضوع على طاولة صغيرة بالقرب من الأريكة.

كوب الحياة، ككوب الحليب هذا، نصفه فارغ، ونصفه الآخر ممتلئ. وهناك مَنْ يسبح في النصف الفارغ، وهناك مَنْ يسبح في النصف الممتلئ.

ما أصعب السباحة في الفراغ!

فالجسد يطفو، والروح تغرق..

كأنه يتوسط أكداس الأحزان والآلام.

هنا في دولة السراب، تتكدّس الأحزان كما تتكدّس الجثث..

لم يستطع النوم تلك الليلة. خلع ثوب النوم، واستقطبته الأحزان والأفكار. لم يقوَ على مقاومة رغبة في الذهاب إلى القصر.

ذهب على عجل وبغضب يجاور الجنون، حتى أنه لم يكرث لذلك الألم في معدته. ألمٌ يظهر ويختفي كهبات الرياح..

وبينما كان يقود سيارته في شارع "البلاء"، حيث يوجد القصر، أخذ الشاب يتوعد حاكم دولة السراب بالقتل.

احتّ كل الأشياء من ذهنه ولم تبق إلا "لكلمات" الكلمات التي تلقّاها من الفتاة..

اخترق طريقه من بين الحراس، فكان والده يهّم بالدخول إلى حجرة
نومه.

ما أن سمع الحاكم وقع أقدام، حتى استدار، فعاد وجلس على كرسيه،
وقال متعجباً:

- ها قد عُدت.. اجلس يا مالك..

قاطعته مالك غاضباً:

- ما جئت لأجلس. أفعلتَ ما أردتَ؟ الانتصار على ضعيف، موثوق
اليدين ليس انتصاراً. إنه الهزيمة نفسها.. ماذا فعلتَ لك حتى تسلّط
كلابك عليها؟ كلاب، قوادون..

أدرك الحاكم سبب ثورة مالك، ولكنه سأل متغابياً:

- عَن مَنْ تتحدث؟

صرخ الابن قائلاً:

- لا تحدّثني هكذا.. أنت تعرف عن مَنْ أتحدث.. كفالك استخفافاً بعقول
البشر.

رد الحاكم غاضباً:

- لا تنسَ أنك تتحدث مع حاكم دولة السراب.. لن أتردد في وضعك في
السجن...

قاطعته الابن، وقد ثار بركان غضبه:

- ألا تزال تهدّد؟ افعل ما تشاء.. لا شيء يهمني. إني لقاتلك.. إني لقاتلك. إني لمتقم. إن لم يكن الموت لك وقد قهرت، وظلمت، وقتلت فلِمَنْ سواك؟ أسمعني.. إني لقاتلك.

شعر الحاكم بالغضب الذي يتأجج في أعماق الشاب، وأدرك أن ابنه لم يع ما قال. لذلك غاص الحاكم بالصمت.

هبت رياح الحيرة ممزوجة بالشفقة في أعماق الحاكم. إنه لا ينفك يتساءل عن الأسباب التي أوصلت ابنه إلى هذه الحالة العجيبة؛ حالة القرب من الجنون، بل الالتصاق به. أيعقل أن تقوده فتاة من عامة الشعب إلى تلك الهواجس، أو تُغرقه في بحر الهذيان.

الفتاة، إعدام قائد الجيش والضباط الثلاثة، السجناء، والحروب التي خاضتها دولة السراب ضد أعدائها..

أيمكن أن تكون هذه الأمور مجتمعة هي التي أوصلت الشاب إلى حالة البؤس هذه؟

مؤجج الصدر غضباً غادر مالك القصر الذي تفوح منه رائحة الظلم والاستبداد والقهر.

قاد سيارته وهو يقاصص نفسه بشقاء سارة وأحزانها، وتمنى لو لم ترّجّه كي يبتعد عنها. وفي الوقت نفسه، وجد لها العذر في طلبها بالابتعاد. لطالما شعر بالذنب، بسبب الأذى الذي تعرّضت له الفتاة. الشعور

بالذنب.. كم هو مؤلم عندما يحتاج شخصاً مفرد الحساسية. مؤلم دائماً،
وقاتل أحياناً.

كيف يستعيد ذاته؟

كيف يتصالح مع ذاته إذا استعادها؟

كيف يشفى من شعوره بالذنب؟

وكيف يشفى من أحزانه، ويزيل ضباب كره الذات الذي غلفه تماماً؟

أهو الزمن الذي لم يعد زمن مفرد الحساسية؟ أهو زمن الجبابة
والوحوش البشرية؟

مَنْ هو الذي يزلزله كل هذا الحُزن من أجل معاناة إنسان؟

مَنْ هو الذي يستوقفه شقاء إنسان؟

الناس يركضون مع هذا الزمن الراكض بسرعة جنونية كي لا يخرجون
عنه. ليس لديهم وقت لمعاناة وألم وشقاء الآخرين، ولديهم كل الوقت
للفضول واختراق حيوات الناس الخاصة.

للفضول فنون أيضاً..

إنه كأجهزة تنصت، تزودك بمعلومات ما كان يجب أن تتزود بها. سرقة
المعلومات بطريقة جنونية، وبطريقة فنية. بعض الأحيان تُقام بين الجنون
والفن جسور عجيبة.. جسور وهمية.

إنه منتصف الليل. مالك يقود سيارته، ولا يدري إلى أين يذهب..
سيارته تسير في الشوارع حول مدينة الوهم، كأنها استقطبها محيط
الدائرة. وأما هو، فيدور حول الأفكار، كأنه دخل في مدار كوكب..

إنه منتصف الليل، ومدينة الوهم تعانق السواد؛ سواد اللون.. سواد
الفكرة.. وسواد الأعماق. وهذه المصابيح المعلقة على الأعمدة تضيء ولا
تضيء، تماماً كَمَنْ ييكى ولا ييكى. مصابيح أنوارها محبوسة في تجويفاتها،
كباكٍ يحبس دموعه في أعماقه.

شوارع مدينة الوهم خالية، إلا من السكارى، والباحثين عن قضاء وقت
ممتع، في مدينة لا تحترم إلا هؤلاء. أشباه رجال.. أنصاف نساء.
كما تُرثى المدن العظيمة.. كما يُرثى الأبطال.. وكما تُرثى الرموز..
يرثي مالك عشقاً..

يقيم مأتماً على طريقته..

يشيع حباً على طريقته..

يرثي عشقه في دولة رموزها في السجون، وأبطالها في سكون، وحاكمها
بالظلم مسكون.

بعد منتصف الليل ببضع ساعات وصل مالك بيته، ودائرة التيه والضياع
تحتضنه.

مرت الأيام والشهور..

وخرج عمر من عتمة السجون إلى أنوار خَجَلَة. أنوار لا تضيء بجرأة، كأنها تخشى أن تحترق الأعماق المظلمة. أعماق غرقت في الظلام لمدة أربع وعشرين سنة، فكيف تصطدم بالنور فجأة؟ كيف يقاوص الظلام النور بأحزانه؟

أين يذهب الآن؟ فأمه وأبوه توفيا وهو في السجن. وأما أخوه الوحيد، فيقيم في مستشفى للأمراض العقلية منذ سنتين. علم بأمر أخيه من والده الذي أخبره عنه قبل وفاته.

لطالما تساءل عمر عن الأسباب التي جعلت أخاه فريسة للأمراض العقلية، أو النفسية، أو العصبية. لم يستطع عمر أن يحدد إن كان أخوه مريضاً عقلياً، أو نفسياً، أو عصبياً، فالإنسان العادي لا يستطيع أن يحدد. هم الأطباء النفسيون الذين يفصلون بين المرضى العقلين والنفسيين والعصبين، أما الإنسان العادي البسيط، فيسمي هؤلاء المرضى "مجانين". كلمة لا إنسانية، في مكان لا إنساني، في زمن خرج من بيت الإنسانية.

تساءل عمر، وتساءل. لماذا تعرّض أخوه للمرض؟ أهو القهر السياسي؟ أم هي تجربة عاطفية فاشلة؟ مَنْ هم الذين يتغلغل في داخلهم المرض النفسي بسبب تجربة عاطفية فاشلة؟ ليس الجبابة. ليس الطغاة. ليس من

تحركهم أضرار المصالح الذاتية، وآلات الوصولية والنفاق. ليس كل هؤلاء.

إنهم مرهفو الإحساس، الذين يتوسط صدورهم قلوب، كقلوب الأطفال، تنبض بالبراءة، وتشرق بالطيبة. قلوب..

تعشق كشاعر..

تشعر كطفل..

أسئلة كثيرة تدور في رأسه. شعر عمر لحظتها كأنه يقفز من علامة سؤال إلى علامة سؤال أخرى. لا أجوبة.

شعر برغبة يلفها التردد في زيارة أخيه في المستشفى. تردد لأنه لا يقوى على الولوج في بيوت المعاناة والألم. وكيف ذلك، وهو الذي قضى أربعاً وعشرين سنة في السجن؟ أليست المستشفيات نوعاً من أنواع السجون من ناحية المعاناة والألم؟

غير أن أكثر الأمور التي شغلته، هي كيفية إقامة حوار مع مريض عقلي. قد يعتقد البعض أن إجراء حوار مع مريض عقلي كإجراء حوار مع النفس. ربما الأمر ليس كذلك. أن يجري الإنسان حواراً مع مريض عقلي هو أن ينسى الإنسان نفسه، أو "يقتلها". هو أن يغوص الإنسان في فوضى من المشاعر والأفكار والأسئلة. كيف يقيم حواراً مع أخيه الذي

يتعرض للصدمات الكهربائية بين الحين والآخر؟ أين الإنسانية في استخدام الصدمات الكهربائية؟ لا يمكن التصور كيف يقوى الطبيب الذي يقوم بإجرائها على رؤية مريض تزلزله الكهرباء وتضعقه؟ قد يكون المرض أسوأ ما يتعرض له الإنسان، فكّر عمر، وربما الفشل، فما المرض إلا نوع من أنواع الفشل، فعندما يصاب الإنسان بالمرض، فإن عضواً معيناً يتعرض للفشل، فلا يؤدي وظيفته بشكل جيد. إذا.. الفشل. الفشل هو الأسوأ.

والده الذي كان يزوره وهو في السجن، مات بسبب فشل كلوي، فقد مات والده قبل أن يخرج عمر من سجنه ببضعة أشهر. وأما والدته فقد ماتت بسبب فشل في وظيفة الكبد. شعر عمر بأنه يتكئ على خراب ودمار. شعر كأنه يقف بين باب الزنزانة الموحد، وباب الحرية المغلق.

لماذا يخرج الإنسان من السجن بعد أن يفقد الرغبة في الخروج منه؟ ولماذا يخرج منه بعد أن اعتادت عيناه على الظلام؟ اعتاد جسده على القسوة والبرد... واعتاد لسانه على الصمت.

مع مَنْ يتحدث؟ أين تترك عمر الصمت في قبر والده؟ أم الصمت في قبر والدته؟ أم يخترق صمت ذلك الحي الميت الذي يقيم في المستشفى منذ ستينين؟

ما أصعب أن يقف الإنسان مستنداً إلى فراغ!

عمر يفتح باب الحياة على مضض.

في أحد الأيام، مشى عمر في شوارع مدينة الوهم. شعور بغربة داخلية
مسيجة بالأحزان استقر في أعماقه. أهذا هو العالم الذي تاق إلى الولوج
فيه بعد أربع وعشرين سنة في صمت السجن؟

خرج من سجنه غير منتظر شيئاً البتة. لم يكن أحد في انتظاره. لا قريب
ولا صديق. أين الأصدقاء؟ هل ماتوا، أم فقدوا عقولهم أم هاجروا؟
أربع وعشرون سنة مدة كافية كي تمحو ذكريات الأماكن، وذكريات
الأشخاص.

كل شيء يأخذ شكلاً جديداً في ذاكرته الآن. فما اختزنه ذاكرته من أماكن
وأشخاص لم يعد موجوداً. منازل أقيمت، ومنازل أزيلت، وشوارع
أخذت اتجاهات وأشكالاً جديدة. تغير كل شيء في دولة السراب، غير
شيء واحد فقط. كان، ولا يزال، إنه قهر الإنسان. فهو لا يخضع إلى قائمة
التغيير.

شعر عمر بأن "أعضاء" من جسده بقيت هناك، في عتمة الزنزانة. ذاكرته
هناك، في المكان الذي احذوب فيه ظهره، وتساقط فيه بعض شعره،
وضعف فيه نظره، ففي السجون تولد الكهولة قبل أوانها، كطفل يولد في
شهره السابع، أو الثامن.

أذناه لم تألفا أصوات الناس في الشوارع، وعيناه لم تألفا وجوههم.
غرباء.. غرباء، كأنهم أتوا من عالم آخر.

كم ألمه أن يبدأ من جديد. يبدأ وهو في الرابعة والأربعين تقريباً. أيمن
أن يبدأ الإنسان حياته من نقطة يعتقد أنها النهاية؟ ماذا يمكن أن يحقق
الإنسان بعد الرابعة والأربعين؟ رأى عمر نفسه كطفل بدأ يحبو. إنه يحبو
نحو الأشخاص والأماكن، ونحو المخاطر والمفاجآت.

عاد ذلك السؤال يرفرف أمام عينيه كطائر: "ماذا يمكن أن يحقق الإنسان
بعد الرابعة والأربعين؟" ما أن أخذ هذا السؤال شكلاً دائرياً في ذهنه،
حتى حضره الكاتب البريطاني من أصل بولندي، جوزيف كونراد، الذي
كتب روايته الشهيرة "قلب الظلام"، وهو في الثانية والأربعين من عمره.
كما حضره في تلك اللحظة الفيلسوف الفرنسي الذي كتب روايته
"كنديد" وهو في الرابعة والستين من عمره. وهناك الكثير ممن انطلقت
شهرتهم وبدأت حياتهم بعد الأربعين.

ظل عمر يمشي والأفكار تموج في رأسه، حتى انتهى إلى مقهى. طلب من
النادل قهوة مرّة، وأشعل سيجارة. تُرى ما الذي جعله يدخن، وهو
الذي لم يدخن قط في حياته؟ حتى عندما كان غارقاً في عتمة وقسوة
السجون لم يدخن. هل شعر أن الحياة خارج السجن أشد قسوة وظلاماً؟
أم إنها حالة مزاجية؟

الرجال في المقهى يتحدثون لغة طرقت مسامع عمر بطريقة غريبة، كأن تلك اللغة ليست لغته. بدت اللغة غريبة عن لسانه، كهؤلاء الرجال الذين يتحدثون بها. هل تغيرت اللغة في أفواههم يا تُرى؟ أم إن صمت الزنزانة شطب الكثير من المصطلحات والجُمَل والكلمات من ذاكرته؟ وضع يده على الشريطين في جيبه؛ شريط جوزيف هايدن، وشريط ياني. وفي جيبه الأخرى المسجل الصغير. شعر برغبة قوية في التحدث مع مالك، فقد أعطاه مالك عنوانه قبل أن يخرج عمر من السجن ببضعة أيام.

وضع عمر عقب سيجارته في المنفضة، ودفع ثمن القهوة المُرّة. كان معه مبلغ من المال، أعطاه إياه مالك عندما علم بقرب خروجه من السجن. ذهب إلى منزل مالك في سيارة أجرة.

وما أن وصل عمر، حتى رحّب به مالك، الذي أضاءت الابتسامات وجهه. جلس عمر على الأريكة، ونظر إلى مالك الذي قال:
- أنا سعيد لخروجك من السجن.. ها هو قيدك قد انكسر.

ابتسم عمر ابتسامة حزينة وقال:

- انكسر قيد يديّ بعدما قِيدْتُ أعماقي. لم أعد موثوق اليدين، ولكنني أصبحت موثوق الأعماق، وموثوق الروح..

نظر عمر إلى اللوحات المعلقة على الجدران وأردف يقول:

- إنك تُكثر من رسم الغربان.. أللغربان دلالة ما عندك؟

رد مالك بصوت هادئ:

- لا أدري بالتحديد. ربما لونها. ربما شكلها. يستهويني هذا الطائر،
وتعشقه ريشتي، وتتوق إليه خشبة الألوان.

سأل عمر:

- ولماذا لونها؟

قال مالك:

- قلتُ ربما..

سأل عمر:

- ولماذا ربما؟ ألأن الأسود لون حزين؟

أجاب مالك:

- وسعيد أيضاً.. ألا ترى أن الألوان تحمل صفة التناقض كالبشر تماماً؟

أجاب عمر:

- ربما.. عفوك يا سيدي. علمتُ أنك لم تتزوج.

قال مالك:

- وبالتأكيد عرفت تفاصيل القصة، التي شاعت في البلد.

قال عمر:

- أجل.

قال مالك:

- إنها فوضى دولة السراب. ولكن متى ستزوج أنت؟ قضيت وقتاً طويلاً في السجن. آن لك أن تتزوج، ويكون لك زوجة وأولاد. ابتسم عمر ابتسامة غامضة. ابتسامة يجاور فيها الحزن التساؤل والنقمة. أجاب:

- ما الزواج إلا ذلك النقص الذي يكمل ما لم يكتمل. لا أعتقد أنني سأتزوج. سأل مالك:

- ولماذا؟

غرق عمر في الصمت هنيهة، ثم نظر إلى مالك وأجاب:

- قتلوا رجولتي. قالوا لي إنهم فعلوا ذلك كي لا أنجب أطفالاً بعقلية تزعزع استقرار النظام الحاكم.

رجع مالك إلى الورا قليلاً، وفغر من الدهشة فاه، ثم تحوّلت الدهشة إلى حزن يسري في جسده. كل الاحتمالات واردة في دولة السراب.. كل الفضائع ممكنة.

للعشق فنون..

للقتل "فنون"..

ولبتر الأعضاء "فنون" أيضاً...

أخذ مالك نفساً عميقاً وقال بصدق ممزوج بالحزن:

- إنهم وحوش. يقولون إن البتر هو قطع الأطراف. ولكن ما فعلوه معك يُعدّ نوعاً من أنواع البتر.. وأي بتر؟ لا يخرج الإنسان من السجن إلا مبتور الجسد أو مبتور الأعماق.

غرق مالك في الصمت قليلاً، ثم واصل يقول:

- أدرك الفرق بين مَنْ قُتِلَ فحولته وَمَنْ لم تُقَتَّل رجولته؟

ابتسم عمر ابتسامة شاحبة وقال:

- أخبرني يا سيدي.

رد مالك قائلاً:

- إن الأول يدرك قوة عقله، وأما الثاني فيدرك قوة جسمه فقط.

لم يتمالك عمر أن سأل:

- أتقول ذلك استرضاءً لي؟

أجاب مالك وفي أعماقه يعلم أنه يكذب:

- كلا. إنها الحقيقة.

قال عمر كلاماً غريباً:

- للحقيقة أشكال عديدة. قد يأخذ الكذب شكلاً من أشكالها.

لم يشعر مالك بالغضب من كلام عمر، لأنه أدرك الوضع النفسي السيئ لهذا الرجل الذي قضى أربعاً وعشرين سنة في السجن. بل إنه شعر بالحزن لأجله. ليس من السهل الكذب على إنسان يتقد ذكاءً.

قال مالك:

- إن هذا الإنسان اقترف الذنوب على اختلافها، وارتكب الجرائم على أنواعها. والعجيب أن كل هذه الفظائع تُرتكب في وقت يدرك الإنسان فيه أن الموت لا محالة آتٍ.

قال عمر:

- الإنسان "تركيبية" عجيبة. لغز كلما ازدادت تفاصيله، كلما ازداد غموضاً. أعتقد أن سيجموند فرويد استطاع أن يخترق النفس البشرية تماماً؟

أجاب مالك:

- حلّل الكثير منها..

فقال عمر:

- ولم يحلّل الكثير منها..

أعجب مالك بالرد، وقال:

- إنك تتقد ذكاءً.. ما رأيك في لوحاتي؟

أجاب عمر وهو ينظر إليها:

- جميلة، معبرة. تُكثّر من استخدام اللون الأسود. تذكرني بعض هذه اللوحات بلوحة فان غوخ الشهيرة "آكلي البطاطا". ولكن لماذا لا تضع هذه اللوحات في صالة عرض؟ أم إنك تخشى النقاد أو الشهرة الفنية؟
أجاب مالك:

- لا هذا ولا ذاك. أشبه الرسم بالبركان الثائر، يُخرج كل ما في أعماقه من حمم تتصلب عندما تخرج من الأعماق، كأنها تدخل بيت الخلود. كذلك الألوان، ما أن تستقر على اللوحة البيضاء بشكل فني جميل، تدخل بيت الخلود. ألم يقلل النقاد من قيمة لوحات فان غوخ؟ ألم تنل تلك اللوحات قيمة عالية وشهرة واسعة بعد موته؟ هكذا الناس، يتمسحون بالأشياء "الكبيرة" الجاهزة، ولا يكلفون أنفسهم عناء مساندة مبدع، أو مثقف في أول طريقه، فلا يقولون عن مبدع إنه مبدع إلا بعد ما تسطع شمس، وينير قمره.

قال عمر:

- كما قال صمويل جونسون: "عندما يكون الكاتب على قيد الحياة، فإننا نقيم قوّته بأسوأ أدائه."

قال مالك:

- ربما للألوان فلسفة معينة.

شعر مالك بألم في معدته، فوضع يده أسفل صدره.

سأل عمر:

- ما بالك تتألم يا سيدي؟

أجاب مالك:

- إنه ألم بسيط، سيختفي بعد قليل.. لدي مسكن للآلام.

قال عمر:

- أصبح جسمك نحيلًا. لماذا لا تُجري بعض الفحوصات الطبية؟

أجاب مالك:

- سأفعل ذلك غداً أو بعد غدٍ.

تناول مالك حبة مسكن للآلام، ثم جلس قبالة عمر، الذي قال:

- هذه الحياة عجيبة...

قاطعها مالك:

- هذه الحياة كالمرأة الساقطة؛ كلما أحسنت الظنّ بها طعنتك برعب

وهول مفاجآتها. لا يُؤتمن جانبها. يُحِيلُ إليّ أن هذه الحياة قابلة للرشوة،

تميل إلى الذي يدفع أكثر.

ابتسم عمر وقال:

- تشبيه عجيب.

سأل مالك:

- هل حاولت يوماً أن تكتب شيئاً يا عمر؟

أجاب عمر:

- الكتابة.. ربما هي حالة تقع في تلك المنطقة الشعرة بين العقل والجنون.
ربما هي حالة من اللاوعي، أو اللامعقول. اندماج عميق بالكلمات.
فعندما تكتب عن شخصية معينة، فأنت تتقمصها كي تحللها، فتجد أنك
تحلل نفسك معها بشكل لا شعوري. تُنطقها، تشكلها في قوالب عديدة،
فإذا بك تتقمص مراحلها جميعاً. تتقمص الشخصية في سعادتها، وحزنها،
وفي صراعتها وثورتها وهدوئها. فعندما تكتب عن مريض نفسي، فيجب
أن تحترق ما يعتلج في صدره من مشاعر. وعندما تكتب عن فيلسوف،
فيجب أن تغوص في أعماق حكمته. ربما الكاتب، كالممثل، يتقمص
الشخصية كي يحللها بشكل صادق. إنه يكون الشخصية، ثم يتقمصها
ويمثلها في خياله. الكتابة علاقة عجيبة بين الكاتب والكلمات التي تصوّر
المشاعر.

سأل مالك:

- ولماذا لا تكتب؟

أجاب عمر:

- ربما أفعل ذلك في المستقبل. الكتابة الصادقة الإبداعية هي التي تأتي
دون التخطيط لها. تأتي بتلقائية. تفرّغ مشاعر الكاتب في الوقت الذي
يحتاج فيه إلى التفريغ. أما أن تقول بأنك ستكتب قصة عن شخص ما أو

بلد ما أو موضوع معيّن، فكأنك تؤرخ، لا تكتب أدباً. القلم الصادق هو الذي يهجم على الورقة البيضاء بجنون المشاعر وتدفعها، بتلقائية عجيبة. القلم الصادق برأيي هو الذي يحركه حزن وألم المشاعر.. تستقطب قلبي الشخصيات العجيبة، غريبة الأطوار، بالغة التعقيد.. أجد نفسي أخطأت في بداية حديثي عندما قلتُ إنني "ربما أفعل ذلك في المستقبل." كان يجب أن أقول: "سأكتب عندما أجد نفسي في حاجة إلى نفض الأعماق والأحاسيس والمشاعر."

انتشرت ابتسامة إعجاب على وجه مالك وقال:

- أنت إنسان عجيب.. منك العجب يتعجب.

شغلّ عمر المسجل الذي كان في جيبه، ووضع شريط جوزيف هايدن، ثم نظر إلى مالك وقال مبتسماً:

- إذا كان العجب الذي تقصده يحمل صفة إيجابية، فالكلمات أحياناً تحمل صفات متناقضة.

سأل مالك:

- أتدري يا عمر؟

أجاب عمر:

- ماذا يا سيدي؟

قال مالك:

- سيدي.. ألا تعلم أن هذه الكلمة فارغة من كل مضامينها، خصوصاً وأنا أجلس معك، أحدثك كصديق حميم.. ولكن أخبرني، ماذا كنت ستفعل لو كنت مكاني؟

أجاب عمر:

- لا أدري، أو ربما لا أريد أن أدري. صراع فكريّ بين الابن ووالده الحاكم. إنه أمر محيّـر بعض الشيء. أتطلب النصيحة من إنسان مجزوء؟ ها أنا هزيل كتاريخ العرب الحديث، "منقوص" كسيادة العرب على بلدانهم.

حَزَن مالِك، وانتشرت مشاعر التعاطف والشفقة في أعماقه. نظر إلى عمر متسائلاً في سره: "أتقضي أربعاً وعشرين سنة، ثم تخرج مقتول الذكورة؟ كم شقيتَ يا عمر.. كم عانيتَ. غدوتَ كيوم بلا نهار، ككتاب بلا صفحات، كلوحة بلا ألوان أو رسومات، ككلمات بلا حروف.

تنهد مالِك وقال بنبرة حزن:

- أتدري ما نحن فيه الآن؟ موسيقى هايدن تراقصنا على أحزاننا.. ملعون ذلك الذي أوجد السجون.

وقف مالِك، وجلب اللوحة التي رسم عليها وجه عمر، ولم يُكْمَلها. نظر عمر إلى اللوحة، وقال وهو يضع عليها يديه اللتين اخشوشتا من قسوة السجن:

- وجه منقوص لرجل لا رجولة فيه. أنتَ لم تجد الوقت كي تُكْمَلني..
كي تُكْمِل رسم صورتي. أما الأيام فوجدت كل الوقت كي تجزئني.. كي
تجعلني ناقصاً، لا أملك قدرة الرجال. أشعر كأنني بين نقصين؛ نقص
بالمصادفة ونقص متعمّد. أشياء كثيرة تحدث مصادفة تحمل توقع
الحقيقة، ومن الخيال ما يطابق الواقع..

ارتسم الوجوم على وجه مالك، ثم قال:

- سأكمل تلك اللوحة قريباً...

قاطع عمر:

- أنتَ لن تكملها، لأنك إن فعلتَ ستخالف الحقيقة. أرى أن تبقى كما
هي. وجه غير مكتمل لرجل مجزوء. أنا أرى نفسي في تلك اللوحة. وإن
أكملتها فسيكون الوجه لرجل آخر، لرجل لا أعرفه.

قال مالك، وهو يضع اللوحة جانباً:

- دعك من هذا. أين تسكن الآن؟

أجاب عمر:

- في بيت العائلة، الذي لا عائلة فيه. أبي توفي قبل بضعة شهور، وأمي
ماتت قبل ثلاث سنوات، وأخي الوحيد يقيم في مستشفى الأمراض
العقلية منذ سنتين. لا أدري كيف افترسه المرض العقلي. علمتُ أنه كان
في سنته الثانية من دراسته للفيزياء عندما تعرض للمرض.

سأل مالك:

- فیزیاء؟

أجاب عمر:

- أجل. كان يرغب أن يصبح مدرساً. علمت ذلك من والدي. لكنني لم أَر في التدريس عملاً مناسباً له.. المدرس. لم تعد هي المدارس. في المدارس، كما السجون، تُطخَن الأفكار باسم النظام والضبُط والقانون، وتُقَيَّد الأيدي والأرجل بسلاسل وهمية باسم الهدوء. لا أشقى من إنسان ذي عقلية فكرية ثورية يعمل في مدرسة،. فهناك يوضع في قوالب يُسَنَّفُ فيها فكره، وتموت فيها ثورته...

قاطعه مالك:

- وكيف عرفت ذلك؟

أجاب عمر:

- كان لي صديق يعمل في إحدى المدارس، وهذا بالتأكيد كان قبل دخولي السجن.

قال مالك:

- ما أشقاك يا عمر! ما أشقاك وما أشقاني! سأقدم مشروباً بارداً.
توجه مالك نحو المطبخ. نظر عمر مرة أخرى إلى اللوحات المعلقة.
سجد من اللوحات يعانق صمت الجدران. لوحات تنطق حزناً عجيباً.

تساءل عمر في أعماقه: "إنه لأمر يثير التساؤل والتعجب حقاً. أترك هذا الشاب حياة البذخ في قصر والده، ويعيش زاهداً معتزلاً ككاهن؟ يُعَدّ طعامه بنفسه، ويعدّ قهوته بنفسه، بعدما كان الخدم والحراس يتنافسون على تقديم الخدمة له، طمعاً في ابتسامة رضا تنطلق من شفثيه. أيجدُ في سجين قضى أربعة وعشرين عاماً في السجن جليساً؟ أترك الخدم، ويعيش في بيت بسيط كهذا من أجل مبادئه وقيمه السامية. أيجتاز فتاة بسيطة للزواج منها، وهو الذي تركع أمامه الأميرات لجمال الأخاذ ومكانته العالية؟ لا شيء يعيبه في ذلك على الإطلاق، ولكنه أمر يثير الاستغراب والتساؤل."

موسيقى هايدن الرائعة تحدث صمت المكان، تخرق الأعماق برقة. الموسيقى الكلاسيكية، فيها من السحر ما يعانق الروح، ويطيّر بها نشوة. موسيقى تندمج مع النفس، تثير الأحاسيس والمشاعر بطريقة هي الأجل والأحلى..

يا هايدن..

يا موزارت..

يا باخ...

ماذا فعلتُ أيديكم بالموسيقى حتى سكن فيها كل هذا الجمال الذي يسبي العقل؟ ولماذا تُدمن النفس عليها؟ أوضعتم مادة لإدمان النفس عليها؟

الفصل التاسع

يُمسّد الصمتَ بحزن عميق.. بخوف هستيري من الموت. تُدَلِّك جسده
وحدة عميقة..

يرتطم مالك بصخور المرض الصلبة..

أهي الحياة تطعن من الخلف مَنْ طلب ودّها؟ أهي تَطْحَنُ كل مَنْ أحسن
الظن بها؟

مرض ينسف جبال أحلامه بالتغيير نحو الأفضل.

مالك.. يَفْتَرُسُه الألم، ويتوسّد اليأس.. ويتَقَوَّع في الأحزان.

إنها الأيام.. يا لعجب الأيام..!

تُفْرِج عنه مصيبة بعد عناء، كي تعتقله مصيبة أخرى.

أهذه آخر معاقل أحزانه؟

فلا أسوأ ولا أمرّ من المرض، لأنه فشل يكتسح الآمال والسعادة،
والاعتماد على النفس، والحب، والحرية..

لا حرية في المرض. المرض عبودية للآخرين.

دخلت طموحاته وأحلامه في سبات هذيانى، وأما الزمن فقد مضى..
في أحد الأيام، بعدما عرف مرضه، ذهب مالك إلى القصر، فرحب به
الحاكم، ظاناً أنّ ابنه قد عاد كي يبقى في القصر. جلس مالك على أحد
المقاعد، وقد اجتاحت حاله نفسية سيئة.

قال مالك كلاماً غريباً، وبنبرة حزن واستسلام:

- أَتَعْبَتَنِي.. وَأَتَعْبُتُكَ

نهبتَ أمسي.. ويومي،

وضاع غدي.. ثم احتضر.

أنفاسي.. معدودة باسم القدر.

أَتَعْبُتُكَ.. فَهَزَمْتَنِي.

عشتُ حياة.. لم أعشها.

غداً.. غداً

ستعلم أن الاسم لم يعد اسمي،

وأنّ هذا الجسد لم يعد جسدي.

إنّ مالكاً قد غادر..

أحلامه مضرّجة بالدم، وجسده قد اندثر..

خال الحاكم أن ابنه فقد عقله، فقفز مندهشاً متعجباً، وركض نحو ابنه وقال وهو يعانقه:

- ما الذي جرى لك؟ أُجِنْتُ؟ لن تغادر هذا القصر بعد اليوم...

قاطعهُ مالك بنبرة حزينة:

- بل سأغادر، وهذه المرة إلى الأبد.

صرخ الحاكم حزناً:

- ماذا تقول؟ لن تغادر القصر وأنت في هذه الحالة.

أجاب مالك وهو يتملّص من عناق لم يدرك معناه، ولم يشعر بدفعه:

- سأرحل إلى بلد بعيد جداً.. لن تستطيع الوصول إليه كي تستردني.. لن

تستطيع خطف الفتيات هناك، وتخدش عذريّتهن، كما فعلت بسارة..

طعنتني بالأذى الذي ألحقته بها...

قاطعهُ الحاكم مستغرباً:

- ألا تزال تفكر بها؟

صرخ مالك:

- وسأبقى. أحببتها ولا أزال أحبها. أنت رجل غريب. لا تحب إلا إنشاء

السجون، وتمتهن التعذيب فيها. أنت مولع بالحروب، وغارق في هوس

الحكم.

جلس الحاكم وسأل مدفوعاً بفضول شديد:

- إلى أي بلد سترحل؟

- لا أدري. كل ما أعرفه أنه بلد بعيد جداً..

- وقيادة الجيش؟

- إلى جهنم.. الجيش وقيادته إلى جهنم. لم يَعْنِي جيش دولة السراب قط

في حياتي. دولة السراب خالدة من أجلك، وأنت خالد من أجلها. أليس

هذا كل ما يهَمُّك؟ يهَمُّك الجيش، والحروب، والقصر. قسوة وشراسة

جنودك تُجْلِسُكَ على هذا الكرسي الفخم، وتزرعك في رخاء العيش. هل

تصوّرت يوماً أن القسوة تقود إلى الرخاء؟ كم هي متناقضة الحياة.. أنت

أب عجيب، وحاكم أعجب، والعجب الذي أقصده بدلالته السيئة..

أدرك الحاكم أن ابنه في وضع نفسي سيء، وهو يقول كلاماً غريباً. سأل

الحاكم متوتراً:

- أجبني يا مالك؟ ما الذي يحزنك؟ ولماذا أصبحت نحيلاً هكذا؟ ألا

تأكل جيداً؟

أجاب مالك:

- أصبحت نحيلاً بسبب الحزن الذي أطعمتني إياه، والأيام أيضاً

تُطْعِمُنِي طعاماً لم أذقه في حياتي قط. "طعام" الخوف المستيري من عالم

مجهول، لا أعلم عنه شيئاً...

قاطعه الحاكم:

- أخبرني بما يجول في رأسك. سأحقق لك ما تريد، والآن إن شئت.

قال الحاكم هذه الكلمات وفي أعماقه يعلم أنه يكذب. أَيْطَلُّ سراح السجناء السياسيين؟ أيقضي على القهر والاستبداد والظلم في دولة السراب؟ أيجرّم الإعدام في دولة السراب؟ هي كلمات انطلقت دون قصد، وكيفما اتَّفَق.

أجاب مالك:

- لا أدري مَنْ الذي قال: "عندما اكتملت سفيتي جفّ البحر." هل حقاً اكتملت سفيتي عندما خرج عمر من السجن؟ ولكن أين سارة؟ أين الحرية للسجناء السياسيين؟ كيف أدّعي أن سفيتي قد اكتملت؟ ماذا فعلتُ لكل هؤلاء؟ لا يوجد وقت لعمل أي شيء.

سأل الحاكم:

- ولماذا؟

أجاب مالك:

- لأن ماء البحر قد نضب، فكيف ستُبَحِر السفينة؟

قال الحاكم متعجباً:

- لا أفهم منك شيئاً.

رد مالك:

- ليس مهماً أن نفهم كل شيء. هنالك أشياء كثيرة نُقدم على فعلها دون أن نفهمها تماماً. أعتقد أن المقاتل الذي يُطلق قذائفه نحو الجهة الأخرى، أو ما يسميها الجهة المعادية، يدرك مدى المعاناة التي يسببها للآخرين؟ الحروب.. لعبة المجانين، وفاقد الوعي. كذلك الطيار الذي شرب كأساً من الكونياك في مجون، خلال الحرب العالمية الثانية، ثم قتل ثمانين ألف إنسان في ثانية في هيروشيا. وعاد الطيار ضاحكاً إلى معسكره. رأيته؟ الحرب لعبة فاقد الوعي، لعبة السكاري.

تساءل الحاكم:

- ألا تريد أن تخبرني...

قاطعته مالك:

- ماذا أخبرك عن إنسان في مراحل المرض الأخيرة.. أورام في معدته.

ومرة أخرى، قفز الحاكم من مكانه وسأل غير مصدق:

- أهذا أنت؟ لا يمكن.. هذا مستحيل.. لا أصدق هذا. يجب أن تُجرى

لك الفحوصات مرة أخرى. سأستدعي أمهر الأطباء.

قال الشاب مُدمع العينين:

- نقضي حياتنا كلها بأيدي لا تطال مطلوبها. وأنا رفعت يدي عالياً كي

تصل إلى هدفها، لكنه سرعان ما اختفى بأمر منك أنت. ظلت يدي

مرفوعة، ليس أملأً في أن تصل إلى هدف قد اختفى، بل لأنها تخشى

السقوط، فإذا بجسدي كله يسقط. هذا أنا، هذا مالك. أخذت مني الأيام كل شيء، وأهدتني المرض. فالزواج من فتاة أحببتها، لم يكن شأني وحدي، لأن الأمر يتعلّق بأمن ومستقبل دولة السراب. وزيارة السجناء المضطهدين والعطف عليهم، لم يكن شأني، لأنهم يثيرون الشغب والفوضى ويزعزعون استقرار الدولة. عمر.. ذلك الرجل الذي قضى أربعة وعشرين عاماً في السجن. ألم يكفِكَ هذا؟ كيف تزعزع استقرار جسده بقتل ذكوره؟ وأما إلغاء إعدام قائد الجيش والضباط الثلاثة، فلم يكن شأني، لأنهم خائنون. أما المرض.. المرض شأني وحدي. لن يشاركني به أحد. أرايت في حياتك شخصاً يتقاسم المرض مع شخص آخر؟ لا. ولن ترى ذلك. الناس يتقاسمون مع بعضهم الطعام والمال والسريـر.. أما المرض فلا. لا يقوى أحد على أن يتقاسم ألم المرض مع شخص آخر. أحزاننا وآلامنا وأمراضنا، كقبورنا، لا تخص أحداً غيرنا.

شعر الحاكم بالحزن على ابنه، لكنه لم يبكِ.. لم يدمع. الجبارة، والطغاة، والقساة لا يبكون. ربما لأن البكاء يخدش جبروتهم الذي يضعون "وسامه" على أكتافهم، تماماً كما يضعون أوسمة إتقان فنون القتـل والتدمير على أكتاف جنralاتهم. الأكتاف نفس الأكتاف. أكتاف الحكام كأكتاف جنralاتهم.. عريضة واسعة كساحات حروبهم. إنهم لا يبكون،

ولا يدعمون. إنهم يستقبلون الأوسمة التي يزداد عددها بزيادة القتل والتدمير ورشق الأشلاء البشرية.

وما أن همّ مالك بالمغادرة، حتى هرول الحاكم نحوه، وقال وهو يضع يده على كتف الشاب:

- لا تغادر. ابق هنا. سأستدعي أمهر الأطباء. أرجوك لا تذهب.

قال مالك:

- أنت ترجوني أن أبقى؟ لم ترّجني، ولم ترّج أحداً في حياتك. الجبابة لا يرجون أحداً، لأنهم ذوو قوى "خارقة". إذا كانت راحتي تهمك، فارفع يد بطشك عن الناس. لا تؤذِ عمر، فهو يزورني في بيتي. ولا تؤذِ أرملة قائد الجيش، فهي تعمل في أحد البنوك. وأعدّ عائلة سارة من المنفى. يكفي كل هؤلاء الأذى الذي لحق بهم بسببك. هكذا تعالجنني من مرضي.

تساءل الحاكم متعجباً:

- أتعاني من مرض خطير وتفكر في هؤلاء؟ أيشغلك أمرهم أكثر مما يُشغلك أمر نفسك؟ أنت عجيب يا مالك.

قال مالك:

- والآن دعني وشأني.

رد الحاكم قائلاً:

- سأرسل إليك فريقاً من الأطباء...

قاطعه مالك:

- لا تفعل.. لن أقول إنني لا أخشى الموت، فلا تصدّق أن أحداً لا يخاف من الموت.

تقدم الحاكم خطوتين إلى الأمام وقال:

- لا يمكنك أن تعيش وحيداً، وأنت في هذه الحالة.. هذا جنون.
قال الشاب كلاماً غريباً:

- اعتبرني مجنوناً. فلطالما وصفتني بالجنون. أحياناً، نحسد المجانين على حرية أقوالهم وأفعالهم.. نحن سيئون، نحسدهم حتى على جنون عقولهم. أتراهم يحسدوننا على عقولنا المجنونة، نحن من نسمي أنفسنا عقلاء؟ وهل فكّرت يوماً لماذا يوجد القصر الذي تعيش فيه، في شارع يُطلق عليه شارع "البلاء"؟ وداعاً يا حاكم دولة السراب.

قال الحاكم متعجباً:

- ماذا أرى؟ إنك تهذي يا مالك.

أمسك الحاكم بذراع ابنه، ولكن الشاب تملّص من قبضته، وغادر القصر بسرعة، وهو يسمع نداءات والده بالعودة.

راح مالك يهيم في الطرقات دون هدف. الأفكار تزلزل أعماقه.. تضرب أعضاء جسمه عضواً عضواً، مخلفة دماراً داخلياً شديداً. زلزال اليأس

يحرك الأعضاء من أماكنها، تاركاً فراغاً كبيراً واسعاً لا يتنبأ بحدوثه
راصدو الزلازل. شعر كأنه طائر كُسرت جناحاه، فغدا مبتوراً، معطوباً،
عاجزاً.

مَنْ يستوقفه آلام ومعاناة طائر غير صياد يتربّص به؟ فالموت يتربّص
بمالك كصياد، وينصب له الفخاخ، كي ينقضّ عليه بقسوة وشراسة.
عاد مالك إلى بيته، وهو يشعر أن جسده يتنفخ بالفراغ، كمعدته التي
"تنتفخ" بالأورام. لم يشعر برغبة في تناول الطعام، على الرغم من جوعه
الشديد.

أي طعام هذا الذي تحتاجه معدة معطوبة؟

شعر برغبة قوية في الكتابة،

فللكتابة حالة مزاجية أيضاً..

تأتي فجأة.. وفجأة تذهب.

تقول.. وتصمت.

تنام.. وتستيقظ.

تهداً.. وتثور.

تصنع سلاماً.. وتُشعل حروباً،

ومعارك فكرية..

تحيي حباً.. وتقتل آخر.

بين السطور،

وفوق السطور...

وفي أحشاء الكلمات،

وفي تفاعلات البحور.

الحبر في قلمه تعتريه رغبة الانطلاق.. رغبة التدفق.. رغبة الهجوم على

ورقةٍ بكرٍ.. رغبة الجنون على جسد الورقة البيضاء، ورغبة ممارسة الحب

مع الكلمات.

كتب مالك في مذكرته، وهو في وضع نفسي سيء:

"نُفِيتُ في الصمت..

ملأْتُني الكلمات الصامتة..

وعالمي أضاءه نور مظلّم..

صرخة صامتة تعلنُ نهاية بدايتي..

أُوصدت الحياة أبوابها،

ونَفَت جسدي..

غدوتُ كقيثارة بلا أوتار.. مَنْ يسمع صوتي؟

كمثلتُ بلا أضلاع.. مَنْ يدرك شكلي؟

غدوتُ حقيقة في عالم الأوهام..

في عالم الأحلام.. في عالم المتعة..

جفّ اللسان، وذُبلّ الجسد..
وفي أحشائي توطّنتُ الأحزان.

الأفكار تأخذ شكلاً دائرياً.. إنه دوار الدائرة.
لماذا أخذتُ الأرض شكلها الدائري؟
ألم نكتسب صفة الدوران حول أنفسنا من هذه الأرض؟
أكسبتنا أمّنا الأرض دورانها المجنون.

مَنْ يَقُومُ منحنياً؟
مَنْ يَسْتَطِيعُ لِيّ مستقيماً؟
مَنْ يَتَنَشَلُّ من تحت الانقراض ذاتي؟

حب قهري.. عذّبي.. بعثري.. سحقتني..
تصورتكِ.. قبلتِكِ جبلاً من القُبلات،
فاجتاحتنِي حمى الحب المحرقة.. فثارت براكينِي.
لم أتمالك من احتضانك حد الالتصاق،
كما تلتصق الأوراق الخضراء في أغصانها..
كما تلتصق الفروع في الأصول..

لم أتمالك من احتضانك حد الاندماج..
كاندماج الألوان.. حد الالتحام..

أقسمتُ أن أعشقتُ..

أقسمتُ أن أعشقتُ عشق الشعراء والرسامين..

أقسمتُ أن أكون حرفاً في كل الكلمات الصامتة..

والكلمات الصارخة.. والكلمات المبحوحة..

والكلمات المحتضرة..

أقسمتُ أن أحبك بجنون "معقول" .. بلا وعي..

بشراسة الشراسة.

بأي حق يقام عليّ حدّ الخطيئة؟

فالرسامون، كالشعراء، يقولون ما لا يفعلون..

يمارسون الحب في عقولهم..

ويمارسون الحب بين السطور،

وفي أحشاء الألوان.. وفوق أجساد اللوحات العارية.

أقسمتُ أن أكون صفحة في كتب العشق..

كتب التاريخ.. كتب الفلسفة والفلك..

كتب الأدب والفنون..

أقسمتُ أن أكون كلمة نضال من أجل الحرية..

لكن.. لكن الأيام رسمتني على لوحة من الرمال المتحركة.."

وضع مالك القلم على الطاولة، ثم ارتقى على سريره، وهو يلهث، كمنّ
سبح مسافة طويلة.

إنها السباحة في أحشاء الكلمات.. السباحة في منطقة مجاورة للجنون.
شاحباً وجهه كان. فالحزن يغلفه، واليأس يرتسم عليه.
متعبتين عيناه كانتا. فلم تريا سوى الظلام.. والمجهول.. واللاشيء.
غريبة هي الحياة.. توهم الإنسان أنه موجود، ثم تقوده نحو العدمية.

* * *

وتمر الأيام...

الخلاف على متر مربع على الشريط الحدودي الفاصل بين دولة السراب
ودولة الضباب، يجعل حاكم دولة السراب يعلن حرباً جديدة على دولة
الضباب.

المتر المربع.. حرب من أجل متر مربع؟

فالتر المربع في حسابات الدول، كما هو في حسابات وتقديرات الفلكيين،
بالغ الأهمية. إنه أكثر أهمية من سجاد الجثث الذي يغطي ساحة القتال.

جلس عمر بالقرب من سرير مالك، وقد هزه الشحوب والحزن اللذان غلّفا وجه مالك.

إنه شحوب الساعة الأخيرة.. حزن اللحظات الأخيرة، والنظرات الأخيرة.

مجموعة من الأطباء تقوم بعلاجه في منزله، بعد ما رفض مالك العلاج في المستشفى، لأنه أدرك حتمية نهاية حياته. تقدم أحد الأطباء نحو مالك، وأجرى فحصاً سريرياً لدقات قلبه، ثم ضربه حقه في العضل.

عجيب عمل الأطباء هذا. إنهم يعالجون الآلام بالآلام. يستيحيون الأجساد برقة أحياناً. ولماذا لا نتبادل الأدوار؟ لماذا لا نعالجهم كما يعالجوننا؟ أم أنهم لا يألمون كما نألم؟

بإشارة خفيفة بيده، طلب مالك من الأطباء مغادرة المكان، كأنه أدرك عبث العلاج. لم يبق في المنزل غير عمر وممرض في عقده الثالث.

الدقائق تمر حزينة، بطيئة، مُحِطَّة..

غلّف الحزن وجه عمر، وقال وهو ينظر إلى مالك، الذي كان مستلقياً على ظهره:

- لماذا تصرّ على البقاء هنا، وليس في المستشفى يا سيدي؟

تملأ مالك قليلاً. الكلمات مخنوقة.. والأفكار تحتضر.. والحزن واليأس يشلانّ اللسان.

شعر بالارتياح لرؤية عمر، ولكنه لم يقوَ على قول الكثير، أو حتى القليل.
هذه لحظات الوداع المؤلمة.. لحظات الصمت.. لحظات سباحة الروح
بين الحياة والموت..

للصمت لغة أحياناً.. لغة قوية، معبرة، قاتلة.

لم يتكلم مالك، واكتفى بابتسامة تحتضر على شفثيه اللتين غلّفهما جفاف
شديد، ولون لا حياة فيه، فأدرك عمر أن في ابتسامة مالك الشاحبة دعوة
صامتة لمتابعة الحديث. كان الممرض في الغرفة المجاورة، يحضر بعض
الأدوية لمريض لم تعد الأدوية علاجاً له.
قال عمر حزينا:

- لن أنساك.. علمتُ أن عائلة الفتاة قد عادت من المنفى يا سيدي.

فرفع مالك يده قليلاً، فأدرك عمر أن الشاب يطلب منه عدم قول كلمة
"سيدي". ولكن عمر أردف يقول بنبرة حاسمة:

- بل أنت سيدي، وسيّد الشعب، وسيّد السجناء والمستضعفين، وسيّد
المضطهدين في هذا العالم..

وأخيراً، انطلقت ثلاث كلمات من فم مالك...

كلمات مبتورة.. مبعثرة.. شبه مكتومة.. حزينة.. مؤلمة.. طاعنة.. مُحْرِقة
كسفود ملتهب. كلمات بُعثت بعد موتها.

قال مالك بصوت يقع بين الصمت والكلام:

- أشد... أشعر... ر... بخو... ف... شد... يد...

سالت الدموع على خديّ عمر. دموع متتالية.. متدافعة كما تتدافع جموع الناس.. متنافسة.. حزينة.. ملتهبة. هذه الدموع التي لم تنهمر من عينيه طيلة فترة وجوده في السجن.

لم يُبكه السجن، وأبكاه مالك. لم تَسِلْ دمعة واحدة، حتى بعد قتل رجولته، كأنها تجمعت كي تنهمر دفعة واحدة، في أصعب الأوقات، وأكثرها حزنًا، ففراق هذا العظيم أصعب عليه من فَقْد رجولته، أشد قسوة من السجن الذي قضى فيه أربعة وعشرين عاماً، أكثر ظلاماً من عتمة الزنزانة.

بكاء صامت.. دموع عذراء لم تחדشها شعيرات ذقنه. وضع عمر شريط جوزيف هايدن، فحرّك مالك رأسه حركة خفيفة، إشارة إلى رغبة في الاستماع إلى الموسيقى. غريب أمرك يا مالك. أنت تودّع الحياة؟ أم تودّع موسيقى هايدن؟

موسيقى هايدن على طريقته.. تودّعه.. تقتل صمته.. هذه الموسيقى التي انتقلت من عتمة السجن، إلى عتمة وألم المرض. هي التي كانت تحدث صمت سجين في زنزانته، تحدث الآن صمت مريض في سريره..

ولماذا موسيقى هايدن الرائعة في صمت السجن، وفي صمت المرض؟

هل شاءت الأيام أن ترافق مقطوعات هايدن الموسيقية بؤس البؤساء،
وشقاء الأشقياء؟

لم يحقّف عمر خديه، فهذا العظيم لا تُجفّف دموع فراقه، ودموع وداعه.
دموع متدافعة، تسبق نظرات وداعه. فقط في لحظة وداع العظيم، تكون
دموع الوداع أسرع من نظرات الوداع.

لم يعد عمر يقوى على أخذ الأنفاس العميقة من الحزن.
نظر إلى مالك بنظرة اخترقت تلك الغشاوة التي كوّنتها دموعه وقال:
- لا تخش الموت. الصالحون لا يخشون الموت. العظماء لا يخافونه. وأنت
رجل صالح وعظيم..

قال عمر هذه الكلمات وفي أعماقه يعلم أنه يكذب، فأكثر الناس صلاحاً
وعظمة يخشون الموت، ويهابونه، وينفرون منه.

عمر يخدع نفسه. ولكن لماذا؟ هل وجد نفسه مرغماً على خداع نفسه؟ أم
كان مرغماً على خداع مالك؟ لماذا نجد أنفسنا في كثير من الأحيان في
خداع عجيب مع أنفسنا؟ ألكي نخفف ألم شخص عزيز؟ أم لتتهرّب من
إجابة سؤال محيّر أو محرج؟ أم لنشكل صورة كاذبة لأنفسنا، نعرضها أمام
الآخرين، كي نُخفي عيباً ما؟

أكان عمر يخفف ألم هذا الشاب بخداعه لنفسه والكذب عليها؟

تخفيف آلام الناس هدف سام، لا يدركه إلاّ العظماء والنبلاء.. أكان هذا
عمر؟

شاب يحتضر، ورجل بالك، وممرّض بائس في الحجرة المجاورة..
وأما دولة السراب فتخوض حرباً من أجل متر مربع. إنه جنون الحكم،
وهستيريا الالتصاق به.

حُبّ الحكم والنفوذ حدّ الهذيان.. حد الذوبان..

مَنْ يحاسب حاكماً على جنونه؟

مَنْ يحاسب حاكماً على هذيانه؟

فالمجانين لا يحاسبون على أقوالهم وأفعالهم..

متر مربع يفصل بين هذا الابن ووالده الحاكم..

الشمس.. تميل نحو المغيّب، وأشعتها تحتضر، ووجهها مظلم. فللشمس

طريقتها في بكاء العظماء والحزن عليهم.

تغيّب منكّسة الرأس، كما تُنكّس الأعلام في الكوارث والنكبات

والفجائع..

تغيّب بحزنها، كأنها أبّت أن تغادر ذلك الجزء من الكرة الأرضية إلا

بصحبة مالك، فلا مؤنس لوحدها إلا صحبة العظماء.

أشاءت الأقدار أن يرحل مالك في الوقت الذي ترحل فيه أشعة الشمس

عن دولة السراب؟

أشأء السء أن تغرق دولة السراب في ظلامين؟ ظلام رحيل مالك،
وظلام رحيل الشمس..

ها هي اللوحات المعلقة على جدران حجرته، يلقيها الحزن والصمت
والشحب، كأنها تُقيم المآتم على طريقتها. تشيع مالكا على طريقتها..

تبكي بلا دموع..

تنطق بلا كلام..

تتلون بلا ألوان..

هو مالك الذي كان يفهم لغة لوحاته، يتحسس أجزاؤها، فيشعر بدفئها.
هو الذي كان يعالج آلام لوحاته وأحزانها كطبيب ماهر، كطبيب ينبض
قلبه بالمعاني السامية، والمشاعر الإنسانية. مالك طبيب لوحاته. هو الذي
هيا البيئة المناسبة لتزواج ألوانها، لتدفق مشاعرها، فغدت كل لوحة
كجسد امرأة جميل. امرأة شهية، مغرية، مشتتة. إنها العلاقة الحميمة بين
الرسام ولوحاته.

اللوحات شاحبة من الحزن. هي تُدرك الآن أنّ اليد الدافئة، التي كانت
تتحسسها سترحل دون رجعة. فمن سيداعب أجسادها بحميمة؟ من
يخاطب صمتها؟

هي الآن ترتدي ثوب الحزن على مالك، الذي ناضل من أجل الحرية
بصمت اللوحات.. بجنون ألوانها، برقة معانيها، بثورة حزنها.

أهو النضال الذي لا نضال فيه؟

إنها أنفاسه الأخيرة.. في لحظاتها الأخيرة.. في لحظاتها الحاسمة.

لحظات المد والجزر.. لحظة حدوث معجزة ما.. لحظات الوقوف المتأرجح بين الارتفاع والهبوط.

حشرة أنفاس مالك، وموسيقى هايدن، وصمت عمر، ودموع تنهمر من عينين تعبنا من عتمة السجن.

أيها القلب.. كم تعبت من أحزانك.

أمامك إشارة كفّ الموت..

فَقِفْ..

لا أحد يقوى على كسر إشارة كفّ الموت، مهما بلغت سرعته، وقوته..

لا تُكسر إشارة كفّ الموت كما تُكسر الإشارات الضوئية أحياناً..

مرت بضع دقائق، فإذا بآخر نفس يخرج ببطء وصمت. لم تحدث

المعجزة، فقد انتهى عصرها، وأبّت جاذبية الأرض إلا أن تشدّ جسده

بعنف إلى أسفل.. إلى السقوط، غير آبهة بألم الارتطام.

قفز عمر من مكانه كمن صعقه تيار كهربائي، والدموع ذوارف، والحزن

يتأجج في الصدر.

عانق عمر جسد مالك النحيل، ثم ابتعد قليلاً، وراح ينظر إلى وجه مالك

الذابل، لعل ذلك النفس يكون خداعاً بصرياً أو خداعاً سمعياً، فما أكثر

الخداع السمعي والبصري في حياتنا. الأطباء النفسيون يتحدثون عنه، ويعالجون مرضاهم منه.

لكنها الحقيقة. الحقيقة التي يُلْقَها غشاء رقيق.. غشاء عدم الرغبة أو القدرة على التصديق. ربما هي الحقيقة المشوشة التي تقع بين الواقع والخيال.

رحل مالك، وبقيت موسيقى هايدن الرائعة. رحل جسد مالك، وظل حزن لوحاته خالداً، كما رحل جسد هايدن، وبقيت مقطوعاته الموسيقية خالدة. هكذا يرحل العظماء. ترحل أجسادهم، وتتوطن أعمالهم وذكراهم في عالم الخلود، تاركة بصمة الوجود.

ليس سهلاً أن يترك الإنسان بصمة الوجود على الأرض.

أليست قصائد الشعراء، واختراعات العلماء، ومؤلفات الكتّاب والفلاسفة، ولوحات الرسامين بصمة خالدة لوجودهم. كثيرون مَنْ ماتوا، لم يتركوا بصمة وجودهم، فلا نعلم عنهم شيئاً.

هذا أنتَ يا مالك. كل لوحة من لوحاتك تنزّين باسمك، تسري حرارة جسدك في أعماقها. انتقلت دقات قلبك إلى كل لوحاتك، فدبّت فيها الحياة. انتقل صوت أنفاسك إليها.

أنتَ.. أنتَ الذي لم يكن أجمل وأشهى من صوت أنفاسك إلا صوت أنفاسك.

أظلمت السماء..

أين أنت أيها القمر؟

أهي ليلة غير مقيمة؟ أم إنك ضللت طريقك، وخرجت عن مدارك؟
كأنك أيها القمر نكست رأسك، رافضاً أن ترسل نورك إلى دولة
السراب..

فللقمر أيضاً طريقته للتعبير عن الحزن.

خلع عمر عباءة الصمت.. خلعهما وألقى بها بعيداً..

صرخ عمر..

صرخة متسائلة..

صرخة متعجبة..

صرخة محتجة..

- أهكذا يموت العظماء؟ أهكذا يفارقون سطح الأرض؟ أهكذا تموت

يا مالك؟ ألا تجد من يبكيك أيها العظيم، غير رجل مقتول الرجولة..

مجزوء.. شبه رجل..؟

يا أنت..

استيقظ..

أخبرني أنك كنت على موعد مع النوم..

أخبرني.. قل إنك تهوى النوم في غير حينه..

أيتها الجدران.. اصرخي...

أيقظيه.. إنه لا يسمع صوتي..

أخبريه أن نضاله من أجل السجناء لم ينتهِ بعد..

كيف ينام وهناك مَنْ يناديه؟ كيف لا يسمع صوت قهر المقهورين؟

كيف لا يسمع صوت ظلم المظلومين في سجون التعذيب؟

حمل عمر اللوحة، التي رسم مالك جزءاً من وجه عمر عليها، ولم يتمكن

من إكمالها بسبب المرض.

واصل عمر يقول باكيةً:

أيتها اللوحات.. اصرخي.

ليس هكذا يموت العظماء..

اصرخي.. ليس الآن، ليس هنا...

استيقظ يا مالك، فنقص هذه اللوحة يناديك.. ينادي ريشتك.

أخرجني عن قانون صمتك، أيتها اللوحات.

تكلمي.. فهذا الذي كافح قمع الكلمات..

انطلقني.. فهذا الذي كسر قيد الحريات..

قولي.. إن هذا العظيم ما مات..

حضر عمر في تلك اللحظة أغنية حزينة للمغني ألفيس بريسلي "هل أنت

وحيد الليلة؟"

مات مالك..

ورحلت العائلة..

وماتت رجولته..

أهناك وحدة أعمق من هذه الوحدة؟

فمن وحدة عمر تلتمس الوحدة وحدثها..

جاء المريض، ورأى عمر يصرخ باكياً، وهو يحمل اللوحة، ويتحرك في الحجرة كالتائه. يتحرك عمر بشكل دائري.. جنون الدائرة. هكذا نحن عندما تصعقنا الصدمة أحياناً، تتحرك أقدامنا، وبقوة عجيبة، في دوائر وهمية تتسع وتضيق. نكس المريض ذقنه حزناً.

اقترب عمر من الطاولة المستديرة، وهو يحمل اللوحة، فإذا بمذكرات مالك تقفز بحزنها، وتدفعها وجنونها إلى عينيه. أمسك عمر بالدفتر وقال:

- لن أقول إنني سأكتب عنك يا مالك، لأن الكتابة تأتي دون التخطيط لها، بل سأقول إنك غدوتَ بطلاً لرواية تم تأليفها في الأعماق، ودفتر مذكراتك سيضيء رواية أُلِّفَت قبل أن تُكتب. روايتي قد لا تثير اهتمام النقاد. أتدرك معنى أن تكون مُلهمًا لكاتب؟ معناه أنك عظيم، لأن القلم لا يحركه إلاّ العظماء. أتدرك معنى أن يكون الكتاب لك، ومن أجلك؟ معناه أنك سكنتَ قلب وجسد الكاتب.

ذهب الممرض إلى القصر، كي يخبر الحاكم. عجيبة هي الأيام، أيموت مالك في الوقت الذي تنتهي فيه الحرب؟ حرب المتر المربع.

يا لها من مصادفة عجيبة! يا لعجب المصادفة!

تنتهي حرب "المتر المربع" في الوقت الذي يموت فيه مالك، كعاشقين التقياً عند طاولة واحدة؛ الأول شرب عصير الحياة مصادفة، والثاني شرب سائل الموت مصادفة، عند طاولة واحدة..

مات مالك، وعاشت دولة السراب.. يا لها من مصادفة أعجب!

يلج الممرض القصر في الوقت الذي يدخل فيه قائد الجيش القصر كي يعلن انتهاء حرب "المتر المربع" لصالح دولة السراب وهزيمة دولة الضباب.

يدخل الرجلان، ولا يعلم أحد منهما ما في جعبة الآخر. إنها مصادفة وإن تنطق من عجبها عجباً.

تتالت المصادفات العجيبة في دولة السراب.. دولة العجائب.

يقف الرجلان أمام الحاكم. الممرض حزين لموت مالك، وقائد الجيش سعيد لانتصار دولة السراب.

الممرض وقائد الجيش. كل منهما يعتقد أن لديه الخبر الأهم. والآن يقع الاختيار على أذني الحاكم. أذناه فقط تقرران استقبال الخبر الأهم والأقوى، كالقمر الاصطناعي، الذي يستقبل الإشارات الأقوى.

ويُطلق الرجال قذيفتيهما الكلامية، فيقولان معاً:

- مات.. مالك.. كسبنا الحرب.

قفز الحاكم وقال صارخاً:

- الحرب..... مالك.

هي تلك. الحرب. إشارات الحروب أقوى وأسرع من سكون الموت.

فأي إشارات تصدر عن ميت؟

(انتهت في 28 أيلول/ سبتمبر 2009)

obeikandi.com